

عرب
رواية
جوهرة

علاء الدين



منشورات
دار السلسلة
الكويت

علياء الكاظمي

جوهرة.

الكويت: ذات السلاسل، 2017

388 ص ؛ 23.5 سم.

الردمك: 3-53-80-99966-978

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الخامسة

1438 هـ - 2017 م

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي ذات السلاسل للطباعة للنشر والتوزيع



منشورات

ذات السلاسل

الكويت

E-mail: ths@thatalsalasil.com.kw
Web site: www.thatalsalasil.com.kw

الناشر، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع

 @THATALSALASIL

الكويت - ص.ب، 12041 الشامية 71651

 @THATALSALASIL

تلفون، 22466266/55 (+965)

 thatalsalasilbookstore

فاكس، 22438304 (+965)

للتواصل مع الكاتبة



alyaa_story @ yahoo.com



@ alyaa story

لوحة الغلاف للفنانة
لمياء البابطين



Lamyalbabtain@gmail.com



@lamya_albabtain

الإهداء

- إلى أختي بشينة...
 إلى أجمل وأرق أخت في العالم..
 إلى صديقة الطفولة ورفيقة الدرب..
 إلى كل الرزانة والهدوء والصبر..
 إلى الواحة في حياتي..
 إلى كل الدعم الذي يحتاجه كل شخص..
 إلى الآذان الصاغية في كل وقت وأمر..
 إلى التي تصدق معها كل التوقعات..
 إلى القلب الكبير..
 إلى الحلول الصحيحة والحب العظيم..
 إلى التي كلما حزنت تعيد إليّ شغفي بالحياة..
 إلى كل البساطة والعفوية في هذا الكون..
 إلى ملاكي الطيب، وتوأم الروح والقلب..
 إلى التي تحبني كما أنا، وتكمل فيّ كل نقص..
 أحبك يا نهر العطاء..
 حفظك الله وحمالك يا أكثر من أحب..

المقدمة

أحبتني إنه إصدار جديد، يخفق قلبي وأنا أفكر أنه بين أيديكم، وأنني بانتظار تقييمكم لعمل استغرق مني شهوراً طويلة لكتابته وليالٍ كثيرة قضيتها معه في سهر متعب لكنه ممتع في الوقت نفسه.

عندما أكتب أنسلخ عن العالم، عن كل شيء، عن كل فكرة، عن كل انتصار وخيبة..

لم أشعر بالراحة أبداً في حياتي كما أشعرها وأنا أكتب..

هذه الرواية استوحيتها من حكاية فتاة كتبت لي قصتها في يوم ما فألهمني فقد مست معاناتها قلبي..

في روايتي هذه شخصيات عديدة لا أعرف من منهم سيتمكن من ملامسة قلوبكم لكنهم قطعاً لامسوا قلبي أنا، شخصيات عاشت في مخيلتي، وصارت جزءاً لا يتجزأ مني.

جوهرة ذكرتني بحبيبة، لأنني كتبتها في وقت جميل من حياتي كما كان الأمر أيام كتابتي لحبيبة، وقت دخلت فيه عالم الدراما التلفزيونية من خلال مسلسلين عُرضوا لي في العام نفسه.

أتمنى أن تكون أعمالتي قد نالت إعجابكم وثقتكم، وأعدكم.. أن يكون القادم أفضل بإذن الله..

أحبكم في الله، كلكم، حتى من ينتقدني منكم، فأنتم مهمين، رائعين، ملهمين، سواء كنتم مشجعين أم ناقدين، فمنكم أتطور وأستفيد.

تحياتي لكل من يمسك بين يديه جوهرتي..

و أخيراً أود أن أهمس لكم بأمر : لقد أحببت هذه الرواية كثيراً ووجدتها
قريبة من نفسي بشكل خاص..
والآن أترككم مع جوهرة..
مع تمنياتي لكم بقراءة ممتعة..

(1)

في ليلة ممطرة

كانت ليلة باردة من ليالي شهر يناير..
 خرجت جوهرة من باب الفندق الفخم الذي أقيم فيه حفل زفاف أختها
 ماجدة..

كانت الساعة تقترب من الثالثة فجراً..
 بدت جميلة بشعرها الكث المنسدل على ظهرها وبثوبها الأحمر ذو اللون
 الصارخ وقد غطت كتفيها بشال من المخمل الأسود..

وقفت وهي تفرك يديها ببعضهما طمعاً في بعض الدفء.. وفكرت ليتها
 تبيت ليلتها هذه في الفندق مع أمها.. لكنها لا تستطيع ترك ولدها شهاب.. فقد
 أكمل شهره العاشر للتو، كما أنه لا يزال يعتمد عليها في رضاعته.. وابتتها فضة
 لا تزال تهرع إليها كل ليلة رغم أنها أكلمت الرابعة من عمرها لكن الكوابيس
 تتابها دائماً رغم أنها داومت على قراءة بعض آيات القرآن الكريم عليها قبل
 النوم على هذه الكوابيس السيئة تفارقها.

اقترب زوجها أحمد بسيارته وقبل أن تركب بجواره لمحت وجهه المنزعج
 لاضطراره لأخذها في وقت كهذا.

جلست جوهرة بجانبه.. وبدأت تتحدث عن الحفل الباذخ الجميل الذي
 أقامه أهل صالح عريس أختها الوحيدة والتي تصغرها بخمسة أعوام.. كانت
 جوهرة قد أكلمت الثلاثين من عمرها في ذلك الشهر في حين أكلمت ماجدة
 الخامسة والعشرين في يوم زفافها، فقد ولدت كلاهما في يناير.

زفر أحمد بضيق: أكره خروجك للأعراس وتركك للصغار وحدهم كل هذا
 الوقت مع الخادمة!

نظرت إليه جوهرة طويلاً ، كم تكرهه عندما يُلمح إلى تقصيرها.. فهي امرأة كرسَتْ كل وقتها للعناية بطفلها.. ولم تكن تحضر المناسبات الاجتماعية إلا نادراً.. وللمقربين فقط، في حين كان زوجها يقضي جل وقته مع أصدقائه ونادراً ما يُظهر اهتمامه لها أو لطفليه، تعرف طيبة قلبه وثق بوجهه لها لكنه لم يكن يستطيع أن يعبر لها عن هذا الحب!

ساد الصمت بينهما خلال الطريق.. وأحست جوهرة باكتناز الحليب في صدرها فابتسمت مشتاقة لطفلها الرضيع..

لمحت أحمد وهو يعبث في جيبه ليخرج علبة السجائر التي يدمنها.. ورغم أنها حاولت إقناعه مراراً بترك التدخين موضحةً له مضاره إلا أنها لم تفلح في التأثير عليه أبداً.

وصلا إلى منطقة سكنهم.. فقاد أحمد السيارة نحو الجمعية التعاونية..

سألته مستنكرة: لا تقل لي أنك تريد شراء السجائر في هذا الوقت!!

قال بإصرار: مزاجي متعكر وأحتاجها جداً.

زفرت: في هذا الوقت؟ اذهب واشترها في الصباح! ستأخر على الأولاد

أكثر! ألم تكن منزعجاً من تركي لهم كل هذا الوقت مع الخادمة للتو!

قال متأففاً: بعض الدقائق الإضافية لن تغير شيئاً.

ركن أحمد السيارة مقابل المدخل.. ونزل منها مترجلاً.. ودخل الجمعية..

نظرت جوهرة خارج النافذة وقد بدأ المطر ينهمر بشدة..

لا تعرف لم حدثت نحو حاويات القمامة تحديداً.. كانت سارحة.. وفجأة

لمحت امرأة تسير بحذر وهي تحمل بين يديها شيئاً ما..

راقبت المرأة ساهمة.. ثم دق قلبها وهي تراها تضع ما بين يديها على الأرض

الرطبة بحذر..

وتجري هاربة..

فتحت جوهرة باب السيارة فجأة.. ونادت: انتظري!

سمعتها المرأة التي لاحظت جوهرة أنها خادمة من طريقة ملبسها، فأطلقت

ساقبها للريح هاربة وهي تغطي وجهها بالشال الملقى على كتفها...
مشت جوهرة نحو ذلك الشيء المرمي على الأرض كلفافة غير مكترثة بذيل
ثوبها الذي أتلفه الطين والمطر.. هشت قطة سوداء مخيفة تقف بجوار إحدى
حاويات القمامة..
وانحنت.. أزاحت جزءاً من اللفافة المرمية على الأرض بحذر.. فشهقت..
فهناك.. رقد صبي حديث الولادة.. يرتعش برداً وقد تبلل شعره الذي لا يزال
ملوثاً بدم الولادة بقطرات المطر الطاهرة.

(2)

لن أتركه

وصلت جوهرة إلى البيت تحمل ذلك الصبي وتضمه إلى صدرها.. كان أحمد هائجاً..

فتارة يشتم أم الصبي المجهولة الخاطئة بلا شك.. وتارة يلوم جوهرة أنها نزلت من السيارة أساساً لتكتشف وجود الصبي ومن ثم اضطرارهما لأخذه لينقذاه من موت محقق..

قال أحمد: علينا أخذه إلى المخفر حالاً..

تساءلت جوهرة: الآن؟ ألا يمكننا الانتظار للصباح؟؟

نهرها: طبعاً لا.. تريديننا أن نتورط مع الشرطة! بدلي ملابسك فوراً وتعالى معي!

استنكرت: أذهب معك إلى المخفر في هذا الوقت؟

قال: طبعاً.. فأنا لا أستطيع حمل الطفل وقيادة السيارة.. كما أنك أنت من وجده..

أومأت برأسها متفهمة.. وصعدت الدرج تحمل الرضيع الذي كان يبكي.. أطلت الخادمة من غرفة الأطفال مستفسرة وعلامات النعاس مرتسمة على وجهها، فتعجبت لرؤية سيدتها تحمل طفلاً يبكي، طلبت منها جوهرة أن تحضر لها بعضاً من ملابس شهاب عندما كان رضيعاً.. وأخذت الصغير إلى غرفتها كي لا يوقظ صوت بكائه طفليها النائمين في الغرفة الأخرى.

وبمجرد أن وضعت الطفل على طاولة التبديل الخاصة بولدها، تأملته، ولاحظت بشرته البيضاء الفاتحة.. دخلت الخادمة بالملابس.. وساعدت جوهرة بتنظيفه بفوطة مبتلة.. ألبسته جوهرة حفاظاً ثم ألبسته ملابس ولدها..

ولفته بعناية.. ثم طلبت من الخادمة أن تخرج..

وبمجرد خروجها نظرت جوهرة إلى الصغير الباكي.. ودون أن تتردد خلعت ثوبها.. وأرضعته..

استكان المسكين بين ذراعيها وقد هدأ تماماً إلى أن أنهى رضعته ونام آمناً كملك صغير.

تأملته جوهرة وقد شبع واندس بين أحضانها كأنه يريد الالتصاق بها فأحست بموجة حنان جارف تجتاح فؤادها،

عرفت بحدسها أن تلك الخادمة التي رمت به بجوار حاويات القمامة ليست أمه قطعاً،

فبشرة الصبي البيضاء تخبرها بوضوح أنه لا ينتمي إلى جنسية تلك الخادمة التي خمنت جنسيتها من هيئتها الخارجية رغم الظلام.

أتى أحمد يستعجلها.. فغيرت ثيابها على الفور وارتدت عباءتها وانطلقا فوراً إلى مخفر المنطقة للإبلاغ عن ما حدث.

وفي المخفر.. أخبروها أن الطفل سيتم تسليمه إلى المستشفى لفحصه فحسباً شاملاً ومن ثم سيتم تسليمه إلى دار الأيتام.

بدا الارتياح على وجه أحمد لأنه قام بالمطلوب منه على أكمل وجه وحن وقت التخلص من هذا الطفل الغريب الذي ألقى به القدر في طريقه وطريق زوجته.

قام أحمد واقفاً ونظر إلى جوهرة التي كانت تحمل الطفل وتضمه إليها..

التقت نظراته بنظراتها.. فجزع ، لقد فهمها على الفور..

هنا فجرت جوهرة مفاجأتها أمام زوجها والضابط عندما قالت بإصرار: أنا

لن أترك هذا الطفل.. أنا أريده!

(3)

ماجدة

استيقظت ماجدة ذلك الصباح وهي تشعر بتوعك شديد..
كانت معدتها تؤلمها.. كحالتها دائماً عندما تقلق.. وهي شخصية قلقة على
الدوام..

لكن ما حدث البارحة في ليلة زفافها كان يفوق احتمالها..
نظرت إلى صالح النائم بجوارها وفكرت.. أيعقل أن يكون مدمناً؟ أم أن
الأمر لا يعدو مجرد لهو كما قال لها البارحة وهي تراه يشم مسحوقه الأبيض؟
أيمكن اللهو بالمخدرات؟

خفق قلبها وقد شعرت بمدى خوفها من المستقبل.. ستسافر الليلة مع هذا
الرجل لأوروبا ويعلم الله وحده ما الذي ستكتشفه عنه في هذه الرحلة..
سرحت وهي تتذكر قصتها القصيرة مع صالح..

التقت به في اجتماع عمل مع والده الثري والذي يعتبر من أكبر رجال
الأعمال في الكويت،

كان الاجتماع في مقر شركتهم وذهبت هي مع مديرها لحضوره.. وبمجرد
أن رآها صالح تعلقت عيناه بها..

كانت ماجدة جميلة.. بشعرها الكستنائي الطويل وبشرتها الفاتحة وعينيها
اللوزيتين الجميلتين.. كانت تلفت الأنظار إليها أينما حلت ورغم ذلك لم يطرق
بابها الكثير من الخطاب مثل أختها جوهرة عندما كانت في سنها.

لطالما تندرته والدتها بعدد خطاب أختها الكبرى، ورغم أن ماجدة تفوق
جوهرة جمالاً وحسناً إلا أنها لم تحظ بهذا العدد من الخطاب.. كانت والدتها

قلقة عليها لاقتربها من الخامسة والعشرين من عمرها بلا زواج وكأن قطار الزواج سيفوتها في هذا العمر الصغير!

فرحت ماجدة بملاحقة صالح لها.. كان يأتي إليها في مكتبها متحججاً بالعمل ليراها ولم يكن مديرها يعترض إطلاقاً على قدومه إكراماً لثروة أبيه التي ترقد آمنة في حسابه لديهم.

ثم أصبح صالح أكثر جرأة وبدأ يتصل بها أيضاً بحجة العمل.. وشيئاً فشيئاً.. أخبرها أنه معجب بها.. ثم صارحها خلال ثلاثة أشهر من لقاءهما الأول أنه يحبها ويريد الزواج منها!

فرحت ماجدة بهذا العريس الرائع الذي تحلم به الكثيرات.. فهو وسيم، وابن عائلة معروفة، وثري للغاية.. كما أنه متميم بها.. وفرحت أمها وأختها أيضاً به.. ولأن والدها متوفي تقدم صالح لخطبتها من عمها ولي أمرها وفرح عمها أيضاً بهذا النسب المشرف.

أصرت والدة صالح على إقامة عرس كبير لولدها الوحيد.. وقدمت لماجدة شبكة ماسية ضخمة ومهراً كبيراً.. ووسط كل ذلك الانبهار بصالح لم تلاحظ ماجدة تلك الهالات السوداء تحت عينيه ولا بشرته المصفرة التي تشي بحالته.. ربما فكرت بينها وبين نفسها أن صالح شاحب الوجه لكنها عللت ذلك بأنه لا ينام كفايته، فهو يحب السهر كثيراً كما أخبرها بالإضافة إلى نحافته وقلة أكله بشكل عام.

انشغلت ماجدة مع أمها وأختها بالتجهيز لعرسها وازدحمت أيامها بتحضيراتها لحياتها الجديدة وفي منزل أهل زوجها خصص لها طابق كامل فرشته على ذوقها الخاص.

وفي ليلة زفافها بدت ماجدة جميلة جداً بثوبها الفخم الذي أصرت والدة زوجها أن تدفع لها ثمنه كهدية زواجها فقبلته منها شاكرة.. فما كان بمقدورها على أية حال شراء ثوب فخم كهذا لولا أن والدة صالح أخبرتها أن ثوب الزفاف سيكون هدية منها ورشحت لها المصمم الذي يمكنها انتقاؤه منه.

انتفضت ماجدة وهي تتذكر تلك اللحظة.. كان العرس قد انتهى وصعدت مع صالح إلى جناحهما الخاص بالفندق، غيرت ملابسها وارتدت قميصاً حريراً بلون السكر.. وسرّحت شعرها بعد أن فكت بصعوبة بالغة تسريحته المعقدة.. خرجت لزوجها مبتسمة بخجل فلمحته يشم ذلك المسحوق الأبيض كما في الأفلام!

كانت ماجدة تسمع عن المخدرات لكنها لم تتوقع قط أنها ستراها في حياتها! كانت تظنها موجودة فقط في الأفلام والمسلسلات ولم تتخيل أبداً أنها ستزوج من رجل يتعاطاها في ليلة زفافها له!

انتفضت ماجدة فقال صالح ضاحكاً: لا تخافي هكذا.. إنها المرة الثانية التي أجربها فيها.. لا تخافي.. هذا النوع لا يسبب الإدمان ولا يضر أبداً.. فكرت أنه قد يخفف عني التوتر في ليلة كهذه!

بدأت ماجدة متوترة صامتة.. فشدها صالح لتجلس بجواره والأسوأ أنه سألهما إن كانت ترغب بتجربتها معه وهو يقسم لها أن هذا المسحوق آمن تماماً ولن يحولها لمدمنة!

رفضت ماجدة عرضه بهدوء وقد انقبض صدرها.. وخلال ساعة أخرى صارت زوجة لصالح وهي تندب حظها ورائحة أنفاسه الغريبة تحيط بها وهما هي الآن في صبيحة زواجها تشعر بألم لا يطاق في معدتها نتيجة تلك الليلة التي قضتها بلا نوم رغم تعبها الشديد بسبب حفلة العرس.

كانت تساؤلاناتها تقض مضجعها وقد شعرت أن سعادتها بزواجها تلاشت بسرعة، كان صالح وحيد والديه.. وتساءلت ماجدة إن كانا يعرفان بحقيقة إدمانه أم لا..

قامت ماجدة وخرجت من الغرفة للصالة الصغيرة الملحقة بها.. بحثت عن موبايها الموجود في حقيبتها.. وفكرت.. أتصل بجوهرة؟ أتخبرها بما حدث معها؟ أم تنتظر؟ ربما كانت تبالغ.. ماذا لو كان صالح صادقاً ولم يكن مدمناً كما تظن؟ ربما لجأ لذلك المسحوق ليخفف من توتره فعلاً كما برر لها؟ عليها أن

تنتظر قليلاً لتتأكد..

لكنها ستسافر الليلة.. ليس لديها الكثير من الوقت لتكتشف الحقيقة قبل سفرها معه، تُرى ما الذي ينتظرها معه في الغربة؟

أحست أن أطرافها ترتعش وهي تفكر أنها ستسافر وحدها مع هذا الرجل الذي لا تكاد تعرف عنه شيئاً!

قررت ماجدة الاتصال بأختها.. أرادت سماع صوتها على أية حال حتى لو لم تبح لها بمخاوفها وحيرتها..
اتصلت ماجدة بجوهرة..

جاءها صوت أختها وقد بدت لها في مكان مزدحم..

سألتها ماجدة بدهشة عن مكانها.. استمعت لها برهة ثم شهقت: ماذا تقولين؟ أنت في المستشفى؟ لماذا؟ لتتابعي حالة طفل؟ أي طفل؟؟ طفل وجدته في الشارع!!!!

(4)

في الدار

جلست جوهرة أمام مديرة دار الأيتام مستجدية وهي تقول: أريد احتضان الطفل.. أنا أولى به من أي امرأة أخرى.. فأنا من وجدته!

استعانت المديرية بالصبر أمام جوهرة التي لم تكن تستوعب قطعاً كلامها: سيدتي أخبرتك سابقاً.. عند إيداع طفل ما في الدار تكون أولية الاحتضان للأسرة التي قدمت طلباً لذلك، لا علاقة للأمر بكونك من وجد الطفل.. يمكنك احتضان أحد الأطفال الأكبر سناً إن كنت مصرة على احتضان طفل يتيم!

هزت جوهرة رأسها: لا لا.. أنا أريد هذا الطفل بالذات.. لا أستطيع أن أشرح لك الأمر.. فأنا لم أفكر بالاحتضان سابقاً.. فلدي ابنة وابن رضيع.. لكن هذا الطفل وضعه الله في طريقي وأشعر أنني قد ارتبطت به بشكل أو بآخر!

بدا أحمد متأففاً وقد ضاق بما تفعله جوهرة، فمنذ وجدت ذلك الطفل تغير حالها وأصبحت مهووسة باحتضان هذا الطفل بأي ثمن، وهامها يأتيان لدار الأيتام للحديث مع المديرية التي بدت صبورة جداً وهي تعيد على زوجته نفس الكلام مراراً دون فائدة!

قالت المديرية: دعيني أقوم بأمر ما من أجلك.. سأتحدث مع السيدة التي لها أولية الاحتضان وأخبرها عن تعلقك بهذا الطفل بالذات عليها تتركه لك!

تحمست جوهرة: أنا مستعدة للحديث معها أيضاً!

ردت المديرية: لا يمكنني إعطاؤك بياناتها.. لكنني سأبذل ما بوسعي.. رغم أنه مخالف لقوانين الدار!

خفق قلب جوهرة وهي تقول: إذا وافقت هذه السيدة على انتظار طفل آخر،

أ يكون هذا الطفل من نصيبي؟

أكدت المديرية: نعم.. فلدينا طلب واحد لاحتضان طفل رضيع في هذه الفترة.. وهذا من حسن حظك!

شكرتها جوهرة بحرارة.. وخرجت مع أحمد وهي مبتسمة..

ركبت بجواره.. فأخذها للبيت.. وقبل أن تنزل.. حاول إقناعها بأن ما تفعله خطأ وأنه غير مستعد لتحمل مسؤولية طفل ليس من صلبه، يكفيه ولديه ومصاريف المنزل المتزايدة والغلاء الذي بات همماً لكل رب أسرة.. لم عليه تحمل طفل يمكن للدولة كفله؟ ويمكن لأي عائلة أخرى بلا أولاد الحصول عليه وتربيته؟

بدت جوهرة عنيدة جداً أمامه وهي تخبره أنها من سيصرف على الطفل.. فهي موظفة في الحكومة.. ولديها مدخراتها.. ورغم أنها في إجازة أمومة حالياً إلا أنها مستعدة للإنفاق على الطفل الجديد والاهتمام التام به والتكفل بكل مصاريفه!

لم يكن أحمد يفهم دوافعها ورغبتها الشديدة باحتضان ذلك الطفل.. ولم تكن جوهرة نفسها تفهم هذه الدوافع، لكنها منذ حملت ذلك الطفل وأنقذته من موت محقق، أحست بعاطفة جارفة نحوه، أحست أن رسالتها في الحياة أن تنقذ شخصاً مثله.. أن تساعد ليكبر ويعيش في أمان.. أن تمنح الحب لمخلوق نبذه أقرب الناس إليه.. أباه وأمه!

كان قلبها يتقطع ألماً كلما فكرت به.. وتخيلت عشرات القصص عن أمه.. أتراها تتعذب لبعده عنها؟ أم أنها سعيدة أنها أخفت عارها بالتخلص منه؟ أي يمكن لأي أم أن تنسى فلذة كبدها؟ أتظن أنه لقي حتفه تحت زخات المطر؟ أم أنها لا تعرف ما الذي فعلته به تلك الخادمة التي رمت به بين حاويات القمامة؟ مر أسبوع آخر.. وفي يوم سعيد اتصلت مديرة الدار لتخبر جوهرة أن وفداً من الدار سيأتي لمعاينة بيتها تمهيداً لتسليمها الطفل كما أرادت..

(5)

باريس

كان الجو صحواً في تلك الليلة.. والشانزليزية يضح برواده..
جلست ماجدة بكامل أناقتها أمام صالح.. كان صالح منشغلاً بمطالعة قائمة
الطعام ليختار منها عشاءه في حين كانت ماجدة منشغلة بمراقبته هو، كانت
خيبتها فيه كبيرة..

إنه مدمن! باتت هذه الحقيقة قاطعة بما لا يدع مجالاً للشك.. والمسحوق
الأبيض رفيقه الدائم كل ليلة.. وباتت هي مضطرة لتحمل رائحته الغريبة كلما
اقترب منها..

عرفت ماجدة أن زوجها مدمن منذ أيام دراسته في الخارج.. وأن والديه
يعرفان بحقيقة إدمانه.. عرفت أنهما أرادا تزويجه علّ زوجته تساعده على ترك
المخدر الذي يستزف ماله وشبابه.. عرفت أيضاً أن والده حاول مراراً إدخاله
لإحدى المصحات في الخارج ليعالج من إدمانه.. لكن صالح كان يتملص
دائماً ويؤكد للجميع أنه لا يزال يمسك بزمام الأمور وأنه يستطيع ترك المخدر
متى ما أراد وأنه لم يصل لمرحلة الإدمان بعد!

كان يكابر.. ويرفض الاعتراف بمشكلته وعندما حاولت ماجدة مناقشته كان
يؤكد لها أن وضعه تحت السيطرة وأن أغلب الشباب يتعاطون هذه المخدرات
بشكل أو بآخر!

بدت ماجدة جميلة جداً تلك الليلة وهي ترتدي ثوباً أزرقاً بلون السماء..
بدت فاتنة بذلك الثوب رغم إنطفاء نظرتها والحزن المتجلي واضحاً في عينيها.
سألها صالح عما تريد أكله فقالت بلا مبالاة: أي شيء!

فطلب لها طعاماً على ذوقه.. كانت الأجواء حولهما تضح بالحياة لكن الهم

الذي تحمله ماجدة منعها من الإنسجام مع ما حولها..

نظر إليها صالح متودداً: أحب هذا المكان.. إنه جميل وشاعري للغاية.. نظرت إليه.. كان وسيماً لحد لا يصدق.. فرغم تلك الهالات تحت عينيه كانت وسامته طاغية.. تنهدت وقالت مجاملة وهي تشعر بأن كلماتها لا تلامس قلبها: صحيح المكان رائع هنا!

سألها: أحببت باريس؟ إنها عاصمة الفن والجمال.. يسمونها عاصمة العشاق أيضاً..

استفزها كلامه فقالت شبه صارخة: صالح.. يجب عليك أن تقلع عن التعاطي!

نهرها: لا تقولي هذا الكلام هنا.. المكان مليء بالعرب.. لا أحب أن يسمعك أحد!

سألته بحدة: تخاف من الناس ولا تخاف من الله؟

زفر بضيق: ألا تستطيعين الاستمتاع بما حولك أبداً؟ لم أنتِ نكدة دائماً؟ قالت: أنا تعيسة.. لا يمكنني أن أتصور أنني زوجة رجل مدمن على المخدرات!! ماذا لو مت؟ ماذا لو حصل لك مكروه؟ ماذا لو.. قاطعها: قلت لك أن أموري تحت السيطرة.. لن تخافي علي أكثر مما أخاف على نفسي صحيح؟

وقبل أن ترد وصلت المقبلات.. وضعها الجرسون أمامها.. بدت تلك الأصناف شهية جداً لكن معدة ماجدة المقبوضة منعته من الرغبة بالأكل.. بدأ صالح بتناول طعامه متجاهلاً زوجته الغاضبة، تمتت ماجدة في سرها لو أنها لم تتزوج أبداً ولم تغير حياتها الهائلة.. أحست لشوق عظيم يجتاح قلبها إلى الكويت، إلى وطنها، فالوطن هو الأمان، هو المكان الذي تجد فيه أمها وأختها وأهلها وعزوتها.. أحست وكأنه تم اختطافها هنا مع مجرم يتعاطى الممنوعات!

مد صالح يده بالشوكة لفمها ليطعمها من يديه.. لم ترد إحراجه أمام الناس

فأكلت من يده وهي تشعر أن معدتها أصبحت ضيقة كبالون فارغ من الهواء وقد انقبض صدرها لدرجة أنها أحست برغبة عارمة بالبكاء على حالها!
 عاداً معاً تلك الليلة بعد أن تمشياً طويلاً.. تحسن مزاج ماجدة قليلاً أثناء جولتهما فقد كان للأجواء الباريسية الحاملة تأثيراً لا يقاوم..
 غيرت ملابسها وهي تشعر ببعض التحسن الذي زال عنها بمجرد أن شاهدت صالح يعود لتعاطي مسحوقه السام..
 نظرت إليه وهو يهم بالاقتراب منها فصدته بحزم: لا.. لن تقترب مني أبداً
 مادمت مدمناً!
 ضحك ضحكة صاخبة غير مبالٍ بدموعها التي بدأت تنهمر.. وشدها إليه
 بقسوة لتقسط بين رائحة المخدر الغريبة ودموعها الحارقة.

(6)

اختيار اسم

كان أحمد منزعجاً لكنه قرر الاستسلام أمام إرادة جوهرة التي لم يرها أبداً مصممة على أمر كما رأى تصميمها على احتضان هذا الطفل.

جلست جوهرة والطفل الذي تم تسليمه لها أخيراً بين أحضانها وبدت سعيدة كما لم يرها من قبل، كان ولدها شهاب نائماً في سرير مجاور لسرير الطفل الجديد الذي اشترته له بنفسها.

قالت فضة ابنة الرابعة وهي تسأل أمها: ماما.. هذا الطفل أتى أيضاً من بطنك؟ ضحكت جوهرة: هذا الطفل أعطاني إياه الله كهدية.. ألا تحبين أن يكون لك أخوين؟

قالت الصغيرة: أحب أن تكون لي أختٌ..

قال أحمد: لن تكون لك أختٌ، يكفينا ثلاثة أطفال!

ابتسمت لها جوهرة وقد لمحت خبيتها: لا تغضبي.. من الجميل أن تكوني فتاة واحدة، ستكونين مدللة.. سيهتم بك أخويك..

سيكون هذا الولد أخاً لها فعلاً من الرضاعة.. سترضعه مع شهاب.. ليصبح ولدها من الرضاعة وأخاً لأولادها.. ما أجمل هذا التشريع!. سيرفع الحرج عنها عندما يكبر.. فلا يصبح غريباً عنها أبداً.. ولا عن عائلتها.

سألت فضة: وما اسم أخي الجديد؟

فكرت جوهرة.. يجب عليها أن تطلق اسماً على هذا الطفل.. فكرت أن ولداً مثله سيحتاج إلى الكثير من الصبر في حياته.. فمن مثله كتبت عليهم المعاناة.. خاصة عندما يعرف حقيقته يوماً ما..

كانت تعليمات الدار واضحة.. عليه أن يعرف حقيقة وضعه عندما يكبر

ويصبح مؤهلاً لذلك، بإخفاء الأمر عنه ليس من مصلحته.. كما أخبروها أن أخصائية من الدار ستقوم بزيارته بشكل دوري للتأكد من استقرار وضعه في الأسرة.

أخبروها أن الدولة تصرف إعانة شهرية لمن في مثل وضعه أيضاً، فقررت الاحتفاظ بهذا المال في حساب خاص باسمه وأن تسلمه له عندما يكبر ويستد عوده.. ستفق عليه من مالها الخاص.. هكذا عاهدت نفسها.. فقد قررت أن تتكفل به بشكل تام.. تذكرت حديث رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين..» وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما قليلاً..

فضج صدرها بالفرح..

عادت فضة لتسأل بإلحاح طفلة: أمي.. ما اسم أخي الجديد؟

ابتسمت جوهرة وقالت: اسمه أيوب..

(7)

عودة

لم تخف على السيدة منيرة أم صالح تلك النظرات المنطفئة العاتبة في عيني ماجدة عندما استقبلتها وهي تدخل المنزل بعد عودتها هي وصالح من شهر العسل..

كانت ماجدة عاتبة عليها لإخفائها حقيقة ولدها الذي زوجها إياه ولم تذكر لها علته.. كانت تشعر بالقهر وأحست أنها تعرضت للغش.. فالعريس الرائع الذي طارت به فرحاً لم يكن سوى مقلباً عظيماً لا تعرف الآن كيف تتخلص منه!

سألها أم صالح متوددة: كيف كان شهر العسل؟

ف نظرت ماجدة إليها نظرة ثابتة ولم ترد!

أحست أم صالح بالحرج الشديد.. فقد فهمت معنى تلك النظرة جيداً وعرفت ما الذي ترمي إليه ماجدة بالضبط..

في تلك الليلة ذهبت ماجدة لتزور أمها.. لكنها أشفقت عليها من معرفة الحقيقة.. فأما أرملة وهي تعيش وحدها مع الخادمة بعد زواج ابنتها ولم ترد ماجدة إخافتها بما ستقوله فضلت تصنع السعادة والراحة أمامها.. لقد كرس هذه الأم حياتها لتربية ابنتها ومعرفتها بأن ابنتها الصغرى تزوجت مدمناً ستكون فوق احتمالها، كما أن معرفتها بالأمر لن تغير من هذا الواقع المرير شيئاً، لذا قررت التزام الصمت وأخبرت أمها كاذبة أنها سعيدة جداً وأن أحوالها مع زوجها على ما يرام.

عرفت ماجدة من أمها أن جوهرة تبنت الطفل الذي وجدته ليلة زواجها، كانت ماجدة متعجبة من تصرف أختها.. ألا تكفيها مسؤولية طفلها؟ لم أخذت

على عاتقها مسئولية طفل يعلم الله وحده من هما والداه وما الذي قد يحمله من صفاتهما؟

عادت ماجدة من زيارة أمها وقد ازدادت همماً ووجعاً وثقلاً.. فقد كانت زيارتها لبيتها الذي عاشت فيه أجمل أيامها زيارة مؤلمة..

فقبل زواجها كانت متبرمة بحياتها مع أمها وتتمنى أن يأتي لها عريساً يبدد وحدتها ويملاً فراغ حياتها فتسعد بصحبته وتبدأ معه بتأسيس حياتها الخاصة.. وعندما أتى ذلك العريس ملأها خيبة وحنناً حتى صارت تندم على كل لحظة تمت فيها الزواج سابقاً!

دخلت ماجدة غرفتها فوجدت صالح وقد استلقى مترخياً على السرير وآثار المسحوق على طرف أنفه.. كان شكله مخيفاً.. فأحست بالاشمئزاز منه وهو يشير لها بالاقتراب منه..

تهالكت باكية على الأرض أمامه وهي تشعر بألم لا يطاق في بطنها.. اقترب منها وهو يحاول شدها إليه لتجرب ما يجربه ضاحكاً فتعالى صوت بكائها..

أنت أمه على صوتهما.. وعندما دخلت الغرفة أحست بالخجل من ماجدة التي كانت تبكي بحرقة وهي تشير لها نحو صالح لتشهدها على وضعه المزري. شدتها الأم معها إلى الصلاة.. وحاولت تهدئتها.. انفجرت ماجدة باكية وهي تلومها على خداعها لها وتزويجها من ولدها المدمن.. أخبرتها أنها لن تسامحها أبداً على توريطها مع رجل كهذا وأنها لن تغفر لها قط إخفاءها لهذه الحقيقة القاسية عنها.

(8)

اسم وعائلة

نظرت جوهرة للبطاقة المدنية لولدها شهاب وقرأت بصوت هامس:
شهاب أحمد الراجح..

ابتسمت جوهرة وهي تقرأ بطاقة أيوب بصوت هامس أيضاً:
أيوب أحمد راجح..

لن يلاحظ أحد هذا الاختلاف البسيط في الاسمين..

ولن يعرف أحد في المدرسة الحقيقة عندما يكبر ولديها ويدخلانها ولن
يلاحظ أي من شهاب وفضة هذا الاختلاف أيضاً..

كانت جوهرة ممتنة لزوجها أحمد.. فرغم كل جفائه ومشاكله إلا أنه ساندها
في ما أرادت، يكفي أنه منح أيوب اسمه.. ووافق على احتضانها له.. في الحقيقة
لقد أصبح أحمد يحبه.. رأت ذلك جلياً في عينيه.. حتى وإن حاول جاهداً
إخفاء مشاعره نحوه..

كان أيوب ولداً معافىً ببشرته البيضاء وشعره الكستنائي المشرب بالحمرة
عند الأطراف، كان طفلاً جميلاً بحق.. عيناه واسعتان بلون العسل وأنفه دقيق
صغير..

كانت جوهرة سمراء.. وكذلك كان أحمد زوجها.. فورث ولديها لون
بشرتهما..

كانت فضة جميلة بلونها الأسمر الفاتح وشعرها الأسود الناعم الكث مثل
أمها..

في حين كان شهاب نسخة مصغرة من أبيه بشعره الداكن الخشن وبشرته
السمراء الفاتحة وملامحه الدقيقة وعيناه الصغيرتان..

بدا أيوب مختلف الشبه عنهم جميعاً، وعندما كانت جوهرة تخرج به مع أطفالها، كانت تسمع بعض التعليقات من الناس عن هذا الاختلاف فتبتسم وتقول أن أيوب يشبه أختها!

فقد كان لون شعر أيوب يشبه إلى حد ما لون شعر أختها ماجدة وكذلك يقترب بلون بشرته من لون بشرتها الفاتحة.. وبذلك وجدت جوهرة تبريراً لهذا الاختلاف..

في المرات القليلة التي التقت فيها جوهرة بأختها أحست أنها غير سعيدة في زواجها.. لكنها لم تستطع أن تعرف بالضبط سبب حزنها ومعاناتها..

كانت ماجدة شديدة الكتمان في كل ما يخصها، فهي شخصية كتومة تستطيع إخفاء أسرارها وأحزانها حتى عن المقربين منها.. في حين كانت جوهرة كالكتاب المفتوح فمن السهل عليها دائماً إخبار المقربين منها عن معاناتها ومشكلاتها.. ورغم اختلاف شخصية كل منهما عن الأخرى كانتا تحبان بعضهما حباً جماً.. وتعرفان أنهما خلقتا لتكون كل منهما موجودة من أجل الأخرى.. ورغم ذلك الرابط المتين بينهما إلا أن ماجدة لم تبح لأختها بمشكلاتها.

كانت ماجدة تأمل في قرارة نفسها أن يشفى زوجها من إدمانه وعندما اقترحت على والدته أن ترسله لمصح علاجي ما خارج الكويت أخبرتها أن المشكلة كلها تكمن في صالح نفسه، فهو يرفض العلاج من الإدمان ويدعي دائماً أن وضعه تحت السيطرة ويكرر ذلك على مسامع والديه على الدوام كما يكرره على مسامع ماجدة.

عرفت ماجدة أن عليها إقناعه باللجوء للمساعدة إن كان يريد استمرارهما معاً، فمن غير المعقول أن تستمر في العيش مع رجل مدمن، وبدأت تخبره بلطف شديد أن عليه ترك ذلك المسحوق اللعين في حال أراد منها البقاء على ذمته، وعندما وجدته مماطلاً كعادته أخذت تهدد بتركه في حال استمر الوضع على ما هو عليه.. وبعد كل نقاش بينهما تبكي ماجدة بحرقة وتلجأ لأمه علناً تجد منها بعض المساندة بلا فائدة.

فضعف تلك الأم أمام ولدها الوحيد أمر مُحزِن، إنه رجل أفسده الحب والدلال.. فوقع في هاوية الإدمان بسهولة ولم يجد حتى من يردعه أو يحاول انتشاله مما هو فيه..

حاولت ماجدة اللجوء إلى والد زوجها أيضاً ومحاادثته بجدية، أخبرته أنه يجب أن يتدخل فوراً لإنقاذ وحيده، لكنها لمست منه تراخياً عجبياً وأخبرها أن عليها اقناع زوجها بنفسها بما تريده.. كانت ماجدة مستغربة من بروده في حديثه معها وكأنها هي صاحبة المشكلة لا ولده!
و أخيراً عرفت أن عليها محاولة إنقاذ زوجها وحدها، إن أرادت الاستمرار في حياتها معه.

(9)

حنان مستتر

خرج أحمد من بيته ذلك المساء متأثراً تفوح منه رائحة الطيب والبخور، لم تعلق جوهرة على أناقته الملفتة ولم تسأله عن وجهته، فهي مشغولة على الدوام بشهاب وأيوب وأيضاً بفضة.. ولم تعد تجد الوقت لمراقبته ومحاسبته كما كانت تفعل سابقاً..

ركب سيارته وهو يفكر.. إنه يحب زوجته.. يحبها رغم عنادها وكبرياتها.. كانت امرأة قوية.. لطالما عرف أنها إن أرادت شيئاً فهي ستحصل عليه.. لذلك رضخ لطلبها عندما أرادت تبني أيوب.. عرف أنها ستبناه رغماً عنه إن رفض.. وقد تضحي به هو شخصياً إن رفض بقاء ذلك الطفل في بيته.. كان يعرفها جيداً.. ويستطيع أن يخمن ردود أفعالها في كل المواقف..

لم يندم هو على احتضان ذلك الطفل في بيته، فقد حصل على ترقية وزيادة محترمة في راتبه بنفس اليوم الذي منح فيه هذا الطفل اسمه، وكأن بركة ما قد حلت عليه بقدوم هذا الطفل اليتيم فتفاهل بوجوده خيراً، كما أنه طفل يصعب على المرء أن لا يحبه.. فهو جميل جداً، تتفجر العافية من خديه.. لديه شعر فاتح جميل وعينان رائعتان.. كما أنه طفل هاديء، قليل البكاء، كثير الابتسام، سمح الوجه، لقد تعلق به رغماً عنه.. بل إنه كان يشاق إليه عندما يتذكره أثناء وجوده في عمله الصباحي ويتسم بمجرد أن يتذكر أنه عائد للبيت ليراه وعندما كانت جوهرة تتعد عنه لقضاء حاجة ما من حاجات المنزل كان يجري من ورائها ويهرع إليه ليشبعه تقيلاً بعيداً عن عينيها!

كان أحمد كأغلب الرجال، يكره أن يعبر عن مشاعره وعواطفه، فهو لم يخبر جوهرة قط أنه يحبها، ولم يخبرها أبداً أنه يحب رائحة البخور التي تفوح من

شعرها، وأنه يحب عنادها وقوتها.. لم يخبرها أبداً أنه يحمد الله دائماً أنه تزوج بها.. وأنه يدعو الله دائماً في صلاته بأن يحفظها ويبقيها من أجله..

و كذلك كان أحمد مع ولديه.. لم يخبر فضة الصغيرة أنها تعني له الكون بأكلمه.. لم يخبرها أنه مستعد لمحاربة هذا العالم من أجلها.. لم يخبرها أبداً أنه يصلي كل ليلة لتكون من نصيب رجل يستحقها فلا يعذبها ولا يكون سبباً في نزول دمعة واحدة من دموعها الغالية على قلبه.. كما لم يُقبَل ولده شهاب قط أمام أي أحد ولم يُبد فرحته به عندما خطى أولى خطواته وسط تهليل جوهرة واحتفائها به..

كان رجلاً حنوناً لكنه يجيد إخفاء حنانه تحت قناع من السخط والتبرم.. وكان ذلك الحنان الفطري الذي يسري في قلبه عيباً عليه ستره عن العيون.. وصل أحمد لأحد المجمعات حيث سيلتقي مع مجموعة من أصدقائه القدامى لتناول العشاء..

كان المجمع مزدحماً في ذلك اليوم بسبب عطلة نهاية الاسبوع، جلس أحمد وسط ترحيب أصدقائه به وبدأ حديثه معهم.. وأثناء الطعام أخذ أحدهم يعلق على جمال الفتيات في المجمع ومدى أناقتهن.. وفي حين وافقه الجميع على ما يقول كان أحمد لا يرى في عينيه أجمل من جوهرة.. كان رجلاً مخلصاً لها وإن كان يجيد إخفاء إخلاصه كما يجيد إخفاء حبه عنها.

(10)

زيارات

كانت زيارات الأخصائية المبتعثة من دار الأيتام لمتابعة وضع أيوب في الأسرة مكثفة في الأيام الأولى من احتضانه، كانت تأتي لرؤيته والاطمئنان عليه كل اسبوعين تقريباً ومع مرور الوقت أدركت أن الطفل يحظى بحب كبير وعناية عظيمة في بيت جوهرة فتباعدت هذه الزيارات تدريجياً.. وكانت هذه الزيارات تقلق جوهرة وتشعرها بالخوف من خسارة الطفل!

خافت دائماً أن يحدث أمر ما خارج عن سيطرتها خلال هذه الزيارات فتقوم الأخصائية بأخذ أيوب منها، لهذه الدرجة أحببت أيوب الصغير؟ نعم.. لقد أحبته بجنون.. بل إنها كانت تشعر أحياناً أنها تحبه أكثر من أولادها الحقيقيين! كانت جوهرة تتوتر دائماً قبل زيارة الأخصائية لبيتها وتصر على تنظيف المنزل بنفسها فترتب المكان بدقة وتحمم الأولاد وتلبسهم أفضل ثيابهم وتولي اهتماماً خاصاً بأيوب ونظافته وهندامه..

وكانت تصر أيضاً على وجود أحمد بالبيت خلال هذه الزيارات الدورية وتطلب منه مساندتها ورغم انزعاج أحمد مما تقوم به زوجته من مبالغات إلا أنه كان مثلها.. يخاف أن يخسر أيوب ويشعر بقلق وعدم ارتياح على الدوام عند قدوم الأخصائية، لكنهما تغلبا على هذا الشعور مع الوقت خاصة عندما اعتادا على هذا الزيارات وعرفا أنها بهدف الاطمئنان على الطفل نفسه ولا تشكل أي تهديد عليهما وكأنهما في امتحان ما.. كما أن الأخصائية التي تتابع أيوب امرأة لطيفة جداً ومتفهمة وعادلة فاعتادا عليها وعلى قدومها مع الوقت..

اعتادت الأسرة الصغيرة على وجود أيوب الذي أبدى تعلقاً شديداً بجوهرة فقد كانت تحمله على كتفها طوال النهار.. ولم يكن ينام إلا في حضنها وهو

يلوي بين يديه الصغيرتين خصلات شعرها الناعمة.. أحبته فضة الصغيرة أيضاً وكانت تعود يومياً من الروضة لتلعب معه بالساعات ، حاولت جوهرة تقسيم اهتمامها بين الولدين كي لا تهمل شهاب.. فالشفقة التي تحسها تجاه أيوب جعلتها تميل للاهتمام به بشكل مبالغ فيه وقام أحمد بتنيبها مراراً بأن لا تهمل ولدها في سبيل العناية بهذا اليتيم الذي رسمت الأقدار طريقها بحيث تلقي به بين أحضان جوهرة الدافئة...

في كل ليلة تتأمل جوهرة وجه أيوب النائم بين أحضانها بأمان وتسرح وهي تتخيل عشرات القصص عن أمه..

كانت تتساءل عن قصتها.. أخدعها رجل ما وغرر بها فحملت بهذا الولد؟ ما قد تكون جنسيتها؟ أتكون تعرضت لاعتداء ما؟ أهي زوجة سرية لم تستطع إثبات زواجها فخافت الأذى الذي قد يلحق بها إن عرف أهلها بحملها؟ كيف استطاعت إخفاء حملها عن العيون؟ وكيف استطاعت أن تخوض المخاض وحدها فتلد سراً؟ من تكون تلك الخادمة التي رمت بولدها بين حاويات القمامة؟ أيمكن لأي أياً كانت أن ترمي بولدها خارجاً في البرد القارس وعند هطول المطر؟ أكانت تتمنى له الموت لتخلص منه إلى الأبد؟ أتراها تتبعت أخباره؟ لعلها ذهبت تحوم في ذلك المكان بحثاً عن جثته!

ارتعشت جوهرة وضمت الصغير إلى صدرها بشدة وهي تزفر.. لا يمكنها أن تتخيل هذا الصبي الجميل يموت برداً وسط حاويات القمامة فتنهشه القطط الجائعة..

حمدت الله بحرارة أنه أرسلها إليه في ذلك اليوم ومكنها من إنقاذه.. قبلت أنامله الناعمة القابضة بقوة على خصلة من شعرها كعادته عندما ينام.. وعاهدته بصمت: لن أتخلي عنك أبداً يا صغيري.. أبداً.. ومهما كان الثمن..

(11)

خبر

احتارت ماجدة هل تفرح أم تحزن في تلك اللحظة التي عرفت فيها بحملها..
 كان للخبر الذي زفته لها ممرضة المختبر للتو وقع صادم عليها.. تجمدت
 مشاعرها تماماً وعصفت بها أحاسيس شديدة التناقض.. أتفرح أم تحزن لأنها
 ستنجب طفلاً من رجل مدمن!

إن رجلها غارق في الإدمان وأدى ضغطها المستمر عليه للإقلاع عن التعاطي
 إلى نتيجة عكسية تماماً فأزاد زوجها ولعاً بالمخدر وكأنه يعاندها ويعاقبها على
 هجرها له وكرهها لحياتها معه والتي باتت تجاهر بهذا الكره صراحة في وجهه
 كلما حاول الاقتراب منها..

كانت نادمة على زواجها به أشد الندم، لقد حطمها هذا الزواج وحطم
 ثقتها بنفسها وسرق منها أحلامها بحياة زوجية سعيدة وأسرة كبيرة تمت أن
 تحظى بها في صباها.. أحست أنها ادخرت نفسها للعذاب وأحست أنها لم
 تعد تلك الشابة الجميلة المقبلة على الحياة.. لقد صارت عجوزاً وهي لا تزال
 في منتصف العشرينات من عمرها وصار لأسفها الدائم على حالها طعماً لا ذعاً
 لا تفتأ تجتره على لسانها كلما تذكرت إدمان زوجها.

أمسكت بورقة التحليل التي تؤكد حملها مخذولة ودستها في حقيبتها
 وخرجت وهي تعتزم عدم العودة إلى عملها كما وعدت مسؤولها قبل أن تخرج.
 قررت ماجدة اللجوء أخيراً إلى أختها.. فقد ضاقت بالسر الذي احتملته
 لشهور طويلة بداخلها.. عليها أن تبوح به إلى أحد وإلا ستنفجر.. أحست
 بأنفاسها تتسارع وبدموعها تعاندها وهي تتذكر ما مرت به في الشهور الماضية..
 وصلت إلى منزل أختها التي لا زالت في إجازة للأومومة.. وركنت سيارتها

ونزلت وهي تغالب دموعها.. تعرف أن زوج أختها الآن في عمله.. والوقت مناسب جداً لمصارحة أختها بالمصيبة التي تعيشها منذ زواجها..
دقت الجرس وأدخلتها الخادمة إلى البيت..

صعدت ماجدة مباشرة إلى غرفة الأطفال حيث كانت جوهرة تلهو مع الولدين.. شهاب.. وأيوب..

وبمجرد دخول ماجدة للغرفة.. سألتها جوهرة على الفور بعد أن تمكنت من قراءة وجهها وعرفت أن وراءها أمراً مهماً: ما بك؟ ماذا حصل؟
انهارت ماجدة بالبكاء على الفور.. جزعت جوهرة لرؤية أختها تبكي ونادت الخادمة لتجالس الولدين..

شدت ماجدة معها إلى غرفتها وأقفلت الباب خلفهما.. أمسكت بيدها بحنان وهي تجلسها أمامها: أخبريني.. ما الأمر؟
وأخيراً.. باحت ماجدة بمشاكلها إلى جوهرة التي استولى عليها الذعر وهي تكتشف حقيقة الحياة التي تعيشها أختها..

أحست جوهرة أن قلبها يكاد يخرج جزعاً من بين ضلوعها عندما أطلعتها ماجدة على خبر حملها.. كان هذا الحمل آخر ما تتمناه لأختها، فالطفل القادم سيربط بين أختها وبين صالح برباط أبدي.. شاءت ذلك أم أبت.. ولن يكون من السهل عليها طلب الطلاق وطفلها لا يزال جينياً في أحشائها..

تناقشت جوهرة معها في إمكانية علاج صالح الأمر التي أكدت لها ماجدة أنه غير وارد، فزوجها لا رغبة له في العلاج على ما يبدو، بل إنه لا يدرك حجم المشكلة التي يعانها ووالدايه لا يزالا يدللانه كطفل ولا يزالا ضعيفين جداً أمام رغباته ويغدقان عليه بالمال بلا حساب..

احتارت جوهرة بم تنصح أختها، ولم تستطع أن تقول شيئاً تواسيها به، كانت بداخلها تلومها على حملها من هذا الرجل، كان عليها أن ترفض الإنجاب منه لحين يقلع عن التعاطي على الأقل.. لكنها عرفت أن لومها لن يفيد الآن، وأن الطفل القادم لا ذنب له في كل ما يحدث، فأثرت الصمت على العتاب.

بدت ماجدة متهالكة وهي تجلس أمام أختها وأشفقت عليها جوهرة كثيراً..
 عندما اقترب موعد عودة أحمد من عمله استأذنت ماجدة بالرحيل، عليها
 أن تعود لمنزلها فلم تكن تحب أن يراها زوج أختها وهي بهذه الحالة المزرية
 فيتساءل عن ما أصابها، كما أوصت جوهرة كثيراً بأن تكتم سرها عنه وعن أمهما
 أيضاً.

خرجت ماجدة وتركت لجوهرة همألم تتوقعه.. فقد كان السر الحزين الذي
 أخبرتها به يفوق احتمالها..

عادت ماجدة إلى المنزل ولاحظت أن سيارة صالح موجودة في الكراج،
 كان الوقت لا يزال مبكراً لعودته من شركة أبيه التي يعمل بها.
 دخلت المنزل بوجهها الشاحب وسألت الخادمة إن كان صالح في البيت،
 فأخبرتها الخادمة على عجل أن صالح لا يزال نائماً ولم يذهب إلى عمله في
 هذا اليوم، وأن أمه مدعوة عند صديقاتها هذا الصباح ولم تعد إلى الآن، ووالده
 لا يزال في الشركة..

جلست ماجدة على مقعد في الصالة وتساءلت بينها وبين نفسها إن كان عليها
 إبلاغ صالح بخبر حملها.. وبعد تفكير قصير قررت أن تخبره بالخبر وتخيرته..
 فإما العلاج الفوري وإما الطلاق، ستكون حازمة معه.. لن يولد طفلها ليجد
 أباه مدمناً، لن تسمح بذلك أبداً، عليها أن تكون قوية وحازمة من أجل الطفل
 القادم، عليها أن تخلع عنها رداء ضعفها، يجب أن تثور من أجل ولدها القادم
 ليأتي إلى الحياة فيجد أباً صالحاً يريه، ستخبر صالح الآن بقرارها ولن تبقى في
 هذا البيت دقيقة واحدة إن رفض العلاج، عليه أن يستحق أبوة هذا الطفل الذي
 ستمنحه إياه وإلا فإنها مستعدة لتربيته وحدها.. وستكون سعيدة وقتها لابتعادها
 عن حياة الإدمان البغيضة التي يعيشها زوجها..

تمالكت ماجدة نفسها وشدت نفساً عميقاً من صدرها وهي تقوم واقفة..
 فتحت حقيبتها وأخرجت ورقة حملها لتريها لصالح وتواجهه بقرارها،
 أحست وقتها أنها أقوى من أي وقت مضى وأنها تستطيع تحدي العالم من أجل

طفلها، أحست بتلك اللحظة أنها أم، صحيح أنها لا تزال لا تعرف هذا الطفل الراقدين بين أحشائها وأنها لم تختبر وجوده بعد بداخلها ولم تتعرف بعد على حركته وركلاته، لكن فكرة أنه صار معها أعطتها قوة كبيرة وإصرارًا أكبر على تغيير وضعها وكأنها استمدت كل الشجاعة التي تحتاجها من هذا الجنين الذي يسكن رحمها.

صعدت ماجدة درج المنزل والتصميم بادِ على وجهها.. وصلت إلى باب غرفة نومها، طرقت الباب طرقتين، ودخلت وورقة تحليل الحمل ملتصقة بأصابعها، وبمجرد أن نظرت إلى السرير حيث يرقد صالح، شهقت، كان صالح مفتوح العينين زائف النظرات، وقد تجمع زبد أبيض غريب حول فمه.. وبجواره كان ذلك المسحوق اللعين منتثرًا على ظهر يده وطرف أنفه..

اقتربت منه ماجدة وكل خلية في جسدها ترتجف.. وخلال لحظة.. أطلقت صرخة مدوية بعد أن اكتشفت أن صالح قد فارق الحياة نتيجة تعاطيه لجرعة زائدة...

ب
ت
س

(12)

ورد

كانت ماجدة مشغولة في ذلك الصباح وهي تشرف على تحضيرات حفلة عيد ميلاد ابنتها ورد التي ستكمل السابعة من عمرها في هذا اليوم.. كانت الحفلة ستقام في بيت جدها في الحديقة الواسعة المحيطة بالبيت حيث لا تزال ماجدة تسكن نفس البيت مع ابنتها بعد وفاة صالح ووفاة أمها أيضاً قبل عدة أعوام.

بعد موت صالح انتقلت ماجدة بعد شهور العدة لمنزل أمها.. كانت حاملاً بورد وقتها، وبعد ولادتها بعدة شهور توفيت أمها نتيجة أزمة قلبية حادة ورحلت عن هذه الحياة تاركة ماجدة وحدها مع ابنتها.

رجتها أم صالح بأن تنتقل مع ابنتها للعيش في منزلهم مجدداً، فهو منزل والد ورد أيضاً والأفضل أن تكبر في حضن جدتها وجدها خاصة أنها ما تبقى لهما من راحة ولدهما المرحوم.

ولأن ماجدة قررت تكريس حياتها لتربية ورد، ولأنها لم تكن ترغب بالعيش وحيدة في بيت أمها بعد وفاتها، وافقت على الانتقال إلى منزل أهل زوجها المرحوم واشترطت عليهم تغيير أثاث طابقها بالكامل، فقد كرهت أن تعود لذلك المكان الذي شهد أسوأ أيام حياتها، لكن التغييرات الجذرية التي أشرفت عليها أم صالح بنفسها أشعرت ماجدة أنها تسكن فعلاً في مكان جديد عليها.. كانت ورد فتاة جميلة، فقد ورثت من ماجدة بشرتها الفاتحة وعينيها اللوزيتين الجميلتين، لكنها ورثت من أبيها لون شعره الأسود الفاحم.. وأنفه الصغير الدقيق.. وفمه المكتنز.

كانت ورد تحمل أجمل صفات أمها وأبيها الراحل التي تظن أنه رحل عن

الدنيا نتيجة حادث أليم كما أخبرتها أمها وجدتها أيضاً.

وفي هذا اليوم ستكمل ورد السابعة من عمرها وكانت جدتها تصر على الاحتفال بعيد ميلادها كل عام فتدعو أصدقاءها في المدرسة الأجنبية الخاصة التي ترتادها وأبناء خالتها جوهرة أيضاً.

استيقظت ورد من نومها فقفزت من سريرها بخفة.. كان شعرها طويلاً يصل إلى أسفل ظهرها، جرت مسرعة إلى الطابق السفلي وهي لا تزال ترتدي ملابس نومها..

ابتسمت الخادمة وهي تراها تجري حافية إلى الباب لتتأكد أن زينة عيد ميلادها قد تم تعليقها..

فتحت ورد باب المنزل ونظرت للحديقة التي صارت مزينة بشكل جميل وقد امتلأت بالبالونات وبطاولات ملونة وكراس صغيرة جميلة للأطفال.. فابتسمت راضية.. لمحتها أمها فلوحت لها فخرجت إليها حافية القدمين وهي لا تزال تبتسم..

نهرتها ماجدة: ورد.. لا تخرجي حافية..

كانت ماجدة دائماً تنبه عليها بعدم الخروج إلى الحديقة حافية.. ضحكت الصغيرة وهي تحس بالعشب الأخضر الندي تحت قدميها وقالت مطمئنة: لا تخافي يا أمي.. لن أجرح قدمي، فالعشب طري.. ولن يؤلمني!
أتت الخادمة تحمل حذاءً خفيفاً ألبيسته لورد الصغيرة التي بدت سعيدة جداً بمظاهر الاحتفال بعيدها السابع..

كانت هذه الطفلة بلسماً لكل أهل البيت، فكل فرد في هذا البيت يحمل جرحاً نازفاً في قلبه، ماجدة تحمل جرح زواجها من رجل لم تعش معه سوى عدة شهور بائسة وتركها أرملة شابة من بعده، وإن كان قد منحها ابنة جميلة هي أجمل ما في حياتها الآن..

أم صالح كانت أمّاً تحمل جرحاً لا مثيل له، جرح فقدها لولدها الشاب وجرح كهذا لا يمكنه أن يبرأ أو يندمل، لكن ورد الصغيرة تحمل رائحة ولدها..



على الأقل بقي لها بضعة منه،

وكذلك كان والد صالح مثلها...

ببساطة كانت ورد هي سعادة هذا البيت..

همست ورد لأمها: متى تأتي خالتي جوهرة وأولادها؟

ربت ماجدة على شعرها بحنان: لا تقلقي سيأتون باكراً قبل أن تبدأ الحفلة...

(13)

حيرة وألم

كانت جوهرة تجلس مع أحمد في ذلك الصباح في مكتب الأخصائية الاجتماعية في دار الأيتام بناء على طلب عاجل منها للاجتماع بهما. كان التوتر بادٍ على جوهرة عندما قالت الأخصائية: ما يحصل ليس في مصلحة الولد.. عليه أن يعرف الحقيقة..

قالت جوهرة بألم: سيتأثر.. وأنا لا أريده أن يتألم..

قالت الأخصائية بصبر: لقد تعدى الثامنة من عمره بعدة شهور الآن.. وإخفاء الحقيقة عنه لن يكون بمصلحته، عليه أن يعرف أنه طفل متبنى.. لا يجب عليكم الانتظار أكثر من أجل مصلحته.. بعض الأمهات الحاضنات يخبرن أطفالهن بالحقيقة في عمر أبكر بكثير من خلال بعض القصص المصورة وما إلى ذلك، عليك أخذ الموضوع بجدية من أجل مصلحة الولد ونموه النفسي السليم.. سيأتي يوم يعرف فيه حقيقته لا محالة.. و عليك إنهاء هذه المسألة باكراً، فكلما كبر سيكون الأمر أشد وقعاً عليه، لاسيما إن اقترب من مرحلة المراهقة.

لم تتمالك جوهرة نفسها فبكت.. ربت أحمد على كتفها مشجعاً وهو يقول: كلام الأخصائية صحيح.. عليك إخباره... بطريقة مناسبة..

قالت جوهرة وهي تمسح دموعها: كيف أخبر ولدي أنني لست أمه؟ كيف تكون هناك طريقة مناسبة لذلك!

قالت الأخصائية: إن أردتِ يمكنني المساعدة والتواجد ساعة إخبارك له.. يمكنني دعمك بكل ما تريدين.. فكري بما تفضليته وأخبريني.. لكن عليك إنهاء هذه المسألة من أجله هو فكلما مر وقت أطول سيتعذب لمعرفة الحقيقة أكثر!

كانت جوهرة تحب أيوب حباً جمماً، لم تشعره قط أنه مختلف عن أخويه، بل على العكس كانت تعامله بحب ولين أكثر مما تعامل به ولديها فضة وشهاب.. خاصة وأن أيوب كان متفوقاً بدراسته، مطيعاً وهادئاً على الدوام، لم تواجه معه أية مشكلات تذكر خلال الأعوام الماضية على عكس ما عانته مع ولدها شهاب، فشقاوة شهاب كانت لا تطاق، فهو يتسبب بالمتاعب على الدوام.. سواء في البيت أو في المدرسة..

ومعلماته يشتكين من سوء سلوكه.. ويقارنونه دائماً بأيوب المتفوق ذو السلوك المثالي والمهذب.. كان شهاب يسبق أيوب بمرحلة دراسية واحدة لكن ذلك لم ينجيه من المقارنات الدائمة بينهما..

لم تكن المقارنات الدراسية هي المشكلة الوحيدة التي عانى منها شهاب وجعلته يشعر بالغيرة من أخيه، كانت هناك مقارنة أخرى يخسر فيها شهاب دائماً وتملاً قلبه غيرة وحسداً وهي مقارنة شكله الخارجي بشكل أخيه..

كان أيوب جميلاً.. ببشرته البيضاء الصافية وشعره الكستنائي ذو الأطراف المائلة للاحمرار وعينيه العسليتين الجميلتين، في حين كان شهاب مختلفاً تماماً ببشرته السمراء ونحافته الشديدة وشعره الأكرت.

لطالما سمع شهاب تعليقات مختلفة بهذا الخصوص مثل: أخاك أجمل منك! لا نصدق أن هذا أخوك! فرق كبير بين وبين أخيك! أخوك جميل وأنت لا!

كانت هذه التعليقات تصدر من الأطفال من الأهل ومن الأصدقاء في المدرسة وحتى من المعلمين والمعلمات في كافة المراحل الدراسية.

حاولت جوهرة دائماً احتواء غيرة شهاب من أخيه، لكن هذه الغيرة كانت متفاقمة، وكان أحمد دائماً ينهر شهاب عندما يخطيء ويقول له جملة المعهودة: انظر كيف يتصرف أيوب كن مثله!

ولا شيء أسوأ على نفسية طفل أكثر من مقارنته مع طفل آخر لاسيما عندما

يكون هذا الآخر أخأله.

طوال طريق العودة للبيت كانت جوهرة ساهمة وهي تحمل هم إخبار أيوب بالحقيقة، ولم يكن أحمد بحال أفضل، فقد كان يحب أيوب أيضاً ويفخر به رغم أنه يحاول قدر الإمكان عدم إظهار هذا الحب كعادته لكنه يعرف أن إخبار الولد بحقيقته سيكون أمراً مؤلماً للغاية، كان يشفق عليه بشدة كلما تخيل هذا الموقف الصعب ويتمنى في قرارة نفسه لو كان هناك مفر من إخباره، ليته يظل غافلاً عن الحقيقة، فبعض الحقائق تؤدي معرفتها لعذاب لا ينتهي.

دخلت جوهرة البيت فوجدت فضة بانتظارها وقد ارتدت ثوباً للحفلات..

قالت فضة ذات الثانية عشرة ربيعاً: لقد تأخرنا على حفلة ورد!

شهقت جوهرة فقد نسيت أمر الحفلة في غمرة انشغالها بموضوع أيوب وطلبت من فضة الذهاب على الفور لمناداة أخويها والتأكد من أنهما مستعدان للذهاب للحفلة ريثما تغير ملابسها وتستعد هي الأخرى.

كانت فضة هادئة الجمال ببشرتها السمراء الفاتحة وشعرها الأسود الكثيف كأمها، كانت تشبه جوهرة إلى حد كبير.. ولطالما أحببتها جوهرة وحمدت الله عز وجل أنه منحها بنتاً رائعة مثلها.. كانت فضة فتاة هادئة متفوقة في دراستها، في الحقيقة كانت تشبه أيوب في طباعها إلى حد ما، فالمشكلة الحقيقية الوحيدة في هذا البيت هي شهاب ولا أحد غيره!

(14)

شموع صغيرة

كانت ورد لا تفتأ تلتفت لمدخل الحديقة وهي تترقب قدوم خالتها وأولادها..

و كانت ماجدة تلاحظ قلقها وتبتسم لها مطمئة بين حين وآخر وهي تؤكد لها أنهم في الطريق..

بدت الحفلة مزدحمة بأصدقاء ورد بالمدرسة.. وبدت جدتها سعيدة بها وهي تتجول بين الصغار وتضحك معهم، كان هؤلاء الصغار يشعرونها بالأمل.. الأمل الذي كادت تفقده بفقدانها لوحيدها.. كانت ورد أمل هذه العجوز الحزينة، في حين أكد الجد عليهم بمناداته وقت إطفاء الشموع، فلا طاقة له بحضور حفلة للأطفال ولا طاقة له باحتمال كل هذا الضجيج والإزعاج، فللعمر أحكام.

وصلت جوهرة مع صغارها، وبمجرد أن لمحتهم ورد جرت نحوهم تاركة المسابقة التي كانت تشترك بها، لوت ماجدة شفيتها بعدم ارتياح وهي تلمح اندفاع صغيرتها، لكنها تماكنت نفسها سريعاً وهي تقوم لاستقبال أختها وأولادها..

اقتربت ورد من خالتها أولاً وقبلتها.. ثم اتجهت مباشرة لأيوب وابتسمت له ابتسامة كبيرة،

قالت فضة: الحفلة رائعة! سيكون لديك الكثير من الهدايا..

قالت ورد لفضة: ما رأيك أن تنامي الليلة عندنا لفتح الهدايا معاً؟

نظرت فضة لأمها التي أومأت موافقة فجرت فضة سعيدة لتشارك بالمسابقات..

قال شهاب بشقاوة لورد: تبدين بشعة في هذا الثوب الكبير! وكأنك شمسية

مقلوبة!

تغير وجه ورد ونظرت لثوبها الملون وقد أحست فجأة أنها فعلاً تشبه شمسية مقلوبة كما قال شهاب، فتدخل أيوب على الفور ليقول: لا تهتمي له، بالعكس.. تبدين جميلة جداً وثوبك جميل أيضاً.. استمتعي بوقتك، هذا الحفل كله لأجلك..

ابتسمت ورد له بود وشدته من يده لتلعب معه متجاهلة شهاب الخبيث الذي يتعمد دائماً إزعاجها ومناكفتها..

سلمت جوهرة على أختها ثم جلست ساهمة والكدر على وجهها.. في حين لم تلاحظ ماجدة ما تمر به أختها فقد كانت منشغلة بمراقبة الأطفال والإشراف على الحفل.. ولم تغفل عن ملاحظة ورد وهي تترك صديقاتها لتلعب مع أيوب وحده الأمر الذي أثار استياءها فقامت لتنبه ورد بأن عليها الاحتفاء بضيوفها وعدم تجاهلهم من أجل شخص واحد!

كانت ماجدة تنزعج من ذلك التقارب الواضح بين ابنتها وبين أيوب، كانت تخاف من أن تحبه ابنتها عندما تكبر، فكثير من الحب تنبت بذوره من أيام الطفولة، ولم تكن ترغب بأن تحب ابنتها أيوب بالذات!

انتبهت ماجدة فجأة لصمت أختها ووجومها، فسألته عن ما تعانیه.. وباحت لها جوهرة بما حصل معها اليوم في دار الأيتام وأخبرتها عن إصرار الأخصائية المسؤولة عن أيوب بأن يعرف الحقيقة عاجلاً..

بدت ماجدة معاتبة وهي تقول: أخبرتك منذ زمن لكنك لم تستمعي لي، هذا الولد لن يجر عليك سوى المتاعب.. لقد ورطت نفسك معه!

انزعجت جوهرة وقالت: بالعكس، هذا الولد لم يسبب لي أية متاعب على الإطلاق، بل إن سلوكه أفضل بكثير من سلوك ولدي الحقيقي!

قالت ماجدة: أنا لا أتكلم عن السلوكيات، بل أتكلم عن وضعه وحقيقته، عندما يعرف حقيقته سيصبح معقداً، وسيمر بتغييرات نفسية جسيمة، وعندما يصل لسن المراهقة سيصبح عدوانياً، وسيحقد على المجتمع، لن يكون

كعهديك به صدقيني!

تضايقت جوهرة من ماجدة، فهي تعرف موقفها المعادي لأيوب منذ زمن، وتعرف أنها لم تؤيد أبداً تبنيها له.. لطالما لامتها على ذلك وأخبرتها أنها ستندم يوماً ما لأنها تبنت ولداً لا تعرف شيئاً عنه..

لكنها لم تتقبل ما قالته أختها عنه لتوها، فعارضتها مؤكدة: أيوب ولد صالح، أشعر أنه يحمل بذوراً طيبة، وأنا متأكدة أنه لن يسبب لي أي مشكلات بالمستقبل، أنا أعرفه جيداً أكثر من أي شخص آخر، إنه ابني حقاً، ابني من الرضاعة على الأقل.

سكتت ماجدة على مضض، وعندما حان وقت إطفاء الشموع ذهبت لتنادي الجد كما طلب منها..

قال شهاب لورد بمحاولة أخرى منه لتكدير صفوها في عيدها: الكعكة سخيفة! لن يأكل منها أحد..

نظرت إليه ورد ومدت له لسانها ساخرة منه ومن لؤمه..

ابتسم لها أيوب وقد أعجبه تجاهلها لأخيه وعدم سماحها له بمضايقتها هذه المرة..

وخلال دقائق وقف الجميع حول الكعكة الضخمة الرائعة وورد الجميلة تقف على كرسي صغير لتستطيع إطفاء شموعها، غنى لها الجميع وأثناء ذلك لم يفت على ماجدة ملاحظة ابتسامة ابنتها الصغيرة لأيوب قبل أن تطفئ شموعها السبع..

(15)

الحقيقة

كانت جوهرة قلقة طوال ذلك اليوم..
 إنه اليوم الذي اعتزمت فيه على البوح لأيوب بحقيقته..
 كانت تواسي نفسها بأن ما ستفعله مهم وضروري لمصلحته، فما سيعرفه
 اليوم عليه أن يعرفه عاجلاً أم آجلاً، ومعرفته بالأمر في هذه السن أفضل له كما
 أخبرتها الأخصائية..

كان الأولاد في المدرسة ذلك الصباح وبقيت هي في البيت، لم تستطع
 الذهاب لعملها في ذلك اليوم، فهي لم تذق للنوم طعماً بسبب قلقها الشديد،
 كانت الوسواس تنهشها بلا رحمة، وهرب أحمد منها إلى عمله، رغم أنه لم
 يكن بحالٍ أفضل منها.

دخلت جوهرة غرفة أيوب المرتبة.. وتأملت صورة له مع أسرته، إنه فرد
 من هذه الأسرة، حتى لو لم يكن ابنهم، إنه جزء لا يتجزأ منهم، ولن تغير الحقيقة
 شيئاً من هذا الواقع.. طمأنت نفسها وزفرت وهي تحمل هم الساعات القادمة..
 حدثت ثانية في الصورة فانقبض قلبها، كان أيوب أجملهم، إنه مختلف
 عنهم جميعاً، وكأنه خلق من طينة أخرى، بشرته الفاتحة، شعره المحمر،
 ملامحه الجميلة، هذا الولد له هيئة مختلفة.. فهو ليس ولد هم إنه نعمة نشاز
 واضحة في لحنهم..

هزت جوهرة رأسها وكأنها تعترض على حقيقة لا تريد الاعتراف بها،
 وقالت وهي تقاوم أحاسيسها المشتتة: المظهر لا يهم.. المهم هو الجوهر..
 وأيوب ولدي أنا بغض النظر عن أي شيء آخر!
 خرجت من غرفته واجمة، وعندما عاد الأولاد من المدرسة نظرت لأيوب

وللحظة أحست أنها على وشك البكاء، لاحظ أيوب حزنها فقال لها: أمي.. ما بك؟ هل أنت متعبة؟

ضمته بحنان إلى قلبها الذي يحبه كل الحب.. وطمأنته وصدى كلماتها لا يصل إلى قلبها: لا حبيبي.. أنا بخير.. اذهب وبدل ثيابك كي نتناول الغداء معاً مثل كل يوم.

ذهب أيوب، وعرفت هي أن هذا اليوم بالذات لن يكون مثل كل يوم.. إنه يوم مختلف.. وتمنت صادقة أن يكون وقع الأمر هيناً على قلبه الصغير وأن يمر الأمر بهدوء.

عاد أحمد من العمل واجماً.. وعندما اجتمع الجميع على الغداء كان الوجوم يعلو وجه الأبوين بوضوح لدرجة أنهما انزعجا من ثرثرة فضة عن حادثة مدرسية كانت تحكي عنها بحماس، نهرها أحمد فجأة طالباً منها أن تصمت وتكمل غداءها بهدوء، فأطاعته مستغربة، فقد كان والديها دائماً يتوقان لسماع يومياتها في المدرسة.

اجتمعت العائلة الصغيرة بعد الغداء كعادتهم وكل من الأولاد قد أحضر حقيته المدرسية لتراجع جوهرة جدول واجباته المدرسية، بدت جوهرة متحفزة وهي تنظر لأحمد باستمرار لتستمد منه بعض الشجاعة..

قالت جوهرة لتمهد لهدفها: أفكر جدياً بأن أقيم حفلة عيد ميلاد لفضة مثل حفلة ورد..

تألق وجه فضة وقالت بلهفة: صحيح يا أمي؟ ستقيمين حفلة لعيد ميلادي؟ قال أحمد: إن كانت درجاتك جيدة سأوافق..

ردت فضة: إذن سأدرس بجدا!

قالت جوهرة: كان حملي بك متعباً، تورمت أطرافي وبالكاد كنت أستطيع المشي..

قال شهاب مشاكساً كعادته: لأنها سمينية!

ردت فضة بسرعة: أنا لست سمينية!!

ضحك شهاب: بلى.. أنتِ سمينة.. ومقاسات ملابسكِ أكبر من عمرك!
رد أيوب: لأن أبي يحب أن تكون ملابسها فضفاضة.. فهو يخاف عليها من
عيون المتطفلين.

قال أحمد وقد أعجب برده: أحسنت يا أيوب.

قالت جوهرة بسرعة كي لا يأخذهم الحديث لموضوع آخر: عندما ولدت
فضة لم أسمع صوت بكائها، أتت صامتة تماماً، سألت الممرضة وقتها إن
كان الطفل بخير فأخبرتني أنني أنجبت بنتاً صغيرةً هادئة، على عكسك أنت يا
شهاب.. أتيت للحياة صاحبةً باكيةً وكانت ولادتك متعسرة جداً، وعندما كنت
حاملاً بك كنت أشعر بثقل شديد في بطني، كنت أشعر بالاختناق كلما استلقيت
للنوم، وفي الشهر الأخير من الحمل كنت أنام وأنا جالسةً على مقعد كبير..

وقبل أن يعلق أحد منهم على حديثها قالت بسرعة وهي تنظر إلى أيوب:
الوحيد الذي لم يتعبني في حملٍ أو ولادة هو أيوب، لأن الله أعطاني إياه
كهدية، بلا حمل أو ولادة..

انتبه أيوب لجوهرة ونظر إليها مستفسراً فنكس أحمد رأسه وكتم غصة حادة
كادت تقطع أنفاسه..

قالت جوهرة موضحة وهي تشعر بارتعاش قلبها بين ضلوعها: بعثك الله لي
ذات ليلة، كنت صغيرة جداً، وجميلاً جداً، أرضعتك على الفور وأصبحت ابناً
لي.. ولأنك لم تتعبني أبداً فأنا أحبك كثيراً.. كثيراً جداً..

بدا أيوب تائهاً وهو يستقبل أخبار حقيقته، كان بذكائه يحاول استيعاب
كلمات جوهرة، تلك الكلمات التي حفرت بروحه جرحاً عميقاً فور سماعه لها،
إن أمه تقول أنها لم تحمل به ولم تلده، معنى ذلك أنها ليست أمه! ياللهلول!!
جوهرة.. ليست أمه؟ إذن ابن من هو!!

نظر أيوب إليها والجزع في عينيه.. استقبلت هي نظراته لها بألم حاد..
أحسست أن دموعها ستخزلها وبأنها ستنهار باكية على عكس ما خططت له، لمح
أحمد بوادر انهيارها فقال بسرعة: أنت ولدنا يا أيوب.. بعثك الله لنا.. أنت

هدية من السماء..

بدت الدهشة واضحة على وجه فضة وهي تنقل عينيها بين أيوب وبين جوهرة وكأنها بانتظار إجابات لأسئلة لم تُنطق بعد.. في حين بدت نظرة غريبة في عيني شهاب، كانت في الحقيقة أقرب ما تكون إلى نظرة شماتة!

سأل أيوب بصوت محشرج: كيف بعثني الله لكم؟

تهدجت أنفاس جوهرة وقالت: وجدتك في ليلة ممطرة.. كنت صغيراً جداً، واعتنيت بك كثيراً.. وسأظل أفعل!

سألها: أنتِ لستِ أمي الحقيقية؟

لم تستطع جوهرة تمالك نفسها أكثر فبكت، قامت من مكانها مسرعة واحتضنت أيوب إلى صدرها ودموعها تنهمر من عينيها بحرقة.. همست له بصوت مختنق بماء عينيها: أنا أمك يا ولدي، أنا أرضعتك وربيتك، أنت ولدي أنا..

سكت أيوب.. وقد أحس بارتباك لا حدود له، كان يملك عشرات الأسئلة، لكن بكاء جوهرة وانهارها على هذا النحو أفرعه ومنعه من أن ينطق بأسئلته التي كانت تؤلمه على قدر ما ألمته حقيقته التي كان غافلاً عنها طوال عمره.

(16)

من يكون؟

أحست ورد أن خالتها ليست على ما يرام بمجرد أن سمعت صوتها في الهاتف وهي تطلب الحديث مع أمها بصفة عاجلة..
 كان صوتها مختلفاً وكأنها مريضة أو متعبة، وعندما ردت ماجدة عليها أخذت الهاتف بعيداً عن ورد وتحديث فيه مطولاً بعيداً عن مسامعها.
 لم تعرف ورد يومها أن جوهرة كانت تحكي لماجدة عن الحقيقة التي أخبرتها لأيوب، ولم تعرف مدى الألم الذي اجتاحت جوهرة والحيرة التي كانت تعصف بها حيال ما ستكون عليه ردة فعل أيوب عندما يستوعب ما عرفه عن نفسه.

فكرت ماجدة أن عليها أن تخبر ورد أيضاً عن حقيقة أيوب، ففضة وشهاب سيخبرانها بلا شك، لم يعد الأمر سراً، على الأقل في نطاق الأسرة، عليها أن تعرف الأمر منها قبل أن يشي لها به أحد قبلها..
 كان هناك قصد آخر في نفس ماجدة من إخبار ابنتها للحقيقة، كانت تريد إبعادها عن أيوب بكل ما تستطيعه، ستخبرها وستحذرهما من الاحتكاك به، فيعلم الله وحده ما نوع الصفات التي ورثها ولد مثله من والديه، هكذا فكرت ماجدة.

في مساء ذلك اليوم جلست ماجدة مع ابنتها وحكت لها.. أخبرتها أن أيوب ليس أحياناً شقيقاً لفضة وشهاب، أخبرتها أنه أخاهم فقط من الرضاعة، لم تفهم ورد الصغيرة معنى أن يكون للمرء أخ من الرضاعة، فحاولت ماجدة تبسيط الأمر لها قدر الإمكان ليستوعب عقلها الصغير قصدها، أخبرتها أن

أيوب ليس ابناً حقيقياً لجوهرة وبالتالي فهو لا يُعتبر ابن خالتها فعلياً، أخبرتها أنه طفل متبنى.. ولا أحد يعرف من هما أبواه الحقيقيان..

كانت لهجة ماجدة تحمل تحذيراً ما وهي تخبر ورد بالأمر وكأنها تريد أن توحى لها بأن هناك خطر سيحل بها إن اقتربت من أيوب، قالت ماجدة بوضوح لا ابتتها: نحن لا نعرف من هم أهله الحقيقيون لذا علينا عدم الاحتكاك به أكثر من اللازم..

سألت ورد بحزن: ألا يمكنني اللعب معه بعد الآن؟

قالت ماجدة بحزم: لا، الأفضل أن تكتفي بالسلام عليه فقط إن رأيته، لا داعي لأن تلعب معه أو تكلميه، هو ليس قريباً لك، إنه ولدٌ غريب.. ولا نعرف إن كان ولداً صالحاً أم لا!

قالت ورد ببراعة: إنه ولد صالح، فأنا أعرفه جيداً، هو ولد طيب، على عكس شهاب الشرير!

نهرتها ماجدة قائلة: شهاب ابن خالتك، أما أيوب فلا، لا أريدك أن تخبري أحداً بهذا الكلام هل فهمتِ؟ لكن عليك الابتعاد عن أيوب قدر الإمكان، وإلا سأغضب منك كثيراً.. أتريدين أن أغضب منك؟

هزت ورد رأسها بحزن وفي تلك الليلة بكت كثيراً على وسادتها وهي تتساءل.. من أين أتى أيوب؟ ومن هم أهله؟

لم تكن تعرف أن أيوب في تلك الليلة أيضاً بات باكياً مثلها وهو يسأل نفسه نفس تلك الأسئلة التي لا إجابات لها...

(17)

صباح مختلف

لم يغمض لجوهرة جفناً تلك الليلة، كانت تنظر للساعة مراراً بانتظار قدوم الصباح لتوقظ أولادها للمدرسة كعادتها، تمت أن تطل على أيوب خلال الليل كما اعتادت أن تطل على جميع أولادها، لكنها خافت من أن تجده بانتظارها بأسئلته، كانت خائفة من مواجهته، أرادت أن تمر معرفته للحقيقة بهدوء تام فيستأنف حياته المعتادة وكأن شيئاً لم يكن!

قامت من سريرها وهي تتجاهل الدوار الذي تحسه في رأسها نتيجة السهر والتفكير المتواصل الذي أرهاق روحها واتجهت مباشرة إلى غرفة أيوب.. ترددت قبل أن تدخل.. فرسمت ابتسامة مرتعشة على شفثيها ودخلت لتجده مستيقظاً وقد ارتدى ثياب المدرسة..

تجاهلت تلك النظرة التائهة في عينيه وهي تقول: استيقظت باكراً اليوم، يعجبني نشاطك يا ولدي، سأذهب لإيقاظ أخويك!
وهربت!

نعم لقد هربت منه، لم تكن تطيق مواجهته وتلك النظرة الحائرة تطل من عينيه، فتلك النظرة تعذبها، وتذكرها بأن هذا الولد الصغير القليل الحيلة يعرف الآن أنه ليس ولدها،

وأن لديه الآن بلا شك عشرات الأسئلة التي لا تملك أجوبةً مقنعةً لها! أيقظت فضة وشهاب ونزلت لتحضر لهم طعام الإفطار والطعام الذي يأخذونه معهم إلى المدرسة، نزل أحمد لاحقاً وبمجرد أن رأى ملامحها المتوترة عرف ما تعانيه،

اقترب منها وهمس لها: سيمر الأمر، وسيكون كل شيء بخير..



ردت عليه بقلق: لا أستطيع النظر في عينيه..

اجتمعت العائلة على المائدة والوجوم مرتسم على وجه أيوب الذي لم يتناول شيئاً من طبقه وقبل أن يخرج للمدرسة بصحبة أحمد، اقترب من جوهرة وسألها هامساً: ألا زلت أستطيع مناداتك بأمي؟

شهقت جوهرة وأسقطت أطباقاً كانت ترفعها عن المائدة، تناثر الزجاج حولها وحول أيوب كقلوب حطمتها الحقيقة التي لا يمكن تبديلها أو تغييرها، وفجأة ضمت أيوب إلى صدرها بعنف ودموعها تنهمر بغزارة وهي تقول: أنا أمك وسأكون دائماً أمك!

(18)

أسئلة صغيرة

كان يوم عطلة عندما دعت ماجدة أختها وأولادها لتناول الغداء معهم في حديقة المنزل،

كان الجو صحواً ونسمات الهواء الباردة تطوف في الفضاء منذرة بقدوم شتاء قريب، تخلف أحمد عن الحضور معهم ليترك لجوهرة المجال لحديث رجع أنها تحتاج لخوضه مع أختها فالفترة الماضية كانت قاسية عليها خاصة وهي تعيش الأزمة التي يمر بها أيوب منذ عرف حقيقته، كانت أسئلته لا تنتهي وقد عرف أن السيدة التي تزورهم بين وقت لآخر ليست صديقة لأنه كما كان يظن، بل هي مكلفة بهذه الزيارات من قبل دار الأيتام التي ينتمي إليها.

كان أيوب حائراً وتجتاحه مشاعر غريبة متناقضة، فهو يحب جوهرة كل الحب، لكنه في نفس الوقت يتمنى معرفة أمه الحقيقية، لم يستوعب في هذه السن الأسباب التي تسببت بتركها له وهو طفل حديث الولادة، كان يشعر بالذل كلما فكر بأنه طفل تخلت عنه أمه، ونظرات شهاب الثاقبة المغلفة بالشماتة والتشفي باتت تحرق فؤاده كلما تعرض لها.

اجتمعت به أخصائية الدار وحاولت قدر الإمكان أن تشرح له حقيقة وضعه وأخبرته أنه محظوظ جداً لأنه حصل على أم مثل جوهرة فهي تحبه بجنون، لكن كان يتساءل رغم حداثة سنه، أيعقل أن يكون محظوظاً وهو طفل لم ترغب فيه أمه الحقيقية أساساً؟

كان يسأل جوهرة مراراً إن كانت قد وجدت معه رسالة من أمه توضح فيها الأسباب التي دفعتها للتخلي عنه، لم تخبره جوهرة أبداً أنها رأت خادمة ما ترمي به بين حاويات القمامة فكل ما استطاعت قوله له أنها وجدته بجوار بيتها

في ليلة ممطرة وقد أخذته بسرعة من بين زخات المطر الباردة.

سألها أيضاً إن كانت قد حاولت البحث عن أمه أو الإعلان عن وجوده في الصحف، فأخبرته أن ذلك لم يكن ممكناً، كانت تشفق عليه بشدة وهي تراه يبحث عن خيط ما قد يوصله إلى أمه، وفي نفس الوقت كانت تشعر بالغيرة من أم لم يعرفها وتخلت عنه لكنه يكاد يجن وهو يحاول الوصول إليها.

وصلت جوهرة وأولادها إلى منزل ماجدة، كان الجددين قد تناولا غداءهما باكراً، كما أنهما لم يعودا قادرين على احتمال شقاوة الصغار في لهوهم. بدت ورد مرتبكة وهي تلتقي أيوب لأول مرة منذ أخبرتها أمها عن حقيقته، وبمجرد أن رآته لاحظت شحوب وجهه وملامحه الحزينة، نظرت إليه بعطف، وأحست برغبة عارمة بأن تحتضنه وتواسيه وتخبره أنه بخير وأن الجميع لا يزال يحبه وأنه سيظل دائماً قريباً منها، لكنها عندما التفتت عينيها بعيني أمها ولمحت فيهما تحذيراً تعرفه فتراجعت..

انطلق شهاب ليلهو غير مكترث بأحد وانشغلت فضة بالتطلع إلى حوض الزهور الجديد الذي صمته ماجدة بيديها، في حين انزوى أيوب بعيداً في ركن هاديء وجلس على العشب سارحاً.

بقيت ورد تراقب الجميع وبمجرد أن اطمأنت أن والدتها قد انسجمت في حديثها مع خالتها جوهرة، انطلقت مسرعة إلى حيث يجلس أيوب وحيداً. كان الصغير جالساً بصمت تام، فلم يلحظ اقتراب ورد بخطواتها الصغيرة نحوه، وبهدوء خلعت حذاءها وخطت على العشب الندي حافية كما تحب، واقتربت من أيوب وجلست أمامه مباشرة، عندما رفع أيوب ناظره إليها في تلك اللحظة رأت في عينيه الصغيرتين عذاباً يفوق عمره بسنوات، لم تنس ورد تلك النظرة في عينيه أبداً طوال حياتها.

ابتسمت له وقالت: لم كل هذا الحزن؟ خالتي تحبك كثيراً ولن تتركك، لم أنت حزين هكذا؟

نظر إليها وقال بآلم: تعرفين الحقيقة إذن؟ أنا لست ابناً لماما جوهرة، أمي

الحقيقية تركتني ولا أحد يعرف من هي..

قالت ببراءة: ربما سرقوك منها.. ربما كانت هناك عصابة قامت بذلك ورمت بك بعيداً عنها، لا بد أن أمك قد بحثت عنك طويلاً ولم تجدك، المهم أن خالتي وجدتك وهي تحبك كثيراً، كلنا نحبك كثيراً!

كان ذلك أول اعتراف منها له بالحب، لم يكن اعترافاً صريحاً، لكنه كان حقيقياً وكافياً ليشعر هو بصدقها، كانت تحبه بعدد لحظات سنواتها السبع، وتعجز عن تفسير ذلك الشعور بالود الذي يجتاح قلبها الصغير كلما تذكرته أو التقت به..

ابتسم لها أيوب، ألا يكفيه أن ورد تحبه؟ وأمّه تحبه؟ من يدري.. لعل كلامها صحيح، لعل أمه قد بحثت عنه طويلاً حتى يئست من إيجادها، ربما كان قد أخذ منها رغماً عنها!

ساد صمت طويل بينهما إلى أن قالت ورد: ابتسم..

نظر إليها، كانت طفلة جميلة جداً، خفق قلبه الصغير لها وابتسم ابتسامة هادئة بددت ذلك الكدر الذي كان يطغى على ملامحه..

قامت ورد وشدته من يده ليلعبا معاً وفي تلك اللحظة نسي أيوب حزنه الذي لازمه طوال الأيام الماضية وانطلق يلهو معها بقلب خالٍ من الألم، ممتلياً بشعور واحد فقط.. الحب ولا شيء آخر غيره.

(19)

عقاب لم يتم

كان الوقت عصراً وقد خلد أحمد للنوم لينال قسطاً من الراحة بعد يوم شاق في العمل.

وكانت جوهرة قد خرجت لشراء بعض اللوازم المنزلية، كان أحمد قد بنى في حديقة المنزل حوضاً لزراعة الخضار فأصبحت هذه الخضار المنزلية الطازجة من جل اهتماماته مؤخراً..

كان الجو صحواً في ذلك العصر، فخرج الأولاد للعب في الحديقة، كانت فضة تلهو وحدها في حين بدأ أيوب وشهاب باللعب معاً بالكرة.

تصدى أيوب للكرة المندفعة نحوه مراراً بقوة، فقد كان شهاب عنيفاً في لعبه وركلاته، وفجأة تخطته الكرة لترطم بحوض الخضار وتفسد جزءاً من الطماطم المزروعة فيه.

خاف أيوب من غضب أحمد، فهو يعرف مدى اهتمامه بهذه الخضار، لكن شهاب تمادى في لعبه وقفز إلى الحوض فجأة وصار يلتقط ثمار الطماطم الناضجة ويقذف بها أيوب ضاحكاً عليه بطريقة استفزازية كلما أصابته ثمرة منها وانتثر محتواها على وجهه وملابسه..

حاولت فضة التدخل بينهما لكنها خافت من شهاب، فجرت مبتعدة عنهما ودخلت المنزل لتوقظ أباها..

قال شهاب متحدياً: ما بك تقف هكذا دون أن تدافع عن نفسك! لا بد أنك ابن رجل جبان!

اخترقت تلك الكلمات قلب أيوب كسكين حاد النصل، كانت تلك هي المرة الأولى التي يعايره فيها أحد ما بحقيقته صراحة دون مواربة أو مراعاة

لمشاعره، ودون أن يعي قفز أيوب إلى حوض الخضار وقد فقد صوابه ودفق شهاب الذي فقد توازنه نتيجة ردة فعل أيوب غير المتوقعة، فسقط على ظهره وسط الخضار مفسداً ما تبقى منها، جلس أيوب على صدر شهاب والتقط بعض الحبات المتناثرة من الطماطم وصار يسدها إليه ويفرك بها وجهه، صرخ شهاب مستنجداً، وفي نفس اللحظة التي دخلت فيها جوهرة للبيت خرج فيها أحمد وفضة من المنزل ليشاهدوا ما يحدث..

صرخ أحمد بصوت عالٍ: أيوب!

تجمد أيوب في مكانه وقد أحس بفداحة فعلته وهو يرى الكدمات في وجه شهاب ودموعه التي تغطي وجهه والدمار الذي حل في الحوض بأكلمه..
فغرت جوهرة فمها دهشةً فهذا السلوك العدواني لم يكن متوقعاً من أيوب على الإطلاق..

قام أيوب من على صدر شهاب وقام شهاب باكياً وصاح بهما أحمد ليقتربا منه، اقترب الولدين بخوف من أحمد الذي اكتست ملامحه بغضب هادر، ووقفاً أمامه وقلبيهما يخفقان بخوفهما من العقاب، قال شهاب: هو من ضربني وأفسد الحوض!

صاحت فضة: كاذب، هو من بدأ الشجار أولاً واستفز أيوب وقذفه بالطماطم! وجم أحمد ثم رفع كفه الغليظة وصفح شهاب بكل قوته، سقط شهاب مذهولاً على الأرض، وعندما التفت أحمد ورفع كفه ليضرب أيوب، نظر في عينيه، وبتلك اللحظة تردد، لم يستطع أحمد أن يضربه، تذكر أنه ليس ولده، فهو طفل يتيم خائف ووحيد، إن وجودهم جميعاً حوله لا يبدد من وحدته شيئاً، لقد عرف أنه لا ينتمي إليهم وصارت هذه المعرفة بمثابة الغصة في قلوبهم جميعاً.
أنزل أحمد يده المعلقة وزفر بضيق وهو يصرخ: إياك أن تكرر هذا السلوك ثانية!

تهدت جوهرة بارتياح لأن أحمد استطاع كبح جماح غضبه ولم يضرب أيوب، التفت أحمد ليدخل المنزل، وأعطى ظهره للولدين، وبمجرد أن خطى

ناداه أيوب برجاء: أبي!

التفت أحمد نحوه ونظر إليه مستفسراً.. فاقترب أيوب منه وقال: اضربني
 كما ضربت شهاب! فأنا استحق الضرب مثله!
 كان أيوب يريد أن ينال عقابه، فالأب لا يتردد أبداً في تأديب أولاده، لكنه
 يتردد قطعاً في تأديب الغرباء، وما فعله أحمد لتوه عزز في نفسه شعوره بالغرابة
 بين هؤلاء القوم الذين لا يعرف له أهلاً غيرهم.
 لم يفهم أحمد ما يمر به أيوب، ولم يعرف أبداً أن عفوه عنه قد زاده ألماً لا
 امتناناً، فربت على كتفه وقال بقوة: لا تكرر مثل هذا السلوك ثانية!
 ودخل أحمد إلى المنزل.. وهو غافل عن العواطف المدمرة التي اجتاحت
 قلب أيوب في تلك اللحظة التي لم يستطع نسيانها أبداً طوال حياته.

(20)

أوامر

قالت ماجدة مخاطبةً ورد بحدة: أنتِ عنيدة ولا تستمعين لأوامري! استغربت ورد غضب أمها غير المفهوم كلما عادت من منزل خالتها جوهرة أو كلما أتت خالتها لزيارتها مع أولادها أو كلما التقوا معهم خارجاً في عطلات نهاية الاسبوع.

كانت ماجدة أشبه بحارس مزعج وهي تصر على إبعاد ابنتها عن أيوب، في حين كانت ورد تحبه كثيراً وتحب صحبته وحديثه ولا ترى أي ضرر من لعبها أو تعاملها معه.

كانت ماجدة تلاحظ تعلق ابنتها بأيوب وتخاف أن يتحول هذا التعلق إلى حب يسكن قلبها دون أن تعي فيكبر معها ويورطها مع رجل لو خلت الأرض من الرجال جميعاً ما كانت لتزوجها له مهما حصل!

كرهت ماجدة أيوب لا لشخصه، لكنها لم تنسَ قط أنه ولد مجهول النسب يعلم الله وحده من هم أهله وما هو أصله وفصله، كانت فكرة تعلق ورد به تخيفها، فهي تعرف أن الحب قد ينشأ فعلاً منذ الصغر، لم تكن تريد لابنتها أن تتعلق بهذا الولد الذي لا يستحقها قطعاً من وجهة نظرها، فهي ابنتها الوحيدة، وكل هدفها في هذه الحياة أن تراها متزوجة من رجل يستحقها، وأن ترى أبناءها، وأن تتأكد من أنها سعيدة في حياتها.

لم تفكر ماجدة أبداً في الزواج رغم أن بعض الرجال من محيطها لمحوها لها بالزواج والارتباط، لكنها جربت حظها وانتهى الأمر، وابنتها بالنسبة لها أهم من أي رجل قد يدخل حياتها ويربكها بمتطلباته ومشاكله ويشغلها عن تربية ابنتها اليتيمة.

كانت ورد بمثابة الأمانة في عنق ماجدة، فقد رحل عنها والدها قبل أن ترى النور، وصارت هي كل أهلها، فجداها كبيران في السن ولن يكونا سنداً لها عندما تكبر، كانت تحس بالمسؤولية تجاه وحيدتها، وتحس بالخوف عليها من قساوة الحياة، فقد قست الحياة عليها هي، وصارت أرملة وهي في ريعان شبابها، وعاشت أياماً مريعة مع رجل مدمن خسر حياته أمام ناظريها نتيجة إدمانه وضياعه.

تريد ماجدة لورد أن تزوج من رجل صالح، رجل يقدرها ويحنو عليها، رجل خالٍ من العقد النفسية، رجل يسعدها وتعيش معه حياة مستقرة هائلة.. ماذا لو كان أيوب يحمل صفاتاً سيئة من أهله؟ ومن هم أهله أصلاً! قالت ورد لتقطع حبل أفكارها المتسارعة: ماما.. أنا دائماً أستمع لكلامك! نهرتها ماجدة: أخبرتك ألف مرة بأن لا تلعب مع أيوب ولا توليه اهتماماً، لم تصرين على معاندتي؟

بدأت ورد منزعجة وهي تشعر بالظلم الذي تصر أمها على إيقاعه على صديقتها المفضل، ولم تعرف لصغر سنها كيف تعبر لأمها عن ما تشعر به، فسكتت. نبهتها أمها بحزم: سنراهم الآن في السوق، أريد أن أراكِ تلعبين مع فضة، وإياك والاقتراب من هذا الولد الغريب!

أيوب ولدٌ غريب؟؟ كيف وقد تربيا معاً؟ كيف وهو الوحيد الذي يفهمها؟ كيف وهو أقرب أصدقائها إليها؟

ركبت ورد بجوار أمها في المقعد الخلفي في سيارة السائق وهي صامته تماماً، كانت منزعجة للغاية، لم تعلق ماجدة على انزعاج ابنتها ولم تحاول التودد لها، فهي تريدها بعيدة عن ذلك الصغير الدخيل بأي ثمن حتى لو اضطرت إلى أن تقسو عليها من أجل أن تحقق غايتها في إبعادها التام عنه فهذه القسوة في مصلحتها.

التقت الأسرتين في أحد المجمعات، كانت ورد على غير طبيعتها، ظلت صامته وانعكس صمتها على أيوب فصار صامتاً مثلها و صار يراقبها بهدوء وهو

يسير على مقربة منها، دخل الجميع إلى أحد المحلات، قالت جوهرة بمرح:
ليختر كل منكم هدية له مني.

فرح الصغار بتصريحها وجرت فضة لتختار ما يعجبها مع شهاب، نظر أيوب
إلى ورد صامتاً، فوجدها واقفة مكانها، قالت لها جوهرة بلطف: ورد.. اختاري
ما تريدين أنتِ أيضاً..

قالت ورد بحزن: أنا لا أريد شيئاً..

وخطت مبتعدة، نظرت جوهرة إلى أختها متسائلة: ما بها ورد؟ تبدو منزعة؟
نظرت ماجدة بحقد نحو أيوب ولم يغفل هو عن نظرتها تلك وقالت: هي
بخير.. لا تكثرثي لها..

خطى أيوب مبتعداً هو الآخر، وصار يتجول في المحل الكبير ساهماً، وفجأة
وقعت عيناه على صندوق أزرق يشبه الخزانة، صندوق ذو أرقام سرية، يشبه تلك
الخزانة الكبيرة في غرفة أمه وأبيه لكنه بالطبع أخف وزناً وأصغر حجماً.
حمل الصندوق واتجه نحو جوهرة وأخبرها أنه يريد، تعجبت جوهرة من
اختياره لهذه الهدية الغريبة لكنها لم تعارضه.

و من بعيد كانت ورد تراقبه بعينها وهي تتساءل بينها وبين نفسها.. أيمن أن
يكون أيوب اللطيف خطراً عليها كما تقول أمها؟

التفت أيوب نحوها في تلك اللحظة والتقت عيناه بعينها.. ورغماً عنها،
وجدت نفسها تبتسم له ابتسامة منطلقة من صميم قلبها، فالأوامر لا تجدي مع
قلبٍ محبٍ..

۱۰۱

تاریخ

(21)

رسالة

(أمي.. من أنتِ؟ أه لو تعلمين كم تمنيت أن ألتقي بك، أن أراك ولو لمرة واحدة ثم أموت بعدها وأغادر هذه الحياة بلا عودة، أمي.. سئمت من تخيل تفاصيلك وسئمت أكثر من اختلاق الأعذار لك، رسمت لك في مخيلتي عشرات الصور، لا، بل رسمت لك في مخيلتي مئات الصور، تخيلت ملامحي موروثه من وجهك أنتِ، وتخيلتك تحلمين بي وتتمنين معرفة ملامحي، لا أظن أنكِ تذكرين شيئاً مني، لا بد أن الفرصة لم تسنح لك لتتأمليني، فقد تخليت عني سريعاً، أتعرفين.. لقد اختلقتُ لكِ عشرات الأعذار، لا بل مئات الأعذار، لكنني أتمنى لو أمكنني معرفة الحقيقة منك في يوم من الأيام، أريدك أن تظهرني كي تريحي قلبي وتؤكد لي أنني على الأقل ثمرة زواج أياً كان نوعه، لا أطيق أن أتخيل أنني ابن خطيئة، لا أتحمل أن أستوعب أنني أتيت لهذه الدنيا نتيجة زلة منك ومن أبي، أتعرفين.. لا أعرف لم لا أفكر بأبي كما أفكر فيك أنتِ، ربما لأنني أشعر بداخلي أنه سبب تخليكي عني، لا بد أنه تخلى عنك وأنكرني وإلا ما كنتِ لترمين بي يا أمي.. أليس كذلك؟

لقد عشت حياة صعبة، بين امرأتين.. الأولى سبب راحتني والثانية سبب عذابي..

الأولى هي جوهرة.. أمي الثانية كما أسميها بيني وبين نفسي، فأنتِ أمي الأولى.. وإن كنتِ غائبة عني، فإني أعتبرك موجودة، حية بداخلي، أقر بوجودك وأشتاقك.

لا أحد مثل جوهرة، في حبها وحنانها وشهامتها... إنها طمأنيتني في هذا العالم القاسي.. إنها ملجئي وملاذي، إنها واحتني وبلادي..

ولا أحد مثل أبي أحمد في كرمه معي ولطفه وطيبته، يكفي أنهما تكفلا بي ورباني أحسن تربية ولم يبخلا علي بأي شيء إلى أن نلت شهادتي في المحاسبة وعملت في الوزارة.

أما الثانية فهي ورد.. وما أدراك ما ورد يا أمي.. إنها هوائي، إنها أنا في جسد آخر، إنها أملي ويأسي، سعادتي وتعاسي، حلمي وكابوسي..
أحبها.. نعم أنا أحبها أكثر من أي شيء، أكثر من أي أحد، أكثر من أي كم وعدد..

ورد الجميلة الفاتنة.. ورد ببشرتها المشربة بالحمرة، وخديها المرتفعين، ورد بشفتيها المكتنزتين، وعينيها اللتان تحملان جمال الكون وغموضه، ورد بشعرها المنسدل على كتفيها بنعومة تعادل نعومة كل نساء الأرض.. ورد التي تشبه اسمها في كل تفاصيلها، ورد ذات الصوت الرخيم الذي يحمل في نبرته أجمل ألحان العالم ونغماته..

ورد حبيبي التي أرغبها وعني الحياة تمنعها..
ورد التي لا أستحقها بسببك أنت يا أمي..
ترك أيوب قلمه باستياء، ففي كل رسالة يكتبها إلى أمه مناجياً إياها يجد نفسه فجأة يلومها خلالها وهو الذي يجاهد نفسه بشدة كي يسامحها!
أيفرق معها أن يسامحها؟ أتهتم هي أساساً لو أنه سامحها؟ بل.. كيف ستعرف أصلاً أنه سامحها؟

إنه هو من يحتاج لمسامحتها لا هي، هو من يحتاج للتصالح مع ذاته، لقد قرأ هذا الكلام في عشرات الكتب.. نحن نسامح لتتحرر.. لتتخطى الألم الذي يعذبنا، لننهي فحيح ذلك الحقد الذي يفتتنا، لكنه لا يعرف كيف يسامح امرأة لا يعرفها! امرأة لا يعرف دوافعها، ولا يعرف إن كان الندم قد زار قلبها يوماً لتخليها عنه، امرأة يشعر أحياناً أنها طوت صفحته ومنعت عقلها من التعاطي مع ذكراه، امرأة حرصت على لفظه من طيات الذاكرة وهربت من أمومتها له منذ أتت به إلى هذه الحياة.

قام أيوب من مكانه منزعجاً، كان فارح الطول، شديد الوسامة، عينيه واسعتين بلون العسل المصفى، يظلل شفثيه شارب كث أنيق بلون البندق، شعره ناعم كثيف مهووش فوق رأسه بطريقة محببة.. وقد اختلط به لون البندق بلون النحاس المصقول... لقد منحه الخالق وجه جميل جذاب يشي بالقوة والعافية ويعكس سنوات عمره الثلاثة والعشرين.

فتح دولابه وشد ذلك الصندوق الأزرق الذي اشتراه ذات يوم، وفتحته فإذا به مليء برسائله إلى أمه، وفي قعر الصندوق استقرت علب صغيرة، إنها هداياه التي اشتراها لها في مناسبات مختلفة، سلسلة تحمل شكل طير جميل اشتراها لها من أول راتب له كما اشترى مثلها لجوهرة، خاتم صغير اشتراه خلال إحدى الدورات التي سافر إليها بتكليف من الوزارة ورغم أنه لا يعرف مقاس أصبعها إلا أنه اختار لها مقاساً صغيراً يليق بأصابع رشيقة جميلة كما يتخيل أن تكون أصابعها! اشترى لها ذات يوم سواراً من الذهب به قطعة صغيرة من الماس البلجيكي وتخيله عشرات المرات يزين يدها وهي تربت على رأسه معتذرة منه على تركها له رغباً عنها!

في الصندوق أيضاً قلم أنيق بلون الزهر اشتراه لها ليطلب منها أن تستخدمه لتكتب له رداً على رسائله إليها، وأخيراً بروازاً مذهباً مرصعاً بأحجار كريمة اشتراه غالياً من أحد المعارض قد تستخدمه أمه يوماً لتضع فيه صورة لهما معاً!

أن لا تعرف أمك يعني أنك لا تعرف نفسك، لا تعرف المرأة التي أتت بك إلى هذه الحياة، شيء ما ينقصك، شيء جوهري ثمين لا يعرفه إلا من حُرم منه، شيء لا يعوض وجوده أحد، لقد عانى أيوب الكثير خلال سنوات حياته الماضية، وصار يعرف أن معاناته لن تنتهي إلا بانتهاء عمره إلا إن حدثت معجزة ما وظهرت أمه الحقيقية وأجابته على كل أسئلته التي كانت ولا زالت تقض مضجعه.

كان أيوب يحس بالذنب بداخله لأن وجود جوهرة بجواره لم يغنيه عن رغبته الجامحة باكتشاف حقيقة أمه، جوهرة التي لم تقصر معه في شيء، جوهرة التي كانت دائماً تدعمه بكل وسيلة ممكنة، إنه ابنها من الرضاعة وهو ممتن لأنه تربى

في كنف هذه المرأة الرائعة التي لا مثيل لها، لكنه رغم ذلك كان يتوق لمعرفة من تكون أمه الحقيقية.

أيوب أحمد راجح.. صار يعرف الفرق.. شهاب أحمد الراجح.. ذلك الفرق صار معلوماً منتصباً أمامه في كل مرة ينطق فيها باسمه أو يكتبه، يعرف أن أحمد الراجح أعطاه اسمه تفضلاً ليعوضه عن تخلي أبيه عنه وإنكاره له على الأرجح، يعرف أن لا وجود لرجل اسمه أحمد راجح، ففي الحقيقة أحمد الراجح أعطى اسمه لابنه الحقيقي فقط، ولا يمكن لأحد لومه على ذلك، فهذه هي القاعدة الصحيحة على أية حال ويكفيه أنه تكفل به ومنحه بيتاً وعطفاً وحباً لا يقدر بثمن. كانت علاقة أيوب بفضة جيدة، فهي حنونة مثل أمها، لطيفة على الدوام، هادئة النفس مستقرة المزاج، ورغم أنها أكملت السابعة والعشرين من عمرها ولم تتزوج حتى الآن إلا أنها لا تبدو مهتمة بالأمر كما تفعل جوهرة!

الوحيد الذي لم يكن يطيق أيوب في هذا البيت هو شهاب، كان شهاب حاداً معه على الدوام، لطالما قام باستفزازه بسبب أو بدون سبب، ومنذ حادثة الحوض تلك لم يسمح له أيوب باستدراجه إلى الشجار أو التضارب معه، كان يكتفي بتجاهله ويخفي ألمه من تصرفاته في قلبه، وياله من قلب، قلبٌ يخفي بداخله الكثير من الألم، شخص آخر كان يناصب أيوب العداة، إنها ماجدة، ماجدة التي تكره أيوب منذ صغره وتراه دخيلاً على العائلة، ماجدة التي تعرف أن ابنتها ورد تحبه وأنه هو أيضاً يحبها، ماجدة التي يعرف أيوب أنها لن توافق على أن تزوجه من ورد حتى لو انطبقت السماء على الأرض!

حاول أيوب كثيراً أن يخفي حبه لورد في قلبه، أراد أن يبعتها عنه ويعاملها برسمية، لكن مشاعرها الجارفة نحوه كانت أكبر من أن يصددها، كانت تحبه بجنون، وتعبّر له عن هذا الحب صراحةً، إنها تتصل به وتراسله طوال اليوم، لا تأبه برفض أمها المحتم له، ولا تهتم بما سيجدانه من معارضة في حال فكر بالزواج منها، كانت تعيش اللحظة فقط، تكتفي بحاضر تحب فيه أيوب، تحبه ولا تريد من هذه الدنيا أحداً سواه.

(22)

حديث مكرر

بدأت ورد جميلة في ذلك الصباح وهي ترتدي ثوباً بلون البنفسج وتضع في شعرها طوقاً بنفس لون ثوبها، كانت تتناول إفطارها دائماً في البيت قبل ذهابها إلى كلية الحقوق حيث تدرس في سنتها النهائية..

نزلت ماجدة وجلست أمامها وتنهتد وكأنها تستعين بالصبر لتواجه عناد ابنتها المعتاد، وقالت: جيد أنني وجدتك قبل خروجك للجامعة، ألم تغيري رأيك؟

ابتسمت ورد لأمها استرضاءً لها: لا.. لا أريد أن أراه.

ردت ماجدة: ما فعلينه غير معقول، يتقدم لك الكثير من الخطاب وأنت ترفضينهم دون أن تقابلي أحداً منهم، ما فعلينه خطأً، في الزواج فرضٌ قد لا تتكرر، غداً تكبرين ويقل عدد خطابك، انظري لفضة، أمها قلقة عليها لأنها وصلت للسابعة والعشرين من عمرها بلا زواج، أتريدين أن تصبحي مثلها أم ماذا؟

ردت ورد بصبر: فضة لا تزال شابة، وهي معلمة ناجحة وسعيدة في حياتها سواء تزوجت أم لا، لا أعرف لم تريد الأمهات التخلص من بناتهن على الدوام؟ لم تردن لنا الزواج بأي شكل من الأشكال وتضغطن علينا بهذا الشكل المريع؟ هل ضاقت بنا بيوتنا أم ماذا يا أمي؟

غضبت ماجدة وقد ملت من هذا النقاش المكرر مع ورد كلما تقدم لها شاب ما وقالت: ورد، جدك وجدتك رحلا عن هذه الدنيا رحمهما الله، ستكونين وحيدة إن حدث لي مكروه، أريد الاطمئنان عليك، أريدك أن تتزوجي برجل يستحقك، رجل ذو حسبٍ ونسبٍ ومن عائلة مرموقة.

تعرف ورد قصد أمها جيداً من تلك الكلمات، إنها تؤكد لها بشكل غير مباشر بأن زواجها من أيوب مستحيل، فهي تعرف قطعاً ما تريده ورد، في الحقيقة كانت كل العائلة تعرف أن ورد لا تريد سوى أيوب زوجاً لها.

قامت ورد والتقطت حقيبتها وكتبها، وابتسمت لأمها وهي تقول: علي أن أذهب، لدي امتحان مهم ولا أريد أن أتأخر..

كادت ماجدة أن تصرخ: والعريس؟

ابتسمت ورد ببرود: أخبريه أن يبحث عن غيري!

اتجهت ورد نحو الباب مسرعة لتهرب من أمها وابتسامتها لا تزال تزين شفيتها المكتنزتين، كانت فتاة جميلة عنيده، ومغرمة، ففي قلبها يتربع رجل واحد، ولا مكان لأي رجل آخر غيره.

بقيت ماجدة وحدها ساهمة وهي تندب حظها، لقد تحقق أسوأ كوابيسها وها هي ابنتها الوحيدة التي نذرت حياتها لتربيتها تحب ذلك الرجل المجهول النسب وترفض من أجله عشرات الخطاب الذين يدقون بابها.

ابنتها الجميلة الثرية تحب شخصاً لا يصلح لها وتصر على رفض كل خاطب يتقدم لها من أبناء الذوات والحسب والنسب.

كانت ماجدة تعاني وتدعو ليل نهار أن يبعد الله أيوب عن طريق ابنتها، كانت تكرهه بشدة فهو عدو حقيقي لا يستهان به خاصة وأنه يملك ذلك السلاح الذي لا يمكنها هزيمته، قلب ابنتها الوحيدة.

(23)

عبث

كانت جوهرة متبرمة وهي تصعد الدرج لتوقظ شهاب من نومه ليلحق على ما تبقى من ساعات دوامه..

لم تكن تلك المرة الأولى التي توقظه فيها في ذلك اليوم، وكان في كل مرة ينهض فيها من سريره أمامها يعود إليه بمجرد خروجها من غرفته..

كانت جوهرة تحمد الله دائماً على حصوله على شهادة جامعية رغم كسله وعدم التزامه وإهماله لدراسته، وتحمد الله أنه لا يزال يعمل في وظيفة إدارية معقولة في إحدى الوزارات.

بدأت جوهرة رشيقة القد كما كانت دائماً، ولا تزال تحتفظ بشعرها الأسود الكث الجميل الذي أصبحت تصبغه بشكل دوري بعد أن غزاه الشيب فتربطه دائماً خلف ظهرها.. صارت في بداية الخمسينات من عمرها وكان أولادها الثلاثة أهم ما في حياتها.. إنها تحمل في قلبها هم كل منهن، فضة التي لم تتزوج حتى الآن، شهاب المستهتر بكل التزاماته، وأخيراً أيوب الذي يحمل الألم والحب المستحيل في قلبه!

دخلت جوهرة غرفة شهاب وزفرت وهي تراه قد عاد للنوم، فصاحت به وقد نفذ صبرها: يا ولدي انهض واذهب إلى عملك، سيضيع عليك أجر هذا اليوم، متى ستعقل!

قام شهاب ضاحكاً: أعدك أن أحاول، سأقوم الآن..

قالت: سأظل واقفة هنا إلى أن تبدل ثيابك كي لا تعود للنوم.

ابتسم لها شهاب ودخل إلى الحمام ليغتسل، وظلت جوهرة واقفة في مكانها وهي تفكر في حاله، لقد أكمل الرابعة والعشرين من عمره لكنه لا يزال

يتصرف كمراهق، ولا يزال يحتاج للكثير من العناية والمتابعة والنصح، حتى والده أحمد كان يضيق باستهتاره وقلة التزامه.

لقد تقاعد أحمد من عمله منذ فترة، وافتتح محلاً صغيراً لبيع الأدوات الكهربائية ليقضي فيه وقته، فهو لا يطيق البقاء من غير أن يعمل، لكنه لم يكن يقبل بمساعدة شهاب له أبداً في المحل فهو لا يثق فيه البتة، في حين كان يطلب من أيوب المساعدة كلما احتاج لذلك.

كان شهاب طويلاً نحيلاً أسمرأً وله ملامح دقيقة لطيفة وشعر أكرت خشن متكوم فوق رأسه بطريقة طريفة، فهو يقصه بشكل غريب مضحك، ويصر على أن هذه القصة المضحكة تمنحه وسامة وجاذبية طاغية كما يقول.

إنه شاب عابث يعيش حياته بلا هدف، يأكل وينام ويعمل ويتعرف على الفتيات باستمرار، لم يعرف الحب في حياته، فبين كل فترة وأخرى يتوهم أنه يعيش حباً حقيقياً فيجد نفسه وقد سئم من الفتاة التي يتوهم حبها فيتعرف على غيرها ببساطة بعد أن يتخلى عنها.

الفتيات كلهن متشابهات من الداخل وإن اختلفن من الخارج، هكذا كان شهاب يقول لنفسه فكل فتاة تعتقد أنها الأجمل والأذكى من بين كل نساء الكون، وكلهن يقعن في فخ الكلام المعسول بسهولة ويسعدن بغيرة الرجل المفتعلة عليهن والتي تشعرهن كم هن مميزات وجماليات وأخيراً كلهن يصبحن طوع بنانه عندما يتعلقن به فيلعب معهن لعبة الصد والجفاء التي يتقنها جيداً ليشعل قلوبهن فيتعلقن به أكثر وأكثر إلى أن يتركهن بلا رجعة.

لم يلتق في حياته بفتاة مختلفة، كلهن نفس التفكير وإن اختلفن شكلاً، إن جوهر النساء واحد، إنه جوهر يتوق إلى العاطفة، ويأسره حنان الرجل كما تأسره قسوته!

انتهى شهاب من ارتداء ملابسه وخرج مع جوهرة من غرفته ونزل معها فناولته طعام إفطاره المتأخر ليأخذه معه للعمل، خرج وهو بيتسم لها بحنان، كان يحبها كثيراً، ربما كان شهاب هو أكثر من يحبها في هذا البيت ولذلك هو

يغار عليها كثيراً.. من أيوب.. ذلك الأخ الذي فرضته عليه الظروف لا صلة الدم، والذي قاسمه دائماً حنان أمه وسرق منه جل اهتمامها وتفوق عليه دائماً في كل شيء وفاقه وسامة ورجولة وإنجازاً.

لم يكره شهاب في حياته أحداً كما كره أيوب، كان يغار منه، من قال أن الغيرة صفة النساء؟ فالرجال يغارون أيضاً، وغيرتهم أشد وطأة وفتكاً وحدة. وصل شهاب إلى الوزاة متأخراً.. ناكف موظف الأمن قليلاً ثم صعد إلى قسمه، التقى مديرته فور دخوله القسم، فقالت بجفاء: شهاب.. أريدك في مكنتي على الفور!

قال لها بتودد: حاضر..

ذهبت غاضبة فزفر فأخر ما كان يحتمله اليوم هو تأنيبها له على تأخيره المستمر، كان يلعن حظه باستمرار لأن مديرته امرأة، ويشعر بالمهانة كلما تعامل معها، لم يكن يعتبر النساء أكثر من عنصر ناقص في المجتمع وجد ليكون تابعاً للرجل لا ندأله..

(24)

فتاة من ذهب

جلست فضة على مقعدها في غرفة مدرسات اللغة العربية، وبدأت بتصحيح دفاتر تلميذاتها بدقة، كانت ذات جمال هاديء، بشرتها سمراء فاتحة، وشعرها أسود ناعم طويل يصل إلى منتصف ظهرها، كان قوامها أجمل من وجهها، فجسدها لدن متناسق، وأطرافها ناعمة جميلة، رزقها الله سبحانه بيدين جميلتين ناعمتين بأصابع رشيقة طويلة، فكل حلية ترتديها تبدو أكثر جمالاً في يديها.

كانت فضة هادئة بطبعها، مسالمة لأقصى درجة، تكره النسيمة ولا تقرها، كما كانت قليلة الكلام، حسنة الأخلاق، يحبها الجميع في المدرسة لأنها لا تفتعل المشاكل وتتساهل مع الآخرين وتغفر زلاتهم المتعمدة وغير المتعمدة نحوها، إنها فتاة نادرة ومميزة ورغم كل مزاياها، لم يتقدم لها شخص مناسب للزواج.

كان عدد المتقدمين لها لا يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة، وجميعهم لم يكونوا يصلحوا لها، وعندما أكلمت فضة الخامسة والعشرين من عمرها أصحبت جوهرة قلقة عليها، خائفة من أن يتأخر نصيبها أكثر فيفوتها قطار الزواج وخلال العامين الماضيين لم يتقدم أي أحد لها مما عزز مخاوف أمها أكثر وهي تحذرنا من الاقتراب من الثلاثين من عمرها دون زواج وكأن الأمر في يدها!

لا تعرف فضة سبب قلق أمها الدائم عليها، فهي سعيدة في حياتها في كنف أهلها، وحتى لو لم يكتب لها الزواج ستكون راضية بقدرها سعيدة بكل ما منحها الله إياه من نعم، فهي تنعم بصحة جيدة، ووظيفة تحبها، طالباتها يملأن قلبها، أسرتها جميلة، أباهما يحبها ولا يرفض لها طلباً لأنها من النادر أن تطلب منه شيئاً، أخويها يعاملانها بود واحترام كبيرين فلم عليها أن تقلق إذا لم تتزوج وتغير حياتها التي تحبها؟ ففي قرارة نفسها كانت تكره أن تغير حياتها، أو بالأخص هي تخاف أن

تغير حياتها، فما أدراها ما نوع الحياة التي ستعيشها إن تزوجت؟

كانت تستمع بصمت لشكوى زميلاتها في المدرسة من أزواجهن، فهند يضربها زوجها ويستولي على نصف راتبها، وهدى تعذبها أم زوجها وتتعبها في حياتها، سحر لم تنجب وتخاف أن يتزوج عليها زوجها، وريمة المسكينة زوجها مريض وعلاجه صعب وهي حزينة دائماً بسببه، أما فضيلة فحكايتهما أسوأ، فهي تعيش في غرفتين ضيقتين في منزل أهل زوجها مع أبنائها الأربعة لأن زوجها لا يستطيع التخلي عن أمه المطلقة التي تغار منها... و..

عشرات القصص سمعتها فضة عن خيبات الزوجات، فلم تستعجل أن تحظى هي بخيبتها الخاصة؟

صحيح أن زواج والديها زواج سعيد هانيء، لكن ما الذي يضمن لها أن يكون حظها مثل حظ أمها؟ فوالدها رجل نادر الوجود في نظرها، إنه فارسها، فكيف تجد لنفسها رجلاً رائعاً مثله؟

دخلت زميلتها ريمة للغرفة وهي تزفر بسأم قائلة: ما أغبى هؤلاء البنات في الصف الخامس، لم أر في حياتي فتيات غيبات مثلهن! لم ترد فضة فلم يحدث قط أن شتمت طالباتها أو تبرمت منهن بل على العكس، كانت صبورة جداً معهن حتى لو اضطرت إلى إعادة ما تشرحه عدة مرات ليفهمن درسهن.

عادت ريمة تقول: أعيد الكلام نفسه عشرات المرات بلا فائدة، لا أعرف أين تذهب عقولهن خلال الدرس، يعتقدن أنني بلا إحساس، لقد سئمت! نظرت إليها فضة بتعاطف وهي لا تزال على صمتها، ولأن ريمة تعرفها جيداً وتعرف طباعها لم تكن تنتظر منها أي رد على ما تقوله، يكفيها أن تفضفض أمامها كي تريح نفسها وتنفس عن بعض الضغوط التي تثقل كاهلها.

انتهى اليوم الدراسي وخرجت فضة من بوابة المدرسة لتركب سيارتها، فإذا بسيارة أخرى تقف خلفها تماماً وتسد عليها سبيل الخروج!

انزعجت فضة من هذا التصرف فهي متعبة وقضت يوماً طويلاً في التدريس

وتصحيح دفاتر طالباتها، كما أنها تشعر بالجوع وترغب بالعودة للمنزل لتتناول غداءها على الفور.

تلفتت حولها وسألت بعض السائقين الواقفين بالجوار إن كان أحداً منهم يعرف صاحب هذه السيارة المزعجة فهزوا رؤوسهم نفيًا..

ركبت فضة سيارتها وشغلت التكييف وبقيت تنتظر صاحب السيارة بصبر وهي تقاوم انزعاجها، مر الوقت بطيئاً وبدأت مواقف المدرسة تخلو من السيارات، وشيئاً فشيئاً بدأت تشعر بالتوتر وهي تلاحظ أن أغلب الطالبات قد ذهبن لبيوتهن وهي لا تزال تنتظر صاحب هذه السيارة السخيفة!

مرت ساعة كاملة على انتظارها، واتصلت بها جوهرة لتستفسر عن سبب تأخيرها بعد أن قلقت عليها، وأخبرتها فضة عن ما حصل وأنها لا تزال تنتظر عودة صاحب السيارة ليخلصها من هذا الانتظار البغيض، قالت جوهرة: ياله من شخص قليل الذوق ليقف وراء سيارتك كل هذه الفترة، اتصلي على الشرطة إن لم يأت!

ابتسمت فضة بينها وبين نفسها، أيعقل أن تتصل بالشرطة لسبب كهذا؟ أنهت المكالمة مع أمها وفكرت جدياً بالاتصال بأحد أخويها ليقلها إلى البيت، وعندما أحست باليأس يتسرب إليها أمسكت هاتفها لتتصل بأيوب فإذا برجل يقرب مهرولاً نحو السيارة، لمحته فضة ففتحت الباب ونزلت من سيارتها لتوبخه على قلة ذوقه، اقترب الرجل منها معتذراً وهي يقول: أنا حقاً آسف، كنت مستعجلاً ولم أجد مكاناً أركن فيه سيارتي بسبب الازدحام الشديد في المنطقة في هذا الوقت، لم أكن أظن أنني سأتأخر هكذا في المبنى المجاور للمدرسة!

نظرت فضة إليه فأحست أنه صادق في أسفه، قالت بهدوء: لقد أخرتني كثيراً، كان يمكنك على الأقل أن تترك لي رقم هاتفك لأتصل بك في حال أردت الخروج.. قال لها محرراً: معك حق، أنا فعلاً آسف.

قالت وهي تهتم بركوب سيارتها: حصل خير.. ركبت فضة سيارتها وشغلتها، فإذا بالمحرك لا يدور.. حرك الرجل سيارته مبتعداً عن طريقها، ولاحظ أنها لا تزال تقف في مكانها، حاولت فضة تشغيل

السيارة مراراً بلا فائدة، همست لنفسها لا بد أن عطباً ما أصاب سيارتها بسبب تشغيلها للتكييف كل هذه المدة وهي واقفة في مكانها!

نزل الرجل من سيارته ودق بأصابعه على زجاج نافذتها ففزعت، نظرت إليه وكان وجهه قريباً جداً من وجهها فوجلّت، أشار لها بأن تنزل له زجاج النافذة ففعلت وقلبا يخفق لانفعالها، سألتها: المحرك لا يعمل؟

قالت بكمد: لا.. ربما حدث به عطل ما بسبب وقوفي طويلاً بهذا الشكل وأنا أنتظرك.

لم تكن غاضبة ولا منفعلة وهي تلموه، كانت تكلمه بهدوء واحترام مما جعله يشعر بالذنب لكل ما تسبب لها به من تعطيل دون قصد منه.

قال: انزلي ودعيني أحاول تشغيلها!

نزلت فضة وركب الرجل سيارتها وحاول أن يدير المحرك بلا فائدة، توجه ليفتح الغطاء الأمامي للسيارة، وبعد أن ألقى نظرة فاحصة قصيرة قال: إنها البطارية.. أتريدين مني أن أوصلك!

زفرت فضة وقالت: لا طبعاً، لن أركب مع رجل غريب، سأتصل بأخي.

قال وهو يشعر بالإحراج: سأنتظرك.

اتصلت فضة بأيوب فلم يرد عليها ثم اتصلت بشهاب فلم يرد عليها هو الآخر! اتصلت على خط المنزل فوجدته مشغولاً وعندما اتصلت على هاتف أمها النقال وجدته مغلقاً فهي كثيراً ما تغفل عن شحنه!

وأخيراً اتصلت بأبيها ورد عليها وأخبرته سريعاً بما حدث، فأخبرها أنه عالق في الزحام ويحتاج وقتاً لا يقل عن ساعة كاملة ليصل إليها ليقلمها.. طلب منها أحمد أن تعبر الشارع إلى الجمعية التعاونية المقابلة للمدرسة لتنتظره هناك في المقهى الموجود بداخلها، أنهت فضة المكالمة فسألها الرجل عما ستفعله، فقالت: سأعبر الشارع إلى الجمعية، هناك مقهى في الداخل، سأنتظر أبي هناك ليقلمني، الطريق مزدحم ولن يصل إلي سريعاً، عن إذنك.

همت فضة بعبور الشارع فحاول الرجل إقناعها بالركوب معه لإيصالها إلى

الجمعية على الأقل فالمكان قريب جداً فرفضت بأدب وإصرار: لا يمكنني الركوب مع رجل غريب، أرجو المعذرة.

عبرت فضة الشارع وأحس الرجل بالحرج أكثر وأكثر، لقد صار مسئولاً عن ما حدث لها وصار من الصعب عليه أن يتركها قبل أن يأتي والدها، فكر أن عليه على الأقل أن يطمئن عليها بعد كل ما سببه لها من تعطيل، فقرر أن يلحق بها.

دخلت فضة الجمعية التعاونية، وصعدت إلى المقهى، اختارت طاولة على الزاوية وجلست وهي تشعر بالصداع يقتحم رأسها، دخل الرجل وراءها دون أن تلاحظه وطلب كأساً من العصير الطازج وشطيرة بالجبن وحمل الصينية إلى حيث تجلس فضة، وجلس أمامها،

نظرت إليه متفاجئة فقال: أرجوك، تناولي شيئاً على الأقل، لا تعرفين كم أشعر بالذنب فلولا لي ما كنت الآن محتجزة هنا.

نظرت فضة إليه، كان وجهه مريحاً، ولم يبدو لها عابثاً أو متطفلاً، كان صادقاً في أسفه ولم ترد أن تُشعره بالسوء أكثر من ذلك فقالت بلطف: شكراً، أنا حقاً جائعة. أخذت فضة تشرب العصير وتناولت قطعة من الشطيرة اللذيذة فأحس الرجل بالراحة وهو يراها متسامحة معه، كانت طيبة، واستطاع الإحساس بمدى طيبتها وبساطتها بالرغم من أنه لا يعرفها جيداً، قال لها: اسمي وليد..

قالت له: أنا اسمي فضة..

سألها: تعملين في المدرسة؟

أجابت: نعم.. أنا معلمة..

ابتسم لها: ماذا تعلمين؟

قالت بفخر: أعلم اللغة العربية..

تفاجأ: صحيح؟ ولم درست اللغة العربية دون غيرها؟

ابتسمت: لأنها أجمل لغات العالم، فهي لغة القرآن الكريم..

أحس بالخجل: أنا فاشل في النحو...

ضحكت ولم تعرف بم تجيبه..

تأملها.. أعجبتة طبيعتها، وأعجبه هدوؤها، وعشق على الفور حياءها، خجلها منه ومن نظراته إليها، ورفضها للركوب بجواره ليوصلها رغم الحر الشديد في ذلك اليوم..

لاحظ احتشامها في ملابسها، ولاحظ قلة الزينة في وجهها، تأمل شعرها اللامع، لا بد أنها لم تصبغه في حياتها..

كانت فتاة مختلفة، فتاة من الزمن الجميل، فتاة من مثلها صرن قليلاً للأسف. كانت تأكل بيطيء وخجل، أحب عفويتها، كانت تبدو جائعة، فامتلاً قلبه عطفاً عليها، كم هي وديعة هذه الفتاة، ليت الزمن يقف به هكذا ليتعرف عليها، ترى من تكون؟

أخبرها أنه محامي، ولديه مكتبه الخاص، أخبرته أن ابنة خالتها تدرس الحقوق في سنتها النهائية وتحلم بأن يكون لها مكتبها الخاص في يوم من الأيام.. أخبرها أنه وحيد أمه وأن له أختاً واحدة متزوجة، فأخبرته أن لها أخوين وأنها أيضاً مثله بنتاً واحدة.

سألها وهو ينظر لأصابعها التي لم يرَ في حياته أرق منها: أنت متزوجة؟

قالت بسداجة: لا..

سألها: كم عمرك؟

قالت: سبعة وعشرون..

قال بلطف: تبدين أصغر من عمرك.

قالت بلطف: شكراً لك.

رن هاتفها النقال أخيراً ليعلن وصول أبيها، قامت برشاقة ووقفت بمواجهة وليد وقالت بامتنان: شكراً على ذوقك!

قال ضاحكاً: بل عليك أن تقولي.. شكراً على قلة ذوقك!

ضحكت وهمت بالرحيل، وقبل أن تذهب ناداها: فضة؟

التفتت له متسائلة فقال: لم يصدق من أسماك فضة، كان عليه أن يسميك ذهب،

فأنت فتاة من ذهب!

(25)

غداء

جهزت جوهرة مائدة الطعام، ورغم تأخر الوقت نسبياً إلا أنها تحب أن يجتمع أفراد أسرتها على الغداء، صحيح أن كلاً منهم صار يعود في وقتٍ مختلف عن الآخر، لكن عادة تناولهم للغداء معاً كانت مهمة بالنسبة لها وتصرف كل الإصرار أن يلتزم بها جميع من في المنزل.

اجتمعت العائلة على الغداء وفضة تحكي لهم عن ما حصل معها اليوم بعد الدوام، لم تكن تسهب في الحديث كما كانت وهي صغيرة لأنها أصبحت أكثر هدوءاً الآن مما كانت عليه في صغرها، لكنها لاحظت أن قلبها كان يتراقص في صدرها على نحوٍ غير مبرر وهي تتذكر وليد!

بدأ الجميع بالأكل فإذا بجرس الباب يدق، قام أيوب ليفتح الباب فإذا به يجد ورد أمامه فابتسم من قلبه، قالت ورد ضاحكة مخاطبة الجميع: ألغيت محاضرتي اليوم، ففكرت أنكم الآن تتناولون غداءكم، فقررت المجيء..

ابتسمت لها جوهرة بحب: أهلاً وسهلاً.. تعالي حبيبتني اجلسي بجانبني. قبلت ورد جوهرة وفضة، وسلمت بأدب على أحمد وشهاب، أما أيوب فقد كانت تلك النظرات المحبة في عينيها أعظم من أي سلام قد توجه له..

بدت نظرة عابثة على وجه شهاب، فهو يعرف ما تكنه ورد لأخيه، فكل نظراتها وتصرفاتها تفضحها، لم يكن حبها لأيوب خافياً على أي أحد من العائلة.

صار أيوب جالساً بمواجهة ورد، كانت نظراته إليها دافئة، كشمس حانية، كان يشعر بالحنان يجتاح قلبه عليها، بالذات عندما يفكر بصعوبة ارتباطهما معاً بسبب رأي أمها فيه، كان يتمنى لو أن ورد لم تحبه، يتمنى لو أنه فقط من احترق

بنار حبها وحده، كي لا تتعذب لاحقاً بسببه أبداً.

أخذت ورد تتحدث عن الجامعة، كانت فتاة جميلة مرحة، تفيض بالحيوية، وعلى عكس فضة كانت كثيرة الكلام، إلا أن مجالستها ممتعة للغاية..

انتهى الغداء وعيني أيوب معلقة بها، وقام الجميع لتناول الفاكهة في الصالة المجاورة لغرفة الطعام، قال أيوب: عادتنا بتناول الفاكهة بعد الغداء غير صحية، علينا أن نأكلها بوقت لاحق..

ضحك أحمد: لا تصدق كل ما تسمعه، كبرنا على هذه العادات ولم نصب بأذى..

ابتسمت جوهرة وهي ترى ورد تجلس بجوار أيوب، كانت تحبها كما تحب ابنتها فضة بالضبط، فهي وحيدة أختها ورأتها تكبر أمام ناظريها، وتعرف أخلاقها كما تعرف نفسها لكنها كانت حزينة بسبب موقف ماجدة من أيوب ومن خوفها منه على ابنتها، وتعرف حق المعرفة أن ماجدة لن تقبل بتزويج ورد منه مهما حصل.. لذا كانت مشاعرها متناقضة كلما أتت ورد لزيارتهم على نحو مفاجيء كما تفعل دائماً، فمن ناحية هي تحبها وتحب وصلها لهم ومن ناحية أخرى هي قلقة عليها لأنها تحب أيوب كل هذا الحب ومتعلقة به إلى هذا الحد.

نظرت ورد لأيوب وسألته: كيف حالك؟

قال لها: بخير، وأنت؟

ضحكت ضحكة خافتة: بخير طبعاً، لأنني معكم!

كان شهاب يرقبهما من مكانه هازئاً بهما وبحبهما اليائس، فهو يعرف مثل

الجميع رأي خالته بهذا الأخ الذي لم تلده أمه!

قام أحمد لينام كعادته بعد الغداء، وقامت جوهرة وراءه، ثم استأذنت فضة

لتذهب لغرفتها فهي متعبة مرهقة، وبعد أن بقي شهاب قليلاً قرر أن يترك هذان

العاشقان الأحمقان وحدهما وينسحب!

التفت ورد بكل جسدها لأيوب وقالت: أخبرني.. لم لم ترد على مكالمتي

هذا الصباح؟

ارتبك أيوب فقد قرر بينه وبين نفسه أن يحاول إبعادها عنه من أجل مصلحتها:
كنت مشغولاً في الدوام..

قالت بثقة: بل تحاول الابتعاد عني صحيح؟
نظر إليها وهو يتنهد، وفكر بداخله أمن السهل الابتعاد عن مثلها؟
قالت: تتنهد؟ إذن ما أقوله صحيح..
قال: ورد أنا..

قاطعته: إياك أن تفعل، أن تبعد عني يعني أنك تمنع عني الهواء، أيوب..
أنت هوائي الذي أتفسه.. افهم ذلك!

قال متألماً: أنا الهواء الذي سيخنقك ذات يوم، ورد، أمك لن تقبل بي زوجاً
لك مهما حصل عليك أن تقبلي هذه الحقيقة المرة، أمك عنيدة ولا أعرف إن
كنت أستطيع لومها على موقفها مني أم لا.

قالت بعناد: دعها على عنادها وسأبقى أنا على عنادي، إن لم أتزوج بك فلن
أتزوج أبداً، وإن استوعبت أمني مدى جدتي ستوافق عاجلاً أم آجلاً، لا تنسى
أنني ابتتها الوحيدة وسعادتي تهمها في النهاية.

قال بجدية: ورد.. أمك تكرهني، هي تحتقرني!
ردت بحدة: لا..

قال بهدوء: تعرفين ذلك حق المعرفة وتكابرين.. أريد لك السعادة والراحة،
وعلى قدر حبي لك أريد أن أتركك تعيشين حياتك بعيداً عن وجودي..
قالت: وجودك راحتي وسعادتي، مشكلتك أنك لا تعلم مدى تمسكي بك
يا أيوب.

كان لوقع اسمه المنطلق من بين شفيتها لحن لا يمكن لأي أحد أن يتقنه
غيرها، كان يعشق اسمه بصوتها، كان يعشق كل شيء فيها، عينها المتمردتين،
إحساسها الصادق، وحتى جرأتها كان يقبلها منها ويحبها فيها.

كانت فتاة تدافع عن حب عاشته منذ صغرها، وعن رجل ظلمته الأقدار
لذنب لا يد له فيه، كانت تحبه، وتتمنى قربه بأي شكل ولا ترى غيره في خيالها

أباً لأولادها، لم تكن تكره حقيقته ولا تخجل منها، كانت تشفق عليه لكنها تعرف أن هذه الحقيقة لا تنقص من قدره شيئاً، فهو لم يخطيء ليُرجم، إنه يستحق كل خيرات الحياة لأنه رجل رائع وخلوق ولا مثيل له لكن أمها بكل أسف لم تكن ترى ما تراه هي فيه.

رن هاتفها النقال وظهر رقم أمها، زفرت، فابتسم مازحاً: بدأنا..
 ردت ورد متحفزة: ألو، أهلاً أُمي، أنا في منزل خالتي جوهرة تناولت الغداء عندهم، نعم؟ لأن محاضرتي الأخيرة قد ألغيت..
 صمتت ورد وأيوب ينظر إليها متوقفاً ما تقوله لها أمها الآن، لم يبدو الاهتمام على وجه ورد الفاتن والتي قاطعت أمها أخيراً ووعدتها بالعودة إلى البيت على الفور كما طلبت منها.

قامت ورد لترحل، أوصلها أيوب للخارج، ركبت سيارتها أمام ناظريه وهو يتمنى لو أنها لا ترحل أبداً، ابتسمت له، هز كتفيه وهو يقول: رأيت ما أقصد؟
 قالت هادئة: لا يهمني كلامها، لقد اعتدت عليه، أسمع من أذني اليمنى لأخرجه من أذني اليسرى، أيوب، سأحارب من أجلك، وستزوج يوماً ما، ثق بي!

(26)

رياضة

كانت رياضة المشي اليومية هي الشيء الوحيد الذي يلتزم به شهاب بلا تخاذل في حياته، كان يحب المشي في ممشى المنطقة، بغض النظر عن حالة الطقس، بغض النظر عن مشاغله أو حتى حالته الصحية، كان يصبر دائماً على المشي لساعة كاملة يومياً..

لم يكن ينشد الرشاقة من رياضته هذه فقد خلق نحيفاً رشيقاً، لكنه ينشد الراحة النفسية التي لم تكن تتحقق له إلا من خلال المشي. لم يكن المشي يتعبه، كان يستطيع أن يمشي لأميال دون أن يحس بنفسه، وخلال مشيه يفرغ أفكاره المزعجة فيشعر بالهدوء يجتاحه وبصفاً عجيب في ذهنه.

كان الجو حاراً تلك الليلة، ورواد الممشى قليلون، وبدأ شهاب بالمشي بهمة وهو يفكر بأمور غير مترابطة، كان شارد الذهن كعادته عندما يمشي لكنه رغم ذلك لاحظ أمراً غريباً يحدث أمامه مباشرة..

لاحظ شهاب فتاة ترتدي ملابس رياضية وهي تمشي بصحبة كلب صغير ولاحظ رجل غريب الشكل يتبعها ويقرب منها بحذر، وقبل أن يعي شهاب انحنى الرجل فجأة والتقط الكلب من على الأرض وقد كتم فمه بأداة ما وركض مسرعاً..

استوعبت الفتاة ما حدث بسرعة فصرخت به: اتركه!!

جرى الرجل مسرعاً، وجرت الفتاة خلفه، كان واضحاً جداً لشهاب أن هذه الفتاة الصغيرة الحجم لم تكن تستطيع اللحاق بهذا الرجل السريع، فأطلق ساقيه للريح وقد قرر أن يتدخل، ولأن له جسد رياضي معتاد على الحركة

وساقين طويلتين أيضاً استطاع وبسهولة الوصول للرجل السارق والانقضاض عليه، لكمة شهاب بمجرد أن أمسك بتلابيبه لكمة قوية، فسقط الرجل أرضاً، فر الكلب من بين يديه وهو يئن وجرى لأحضان صاحبه، انهال شهاب على الرجل ضرباً وهو يتوعده: أيها السارق الحقير، أقسم أنني سأقتلك إن رأيتك ثانية هنا في المنطقة!

كان شهاب عنيفاً وهو يكاد يهشم أنف الرجل بلكماته المتوالية، صرخت الفتاة: يكفي، هذا يكفي!
التفت شهاب نحوها فهرب الرجل مسرعاً وهو يلعن حظه الذي أوقعه بين يدي شهاب القويتين..

لم يهتم شهاب بهروب الرجل فما ناله منه سيردعه عن تكرار فعلته خاصة في هذا المكان، وإن كان قد تمنى لو أنه سلم هذا اللص للشرطة لينال جزاءه.. كانت الفتاة تحتضن كلبها وتهدهده وكأنه طفل وقد أزال ما يلجم فمه فأخذ ينبج بلطف وكأنه يطمئنها على حاله..

اقترب شهاب من الفتاة التي قالت بامتنان: لا أعرف كيف أشكرك! لقد أنقذت كمبو!

ضحك شهاب وقال: هذا الصغير اسمه كمبو؟

ابتسمت له: نعم، إنه صديقي المفضل.. ونحن دائماً نمشي هنا.

سألها متعجباً: منذ متى؟

قالت: انتقلنا للمنطقة منذ فترة، اشتري والدي منزلاً يطل على الممشى،

وكما تعرف يجب أن يتنزه كمبو يومياً، فذلك مهم جداً من أجل صحته!

أحس شهاب بالسخافة وهو يسمع حديثها عن هذا الكلب وكأنه شخص

مهم! وتعجب من قدرة البعض لتربية هذه الحيوانات وهدر أوقاتهم على العناية

بها! فبالنسبة له لم تكن هذه الأمور تستهويه إطلاقاً..

كانت الفتاة تقف أمامه تماماً وقد بدت قصيرة جداً بالنسبة إليه، وبتلك

اللحظة وهي تحكي له عن أهمية المشي بالنسبة لكلبها المدلل، لاحظ شهاب

طول أهدابها، فكر في نفسه أنها قد تكون تضع رموشاً صناعية كأغلب البنات هذه الأيام، لكنه عندما دقق بوجهها تأكد أن هذه الرموش الرائعة هي رموشها الحقيقية.. ابتسمت له: أيمكنك أن توصلني للبيت؟ أخاف أن أمشي وحدي بعد ما حصل، أخشى أن يعود ذلك الرجل لملاحقتي.

كان شهاب مشغولاً بالتحديق في وجهها الرائع، كانت تملك أجمل عينين رأهما في حياته، ورغم أنها قصيرة القامة، كانت جميلة كتحفة فنية.. لم يستطع تحديد طول شعرها لأنها جمعتها خلف رأسها لكنه رجح نعومته من خلال تلك الخصل المتطايرة منه حول وجهها الرقيق..

قالت بصوتها الرقيق وكأنها تطمئنه: بيتنا ليس بعيداً، فهو يطل على الممشى كما أخبرتك، لن تتعطل كثيراً إن أوصلتني.

انتبه شهاب أنه من الذوق أن يرد عليها فقال: لا مانع لدي..

مشت الفتاة وهي لا تزال تحمل كلبها المدلل، ومشى شهاب بجوارها فأخذت تحكي له كم خافت على كلبها وكم كانت ستبكي وتتعذب إن تم اختطافه، ولولا أنه لم يرد أن يصدمه لكان انفجر ضاحكاً مما تقوله! فإنقاده للكلب جاء من وحي اللحظة وهو ما تحتمه عليه رجولته وليس لأنه يحب هذا النوع من الكائنات الأليفة.

قال شهاب فجأة: لم لا تتبينين كلباً أكبر حجماً؟ نوع من أنواع كلاب الحراسة؟ على الأقل سيقوم بحمايتك في حال تعرض لك أحد، ما فائدة كلب للزينة مثل هذا!

انزعجت الفتاة وأخذت تدافع عن كلبها: بالعكس، كمبو لا مثيل له، إنه كلب وديع ولطيف وهو أفضل أصدقائي، صدقني مصادقته أفضل بكثير من مصادقة الناس، فهو لا يغدر بك ولا يتغير عليك دون سبب مثل البشر.

كانت فتاة غريبة الأطوار بالنسبة لشهاب، وكان حديثها عن كلبها من أغرب ما سمع في حياته، لكنه لسبب ما كان يحس بسعادة غامرة لأنه ساعد هذه الجميلة الصغيرة وحماها من الخطر هي وكمبو السخيف هذا!

سألها شهاب: كم عمرك؟

سألته: لم تريد معرفة عمري؟

قال: لأعرف كم من خيبات الأصدقاء عرفت.

قالت: ألعمر دخل في ذلك؟

ابتسم: كلما تقدمنا في العمر زادت خيباتنا.

سألته: وكم عمرك أنت؟

رد ببساطة: أنا في الرابعة والعشرين من عمري.

قالت متفاجئة: أنت كبير!

ضحك: يبدو أنك طفلة!

قالت مبتسمة: لا لست طفلة، كنت أمازحك ليس إلا، لا يغرك حجمي

فعمري مقارب لعمرك!

أحس ببعض البهجة فلم يكن يرغب بالتعرف على فتاة مراهقة أخرى توجع

رأسه بالكثير من الانفعالات المبالغ فيها عندما يقرر أن يتركها..

سألها بجدية: إذن كم عمرك؟

توقفت وأشارت نحو بيتها: لقد وصلنا.. هذا بيتنا.

نظر نحو البيت الكبير ذو الحديقة الواسعة.. همت بالرحيل فاستوقفها:

مهلاً.. لم تخبريني كم هو عمرك؟

ضحكت: سأترك الأمر سراً.. وإن التقينا ثانية سأخبرك..

هز رأسه وقال: كما تريدين!

هم بالرحيل فقالت: لكنني سأخبرك باسمي..

التفت نحوها مترقباً..

فقالت بصوتها الجميل: اسمي عذاري.. عذاري الراجح!

ارتسمت الدهشة على وجهه.. لكنها رحلت سريعاً فلم يستطع أن يسألها

أكثر، اقترب من باب منزلها خلسة وقلبه يدق ونظر إلى تلك اللوحة التي تحمل

اسم أبيها: منزل حامد صالح الراجح!

(27)

يوم مختلف

كان يوماً دراسياً طويلاً ومتعباً بالنسبة إلى فضة التي قضت نهارها في التدريس بعد أن اضطرت لأخذ حصص زميلتها التي تغيبت اليوم بالإضافة إلى حصصها.

و في أحد الصفوف تعرضت لموقف مزعج من قبل إحدى الطالبات التي كانت تلهو طوال الوقت وتشتت انتباه زميلاتهما، وعندما وجهت إليها فضة ملاحظة بهذا الخصوص ردت عليها الفتاة بوقاحة لم تقبلها فطردتها من الصف. كانت تكره هذه المواقف وتتأثر بها، فهي مسالمة بطبعها، ولا تحب أن تقسو على أحد حتى وإن أخطأ بحقها، لكن من أجل أن تحافظ على صورتها أمام الطالبات كان عليها أن تتصرف بحزم، فعليها أن تفرض احترامها أمامهن وإلا فقدت السيطرة على الصف.

بكت الطالبة الصغيرة في مكتب الأخصائية الاجتماعية مدعية أنها لم تتناول على فضة، وبعد الحصة استدعتها الأخصائية وحاولت أن تفهم الموضوع منها مباشرة.

كانت البنت صغيرة لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها بعد ورغم ذلك كانت جريئة جداً في حديثها لمعلمتها، لم يعد الجيل الجديد يحترم المعلمات كالجيل السابق، همست فضة لنفسها مواسية، وتذكرت كم كانت تحترم معلماتها وتقدرهن عندما كانت في مثل سنها.

حتى الأمهات اختلفن، وصرن لا يتقبلن أية ملاحظة تقولها المعلمة من أجل مصلحة بناتهن إنهن يعاملن بناتهن بلين أكثر من اللزوم ولا يردن أن يسمعن أية انتقادات بشأنهن.

خرجت فضة من الدوام منهكة، وعندما اقتربت من سيارتها شهقت، كانت سيارة وليد واقفة خلفها تماماً كما في المرة السابقة، زفرت بضيق، أيعقل أنه لم يجد مكاناً آخرأ يركن فيه سيارته سوى هذا المكان بالذات؟
كان الجو حاراً جداً، فلم تطق أن تتأخر كما حصل معها في المرة السابقة وبالذات بعد يوم متعب كهذا.

اقتربت قليلاً فلمحت ورقة مطوية على مقبض سيارتها، التقطتها وقرأت (هذا رقمي اتصلي بي عندما تريدن إخراج سيارتك!)
ابتسمت بسذاجة، قالت لنفسها: على الأقل ترك لي رقمه ليأتي.. لن اضطر لانتظاره طويلاً كما حدث في المرة الماضية.

اتصلت به من هاتفها النقال، وعندما رد عليها وجلت، فقد أتاها صوته من خلفها تماماً، وعندما استدارت رأته أمامها وهو يتسم..
نظرت إليه وقالت بهدوء: لم تكن بعيداً إذن؟
قال لها بهدوء: ولن أكون بعيداً عنك أبداً!

(28)

مشاعر

(أمي .. أيمكنك أن تظهري في حياتي فجأة لتوضحي لي الحقيقة؟ أيمكن أن تحصل هذه المعجزة فأتعرف عليك؟ لأسمع قصتي من بين شفتيك؟ أمي .. إنني أبحث عن براءة تخلصني من ذنب لم أقترفه، ذنب لم أسمع عنه قط ولم أعرفه،

أمي .. فكرت مرة أنه يمكن لي أن أقول أنني ابن حواء وآدم ككل البشر، فأنا بشر أيضاً، لكن ذلك لم يكفني فأنا أتوق لأن أعرف أية ابنة من بنات حواء أنت؟ أما من سبيل لمعرفتك؟

أتعرفين لقد سألت أمي جوهرة مراراً إن كانت قد وجدت رسالة منك عندما وجدتني؟ أوجدت أي شيء قد يدلني عليك؟ لا أصدق أنه أمكنك أن تتركيني هكذا دون أي توضيح عن حقيقتي!

أنا لا أريد سوى أن أعرفك، أن أعرف من أنا من خلالك، فلا أحد غيرك يمكنه أن يريحني من عذابي .. لا أحد أبداً غيرك يا أمي ..).

ترك أيوب قلمه وتنهد، على الأقل، لم يلمها هذه المرة، ربما لأن رسالته إليها هذه المرة أقصر من أن تحتمل اللوم، لكن أليس اللوم كامناً بين كل حرف من حروفه إليها؟ إنه يلومها في كل ما كتبه إليها، لم ينكر ذلك، فالإنكار لن يفيد، لن يفيد شيء سوى معرفة الحقيقة ..

سمع طرقات رقيقة على بابه، إنها طرقات جوهرة، فأخفى بسرعة رسالته وقلمه في صندوقه الأزرق وأخفاه في دولابه على عجل، عاودت جوهرة طرق الباب برقة، ففتح لها أيوب وشعور غامض بالذنب يعتريه، فهو يشعر بالذنب كلما رأى جوهرة أمامه وتذكر أنه يريد معرفة أمه الحقيقة، رغم أن جوهرة أفضل

من أي أم قد يعرفها، فهي أحن وأطيب الأمهات، لكنها للأسف ليست أمه!
 قالت جوهرة بحنان: ماذا تفعل؟
 قال لها وهو يهرب من عينيها: لا شيء..
 جلست جوهرة أمامه على سريره، سألته: ماهي أخبارك؟ كيف هو العمل؟
 جلس بجوارها وهو لا يزال يعاني: العمل كثير هذه الأيام، لكن الأمور
 مستقرة.

سألته باهتمام: ومديرك الجديد؟ كيف أصبحت علاقتك به؟
 طمأنها: علاقتي به طيبة، فمديري السابق أوصاه بي خيراً وأخبره أنني من
 أفضل موظفي القسم ولله الحمد على ذلك.
 ابتسمت له بحب: الحمدلله، فأنا أدعو الله دائماً أن يسخر لك الأختيار من
 خلقه، وأن يضع في طريقك أطيّب الناس ويبعد عن طريقك أخبثهم.
 نظر إليها أيوب، كان يحبها كثيراً، بل يحبها أكثر من روحه، لم يكن يريد
 معرفة أمه الحقيقية لأنه معذب في حضان جوهرة، بل على العكس فحضان
 جوهرة هو النعيم بذاته، لكنه كان يريد أن يعرف هويته، يريد أن يعرف حقيقته،
 يريد أن يعرف ابن من هو،
 ما أصعب أن يجهل المرء من يكون..

مدت جوهرة أصابعها الحانية وغرستها في شعر أيوب الكث.. تخللت
 أصابعها خصلات شعره الناعمة فابتسمت وهي تقول: ما أجمل شعرك يا ولدي.
 تذكر أنها كانت ترفض أن يقص شعره في صغره، كان شعره دائماً مهووشاً
 فوق رأسه، فضحك، سألته: لم تضحك؟
 قال وبقايا ضحكته تزين شفثيه: تذكرت طفولتي، شعري المهووش فوق
 رأسي..

ضحكت: شعرك جميل وكثيف، أحببته طويلاً وأنت صغير، على عكس
 شعر أخيك، فهو أكرت خشن، كنت أصر على أن يبقيه قصيراً جداً.. وكان يغار
 منك لأنه لا يملك مثل شعرك.

ابتسم أيوب لعفويتها، فهو أكثر من ذاق وبال غيرة شهاب منه، كم هي جميلة عندما تذكره بأن شهاب أخيه، في الحقيقة لطالما ذكره شهاب بعكس ذلك. لم يكن أيوب حاقداً على شهاب أبداً، بل على العكس كان يعذره، لقد قاسمه حب أمه، والولد لا يطيق أن يقاسمه شخص غريب حنان أمه وحبها، وشهاب لم ينس قط أن أيوب شخص غريب.

كانت جوهرة تحس بمعاناة أيوب النفسية، تحس به لأنه أقرب الناس إليها، تحس به دون أن ينطق ودون أن يشتكي لها، تحسه لأنه قطعة من روحها، كانت تعتبر نفسها أمه، صحيح أنها لم تلده، لكن لم تحب أحد في حياتها كما أحبته هو، حتى فضة وشهاب لم تكن تحبهما بقدر ما تحبه.

لم تنس قط تلك اللحظة التي وجدته فيها وهو يرتجف تحت زخات المطر الباردة، ولن تنسى أبداً لحظة أرضعته حليبها لأول مرة، لقد صب الله الرحمة في قلبها صباً من أجله، بل إنها في أحيان كثيرة كانت تتساءل إن كان الله تعالى قد خلقها من أجل أن تفعل معه ما فعلته..

صارت تظن أن إنقاذها لأيوب واحتضانه هو سبب وجودها، إنه رسالتها في هذه الحياة، فكل امرأة قد تتزوج وتنجب، لكن كم امرأة وفقها الله لتبني يتيماً وتنقذه من عذابه ووحدته؟

لذا فهي تحبه أكثر من أي شخص آخر، لقد خلقت من أجله.. من أجل أن تنقذه وتربيته وتحبه كل هذا الحب وترحمه كل هذه الرحمة.

كانت حزينة لأنه لن يتزوج من ورد، وحزينة أكثر بأن أختها الوحيدة لا تشعر بما تشعره هي نحوه، تمت لو أن ماجدة تغير معاملتها لأيوب، لو أنها تحتوي ضياعه وحزنه، لو أنها تتفهم وضعه، إنه رجل بريء، يحمل وزر والديه بلا ذنب..

تعرف جوهرة يقيناً أن ماجدة لن تزوجه ابنتها أبداً، لكنها تعرف أيضاً أن ورد لن تحب غيره أبداً..

لاحظ أيوب أنها ساهمة تفكر في أمر ما فسألها: أهنالك ما يشغل بالك؟

ابتسمت له وقالت: ومن غيركم يشغل بالي، أفكر بكم طوال الوقت، أنت وأخوتك، تقلقني أنت بصمتك، ويقلقني شهاب بصخبه، وتقلقني فضة ببقاءها عازبة دون زواج حتى الآن.

قال بجدية: تبالغين فيما يخص فضة، لا تزال شابة، من يسمعك يظن أنها أصبحت عجوزاً.

قالت بقلق: أريد أن أطمئن عليها، أريد أن أراها سعيدة في منزل زوجها، أريد أن أحمل أولادها وأفرح بهم.

قال مشاكساً: وضعك هكذا أفضل، ستكبرين عندما تصبحين جدة..

ضحكت: بالعكس، لا شيء أجمل من أن يمد الله في عمر الإنسان فيرى أحفاده، إنهم امتداد نسله، أحب أن أرى أولادك أنت وأولاد شهاب أيضاً.. أتمنى أن تسعدوا جميعاً، وتزوجوا لأطمئن عليكم.

سكت أيوب، وفهمت هي معنى سكوته، إنها ورد التي في القلب، وماجدة التي تقف في طريق هذا القلب ليحصل على ما يريد..

ورد وياسمين

خرجت ورد من محاضرتها بصحبة صديقتها المقربة ياسمين، كانتنا دائماً نسمعان الكثير من التعليقات عن اسميهما، فأني يتصادق الورد مع الياسمين كان أمراً جميلاً وطريفاً في الوقت نفسه.

لم تكن ياسمين تقل جمالاً عن ورد، فهي جميلة جداً، عيناها خضراوان وشعرها أشقر فاتح متموج يصل إلى أسفل ذقنها، كانت شديدة التأنيق في ثيابها، وترتدي في إصبعها الأيسر دبلة ماسية ضخمة، فهي متزوجة من ابن خالها منذ عدة شهور.

خرجت الفتاتان معاً لتتناولا غداءهما في أحد المقاهي، فمئذ زواج ياسمين لم تقضيا بعض الوقت معاً كما في السابق واشتاقت ورد لسماح أخبار صديقتها بعد الزواج، فاتفتتا على الخروج معاً في هذا اليوم.

وصلتا إلى المقهى الأنيق الذي تحبانه وكانتا ترتادانه معاً في السابق كلما سنحت لهما الفرصة، اختارتا طاولة في ركن هاديء، وبدأتا باختيار الطعام من القائمة التي تكادان تحفظان محتوياتها.

كانت ورد ذات طلة جميلة في ذلك اليوم وقد ارتدت بنظلاً واسعاً وقميصاً أبيضاً فضفاضاً، كانت عيناها تبدوان جميلتين وقد زيتنتهما بظل داكن اللون وكحل شديد السواد، فهي تجيد وضع المساحيق وتعرف كيف تبرز جمال عينيها تحديداً، أما شعرها فقد جمعته خلف رأسها وارتدت أقرطاً صغيرة من اللؤلؤ، بدت كملكة صغيرة، مميزة وأنيقة.

حكمت لها ياسمين عن حياتها الجديدة كزوجة لا تزال تدرس في الجامعة، أخبرتها أن تنتظر أن تتخرج من الجامعة هذا العام لترتاح من الدراسة

والامتحانات التي لا تنتهي، قالت بصوتها الناعم: الزواج يحتاج للتفرغ، صرت مسؤولة عن شقتي بالكامل.

ردت ورد: لا أتخيلك تعيشين من غير خادمة.

قالت ياسمين: أمي ترسل لي خادمتها كل يوم لتنظف الشقة، وترسل لي طعام الغداء أيضاً، لا أعرف كيف كنت سأدبر أمري لولاها.

سألتها ورد: ألم يكن من الأفضل لو أنك سكنت في منزل أهل زوجك؟
ردت ياسمين بسرعة: لا، لا أحب أن أحتك بأهله كثيراً فتحدث بيننا المشاكل، أمي تحذرنني دائماً من الاحتكاك بهم، أزورهم كضييفة معززة مكرمة وأرحل عنهم كذلك، هذا هو الأفضل كما تقول أمي.

سرحت ورد وهي تتناول طعامها، كانت ياسمين دائماً فتاةً مطيعة لأمها، فهي تثق بها، وتؤمن بصحة كل شيء تقوله لها، كانت تنفذ لها كل ما تريد، فهي تردد دائماً أن لا أحد أحرص من أمها عليها، ولا أحد تهمة مصلحتها أكثر منها، كانت أمها ذات شخصية قوية كما أنها سيدة مجتمع راقية وزوجة ناجحة ولديها الكثير من العلاقات الاجتماعية التي تتباهى بها..

عندما تقدم خالد ابن خال ياسمين للزواج منها لم تفرح به، كانت تعرفه طوال عمرها، ولم تكن تحمل له أية عاطفة، لكن أمها أخبرتها أنها ستكون سعيدة معه، فهو جامعي وثري ومقبول الشكل، وبما أنه من الأهل فهي تعرفه نشأته والبيئة التي تربى فيها، إنه رجل لن تتفاجأ به أو بأهله، فهي تعرفهم جميعاً حق المعرفة، تعرف كيف يفكرون، وتعرف كيف يعيشون، وتعرف أيضاً كيف يتصرفون في المواقف الحياتية المختلفة..

أخبرتها أمها أن زواجهما سيكون زواجاً ناجحاً وبلا مفاجآت، وزواج كهذا سيكون زواج مريح لها، ورغم ذلك، أصرت أمها أن تستقل ياسمين بسكنها بعيداً عن زوجة خالها، فهي تعرف أن أم خالد امرأة متطلبة ومزاجية والأسلم لابنتها أن تعيش بعيداً عنها لتسعد بحياتها وتحافظ على خصوصيتها.

لم تكن ورد مثل صديقتها، فهي لا تهتم لرأي أمها في حبيبها، بل تعتبره

رأياً ظالماً وغير منصف، كانت ورد أكثر استقلالية بشخصيتها وأفكارها من ياسمين، ولذلك كانت تشعر أحياناً بالاستياء لأن صديقتها لا تتخذ أي قرار يخصها دون مشورة أمها، ورغم ذلك كانت ورد تعرف بينها وبين نفسها أن ياسمين ستكون أسعد منها، فكل من يمشي ضد التيار في هذه الحياة عليه أن يشقى من أجل أن يحصل على ما يريد!

وعلى الرغم من قرب الفتاتين من بعضهما إلا أنهما كانتا مختلفتين كثيراً، وكانت ياسمين دائماً تنصح ورد بنسيان أيوب واختيار رجل مناسب من الخطاب الكثيرين الذين يتقدمون لها، وتؤكد لها أن أمها على حق وأن عليها الانصياع لرغبتها بالابتعاد عن أيوب.

انهمكت الفتاتين بحديثهما، وأثناء ذلك دخل إلى المطعم شاب بصحبة رجل أجنبي، انتبهت ورد للرجل الأجنبي الأشقر وهو يتبادل حديثاً ودياً مع صاحبه، وجلسا مباشرة أمام طاولتهما.

كانت ورد في مواجهة الشاب تماماً، وعندما التقت عينيها بعينه تشاغلت عنه محرجة، فقد كانت تنظر إليهما دون أن تقصد.

عادت ورد للحديث مع صديقتها، وهي تتجاهل الشاب الجالس أمامها والذي كان يحدق بها وهو يبتسم، انزعجت من تحديقه المستمر بها، لا بد أنه فهمها خطأ! ما باله يبتسم لها بهذه البلاهة! لا بد أنه أحمق! من يظن نفسه هذا السخيف! أيكون قد ظن أنها أعجبت به مثلاً، ما هذا الغرور والتسرع!!

أحست ياسمين بانزعاج ورد فسألته عن السبب، فردت بحدة: يجلس أمامي الآن أغبي رجل على وجه الأرض! بالصدفة كنت أحدق فيه فقد لفت نظري دخوله مع رجل أجنبي، وهو الآن يحدق بي باستمرار! ربما ظن أنني معجبة به! ما أغباه!!

ضحكت ياسمين، فورد كانت غاضبة أكثر من اللازم، قالت من خلال ضحكتها: تجاهليه!

لكن ورد ظلت منزعة وقد شعرت وكأنها تحت المجهر، فأن يحدق بها

شخص ما بهذه الطريقة المكشوفة أمر تعجز عن احتمالها.

قامت الفتاتان أخيراً وقد دفعتا الحساب مناصفة بينهما كعادتهما كلما خرجتا معاً، وبمجرد أن التفتت ياسمين خلفها هتفت فرحة: ضاري؟؟؟
قام الشاب من مكانه وقد تألق وجهه: ياسمين؟ معقول! كيف حالك؟ لم أرك منذ سنوات!

ضحكت ياسمين سعيدة وهي تقول: متى عدت من الولايات المتحدة؟
قال لها: منذ شهر، تخرجت من كلية الهندسة وعدت أخيراً..
ابتسمت له: وكيف حال أمك وأختك؟
ابتسم لها: بخير، الحمدلله..

نظر ضاري نحو ورد، وابتسم لها، وسأل ياسمين: لم تعرفيني بصديقتك!
قالت ياسمين بسرعة: هذه ورد، صديقتي بالجامعة، ورد هذا ضاري، والدته صديقة مقربة لأمي، لقد تربينا معاً، صحيح؟
ضحك ضاري: صحيح، على فكرة، سمعت أنك تزوجت من خالد، ألف مبروك لكما.

تغير وجه ياسمين وقالت بهدوء: شكراً!
كانت ورد صامتة وهي تنقل عينيها بينهما، التفت ضاري نحوها بفضول وقال لها: تشرفت بمعرفتك..
كان صديقه الأجنبي ينظر نحوهم مبتسماً، انتبه له ضاري فجأة وعرفهم عليه كزميل كان يدرس معه في الخارج وجاء للكويت في زيارة قصيرة.
رحلت الفتاتان، وخلال الطريق قالت ياسمين: أتعرفين، كان ضاري مقرباً مني قبل أن يسافر للدراسة..

لم تعلق ورد، كانت تحس وكأن نظرات ضاري إليها لا تزال ملتصقة بوجهها من طول ما حدق بها ذلك اليوم، وكان هذا الشعور يزعجها، فهي لا تطيق أن ينظر لها أي رجل سوى أيوب..
عادت ياسمين تقول: هو شخص لطيف، شخصيته مرحة، في الحقيقة هو



رجل يضج بالحوية!

وصلت ياسمين بسيارتها إلى مواقف الجامعة ونزلت ورد من السيارة بعد أن سلمت عليها لتقود سيارتها الخاصة، راقبت ياسمين صديقتها وهي تبتعد، تنهدت وهي تفكر: الأمر الوحيد الذي لم أخبرك به يا ورد، أنني كنت أحب ضاري في يوم من الأيام... لكنه بكل أسف حب من طرف واحد!

(30)

من هي؟

كان الوقت عصراً عندما دخل شهاب لغرفة جوهرة، كانت وحدها في ذلك الوقت وقد خرج والده قبل قليل من المنزل..

نظرت جوهرة لولدها بحنان وسألته: شهاب؟ ماذا تريد؟

لقد قرأت في وجهه أنه يريد شيئاً ما، فهي تستطيع أن تحس بأولادها دون أن ينطقوا، جلس شهاب أمامها وسألها: أمي، أريد أن أسألك عن أمر ما.
ردت: ماهو؟

قال بعد أن تنحح قليلاً ليرتب كلماته قبل أن ينطق بها: بصراحة كنت أمشي في ممشى المنطقة قبل يومين، وبالصدفة لمحت منزلاً يطل على الممشى مكتوب عليه اسم حامد صالح الراجح! فمن يكون هذا الرجل؟ أهو قريب لنا كما يشي اسمه بذلك؟

تغيرت ملامح جوهرة، وقد غلبتها المفاجأة فأخر ما كانت تتخيله أن يسألها ابنها عن هذا الرجل بالذات!

لاحظ شهاب تغير تعابيرها فسألها بالحاح: أخبريني، من يكون هذا الرجل؟ قالت جوهرة: هو ابن عم أبيك، لكن العلاقة بيننا وبينهم مقطوعة منذ زمن! سألتها بفضول: لماذا؟

تأفتت من إلحاحه: لم تريد أن تعرف؟ مالذي يهملك في الأمر؟

قال بإصرار: فضول لا أكثر، لم أسمع باسم هذا الرجل من قبل في محيط العائلة.

قالت: لأن كل العائلة قاطعته منذ زمن، لا أحد يتشرف بمعرفته!

تعجب شهاب: ولم؟

وأخيراً قالت جوهرة: إنه رجل سيء، سرق ميراث أخوته ومعروف أنه يعمل في صفقات مشبوهة، اختلس الكثير من أموال أبيه، واستولى على ثروته الباقية بالتزوير، تزوج من خارج محيط العائلة بعد أن رفضت العائلة أن تزوجه من إحدى بناتها، زوجته متحررة وتساfer طوال العام وسمعة بناتها سيئة.

ازداد فضول شهاب وهو يسأل: كم بنتاً عنده؟

قالت جوهرة: لديه ثلاث بنات، الكبرى تزوجت وتعيش مع زوجها في الخارج، والثانية مطلقة، سمعت أنها طلقت بعد زواجها بشهر واحد فقط ولأسبابٍ مجهولة، والصغرى يقولون أنها مخطوبة منذ أعوام، رغم أنها لم تتزوج خطيبها المزعوم حتى الآن! وهذا كل ما أعرفه عنهم!

سرح شهاب، تُرى من تكون عذارى بينهن؟ قطعاً هي ليست المتزوجة، لأن أمه قالت لتوها أن ابنتهم المتزوجة تعيش مع زوجها في الخارج، أتراها تكون المطلقة أم تلك الفتاة المخطوبة؟

شعر شهاب بانزعاج غير مبرر من حديث أمه، سألته جوهرة بحذر: شهاب.. ما الأمر؟ لم أنت مهتم بأخبار هذه العائلة بالذات؟

سألها متجاهلاً سؤالها هي: كيف تعرفين كل هذه الأخبار عنهم؟ نظرت إليه بشك لكنها أجابته: أسمع أخبارهم من نساء العائلة، تعرف فضول النساء واهتمامهن بأخبار كهذه.. كما أن الكويت صغيرة ولا شيء يمكن إخفاؤه فيها.

هم شهاب بالذهاب، نادته جوهرة: شهاب، عليك الابتعاد عن هؤلاء الناس، طريقهم ليس مستقيماً، وستتعب إن تعاملت معهم بأن شكل من الأشكال! كان تحذيرها له صريحاً، فهي أمه وتعرفه أكثر من نفسه، لا بد أنها خمنت أن في الأمر فتاة ما، فرغم نصائحها المستمرة له، إلا أنها تعلم أنه ضعيف أمام الفتيات، ويضيع وقته بكل أسف في اللهو والعبث معهن.

كانت تتمنى تزويجه، واقترحت عليه الأمر أكثر من مرة، لكنه كان دائماً يتعذر بأنه الوقت لا يزال باكراً على الزواج، وفي نفس الوقت كانت جوهرة تأمل بأن

يستقيم حاله قبل الزواج فلن يكون لزوجته المستقبلية أي ذنب لتحتمل رجلاً غير مؤهل للزواج مثله، فسلوكه سيء وراتبه دائماً مخصوم بسبب التأخير ورصيده بالبنك معدوم لأنه لم يدخر فلساً واحداً طوال حياته، إنه رجل لا يتحمل المسؤولية ولا يفهمها والزواج أكبر مسؤولية يتحملها الرجل في هذه الحياة.

في ذلك المساء خرج شهاب من المنزل وهو يرتدي ملابسه الرياضية، واتجه مباشرة إلى حيث يقع بيت عذارى، ركن سيارته عند الممشى في أقرب مكان ممكن من بيتها وجلس فيها وهو ينتظر عليها تخرج مع كلبها السخيف فيستطيع محادثتها، ففضوله نحوها صار كبيراً جداً، أكبر من أن يستطيع كبه أو السيطرة عليه!

(31)

شهر

مر شهر كامل منذ دخل وليد حياة فضة، وكان هذا الشهر بحق أجمل شهر في حياتها كلها ففتاة السابعة والعشرين والتي لم تعرف في حياتها أي رجل وجدت في طريقها رجل يحبها ويملاً وقتها وفراغ حياتها ولم يكن رجلها أي رجل.. إنه رجل وسيم لطيف، ومحام مشهور وذكي، في الخامسة والثلاثين من عمره كما أخبرها، لم يتزوج لأنه لم يجد الفتاة التي يختارها زوجة له، إنه يعيش مع أمه، ورغم إلحاحها عليه بالزواج إلا أنه كان مصراً بأن يتأنى في اختيار شريكة حياته، والده متوفي منذ كان طفلاً، ويعيش مع أمه في منزل كبير في منطقة مجاورة للمنطقة التي تسكنها فضة ولديه أخت واحدة متزوجة من أحد أقربائهم ولم تنجب رغم مرور عدة سنوات على زواجها.

أخبرها وليد أنه ينوي التعرف عليها بقصد الزواج، فهو رجل ناضج ولا وقت لديه ليضيعه في علاقة غير جدية بل هو رجل يبحث عن نصفه الآخر ويرغب بالاستقرار وبتكوين عائلة صغيرة جميلة لطالما حلم بها..

لمست فضة جديته من خلال حديثه فاطمأنت له، كانت متحفظة معه وكان هو متأكداً من أنه الرجل الوحيد الذي دخل حياتها، كان يحبها لأنه وجدها فيها حياةً جميلاً كان يظن أنه انقرض في هذا الزمن، كانت تعجبه بتحفظها معه وباحساسها بالذنب لأنها تخفي وجوده في حياتها عن أهلها، كانت فتاة ذات ضمير حي، لم تبادل كلمة حب واحدة ولم تتماذى معه في الحديث، كان يتحدث أكثر مما تفعل هي، لم يلمس في صوتها غنجاً أو دلالاً، لم تكن متعطشة لسماع كلمات الحب والغزل فوثق أنها تعيش في عائلة رائعة أحسنت تربيته ولم تحرمها من أي حب أو اهتمام، كانت فتاة مستقيمة متزنة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى،

وكان يحسد نفسه لأنه وجد مثلها.

كان يرغب بالتقدم لها لكنه في قرارة نفسه كان يتساءل، أيكفيه شهرٌ واحد فقط ليقرر الارتباط بفضة؟ أليس من الأفضل أن يعرفها أكثر ولفترة أطول كي يثق أن قراره في محله؟

لم تكن فضة تشير له لموضوع الزواج فقد أخبرها بنيته منذ البداية فاطمأنت له، كانت تحادثه على استحياء، ومن النادر أن تبادل هي بالاتصال به، فهو من يبادر غالباً، يشعر بالارتياح عندما يحدثها، ويعرف أنه يكن لها شعوراً عظيماً بالاحترام والإعجاب، وكلما كان يفكر فيها كان يحس وكأنه قد بدأ يحبها، لكن يستطيع المرء أن يحب شخصاً ما فعلاً بهذه الفترة القصيرة؟

إنه متردد رغم إعجابه الشديد بها ورغم أنه يعرف أنها فتاة نادرة، لكن قرار الزواج خاصة لمن هم في مثل عمره قرار صعب، فأن يغير حياته ويقحم فيها زوجة له لم يكن بالأمر السهل بعد كل هذه السنوات من الوحدة خاصة وأنه كان دائماً متأنياً ومتردداً فيما يخص موضوع زواجه.

لم يلتق بفضة أبداً خلال تلك الفترة من علاقتهما القصيرة العمر، لم يطلب لقاءها ولم يشأ أن يتصرف كمراهق فيأتي ليراها عند مواقف المدرسة، في الحقيقة كان وليد محتاراً بما عليه فعله، فقرر أن يستشير أمه في الموضوع.

كانت أمه تنتظر قراره بالزواج على أحر من الجمر، فهي سيدة متقدمة في العمر، وأم لها الوحيد في هذه الحياة أن ترى وحيداً متزوجاً من فتاة طيبة تسعده وتنجب له الكثير من الأبناء لتقر عينها برؤيتهم قبل رحيلها عن هذه الحياة.

فرحت أمه كثيراً عندما صارحها أنه معجب بفتاة طيبة ويفكر جدياً بالارتباط بها، أخبرها باسم فضة وباسم عائلتها فتحمست الأم وأخبرته أنها ستسأل معارفها عن الفتاة وأهلها، دعت له بالتوفيق والفرحة تلمع على وجهها المغضن، وكانت هذه الفرحة سبباً حقيقياً ليتخذ وليد قراره وينهي تردده ويقرر أن يتقدم فعلاً للزواج من فضة في أسرع وقت ممكن.

(32)

عجوز ثرثارة

كان أيوب جالساً في مكتبه، عندما دخلت تلك العجوز عليه وهي تتذمر: ما هذه الوزارة التي تشبه المتاهة! أين قسم المعاملات! ماهذه الفوضى! قام أيوب احتراماً لها وسألها بأدب: ماذا تريد يا أمي؟ نظرت إليه العجوز وقالت بتعب: أريد قسم المعاملات يا ولدي، سئمت وأنا أتجول هنا وكلما سألت أحداً ما، أشار لي إلى جهة خاطئة. اقترب أيوب منها وقال: سأخذك لهم بنفسي، تفضلني.. سألته: أليس المكان هنا؟

ابتسم لها: لا، هنا قسم المحاسبة.. المعاملات في المبنى المجاور، سأذهب معك يا أمي لا تقلقي.

سارت العجوز مع أيوب بخطواتها البطيئة وهي تتكأ على عصاتها بيد مرتعشة، لم تتوقف عن الثرثرة وهي تقول: كبرت وركبتي صارتا لا تقدران على حملي، وأولادي لا فائدة من وجودهم، الأول ينام للظهيرة ويعمل بالليل، والثاني زوجته أفعى، نعم أفعى بل وأفعى سامة، وترفض أن تسمح له بزيارتي أو مساعدتي في أي شيء، وابني يطيعها طاعة عمياء وقد نسي أن له أمّاً تحتاج إليه في هذا العمر، أما ابني الثالث فهو أغبي رجل على وجه الأرض، فهو أحمق، تزوج من ابنة عمه وهي لم تكمل دراستها، لم يسمع نصيحتي عندما قلت له أن يتزوج من فتاة تحمل شهادة جامعية وتعمل لتساعده في مصاريف البيت وها هو الآن يزرع تحت وطأة الديون.. و..

كان أيوب صامتاً طوال حديثها مع ابتسامه صغيرة لم يستطع منعها على شفتيه، كانت المرأة طريفة رغم ثرثرتها، فالمفردات التي تستخدمها في وصف

حال أولادها تكاد تضحكه رغماً عنه.

وصل معها إلى قسم المعاملات واتجه بها إلى زميل يعرفه وطلب منه مساعدتها، وقبل أن يرحل سألته العجوز فجأة: ما اسمك يا ولدي؟
قال: اسمي أيوب..

سألته بفضول: هل أنت كويتي؟ من أي عائلة أنت؟
قال بهدوء: من عائلة الراجح..

ظهر الاهتمام على وجه المرأة وسألته على الفور: ابن من منهم؟ ما هو اسم أمك؟

قال لها: أمي اسمها جوهرة.

انطلقت كلمات العجوز التالية كرصايات طائشة على أيوب: الآن فهمت.. إذن أنت الولد الذي ربته جوهرة صحيح؟ لذلك تبدو جميلاً جداً هكذا، ربما كان أهلك الحقيقيين من الأجانب!

أصابك كلماتها تلك أيوب في مقتل، وبكل أسف أصابت رصاياتها تلك مسامع زملائه المتواجدين حوله وقد ارتسمت الدهشة على وجوههم.

(33)

انزعاج

كانت ورد منزعة للغاية، فخلال الشهر الماضي واجهت الكثير من الأمور المزعجة، الأمر الأول هو توتر علاقتها بأمها بسبب زياراتها المتكررة لمنزل خالتها جوهرة، ورغم أنها كانت معتادة على هذا التوتر إلا أن أمها صارت أكثر حدة معها وأكثر حزماً وغضباً كلما ذهبت لمنزل خالتها دون رضاها.

الأمر الثاني هو دراستها، فهي على أعتاب التخرج هذا الفصل، وتشعر بالتوتر كلما فكرت في الامتحانات النهائية التي صارت على الأبواب.

الأمر الثالث والأهم والأكثر إزعاجاً لها هو ضاري!

ضاري الذي حاول توسيط ياسمين بينه وبينها أكثر من مرة، والذي لا يريد أن يستسلم لرفضها له بسهولة، فصار يضايقها ويضغط عليها عن طريق صديقتها. أخبرتها ياسمين أنه معجب بها، ويريد أن يتعرف عليها عن قرب، وأنه لا ينوي نحوها إلا خيراً!

ورغم حزم ورد ورفضها الواضح والصريح له، إلا أنه صار يزعج ياسمين بالحاحه المستمر واتصالاته الملحة لتحاول معها أكثر وأكثر.

دخلت ورد إلى أحد المقاهي الشهيرة لتبتاع قهوتها المفضلة، لم تصدق عينيها وهي ترى أيوب جالسا وحده في زاوية ما، خفق قلبها لهذه الصدفة غير المتوقعة، وابتسمت أكبر ابتساماتها وهي تتجه نحوه..

وقفت أمامه وصاحت ضاحكة: مفاجأة!

رفع أيوب عينيه المحمرتين نحوها فجزعت، جلست أمامه بسرعة وسألته: ما الأمر؟ مابك؟

نظر إليها أيوب، أليس من الغريب أن تجده ورد وهو في أحوج لحظاته إليها؟

أفي قلبها بوصلة دلتها على مكانه وحدثاً أخبرها أنه ليس بخير على الإطلاق؟
 تنهد وهو يتأمل ملامحها التي يعشقها: كيف أتيت؟
 نظرت إليه بحنان: أيوب، ماذا حصل؟ لم تبدو كثيراً هكذا؟ ما بك؟
 قال: اليوم عرف زملائي في العمل أنني متبني!
 تعجبت: كيف؟

أخبرها سريعاً عن حظه العاثر الذي أوقعه في قبضة تلك العجوز الثرارة،
 والتي تعرف قصته بكل أسف، لم تكن حقيقته معروفة للجميع، فالمقربين من
 أهله يعرفون قطعاً أنه ليس ولدهم، لكن أن يتم اكتشاف هذا الأمر في مكان
 عمله لم يكن بالأمر الهين بالنسبة له.

قالت ورد وهي تغالب عواطفها: حتى لو عرفوا، هذا الأمر لا يعيبك!
 قال بحزن: تعرفين نظرة الناس لمن هم مثلي، إنهم لا يفكرون مثلك.
 تأملته، كان جميلاً حتى في حزنه، تمت لو كان الأمر بيدها، لبدلت قدرها
 بقدره، لرضيت بأن تكون مكانه، فلا يهمها أن تعرف أمها وأباها بقدر ما يهمها
 أن تعيش عمرها بقربه.

تحبه لدرجة أنها مستعدة للتضحية من أجله بروحها لو استطاعت، تمنى
 أن تهبه السعادة، أن تعيش من أجله وبين يديه، أن تحتوي حزنه وتنسيه حقيقته،
 أن تصنع له أسرة دافئة يكون هو معيلها وصاحبها، أن تنجب له أولاداً وبناتاً
 يشبهونه ويشبهونها، كم سيكون الأمر جميلاً لو أنهما اجتمعاً معاً، لو أنهما
 كللا هذا الحب الكبير بالزواج، سيكون زواجهما ناجحاً، فهما متفاهمان تماماً،
 ومتفقان على كثير من الأمور، لن يتعبا معاً أبداً، ولن يواجهها أي صراعٍ بينهما،
 فهو توأم روحها، وهي خلقت من أجله.

ما يؤلمها أكثر أنها تعرف أنه محق فيما يخص نظرة الناس لمن هم في
 وضعه، إنهم يرمونهم بذنوب ليست بذنوبهم، يدينونهم لمجرد أنهم ولدوا في
 ظروف مجهولة، قد يحترم الناس رجلاً غارقاً في الذنوب لمجرد أنه ابن عائلة
 كبيرة وقد يحقر الناس رجلاً تجلله الفضيلة لمجرد أنه مجهول النسب، فأبي

عدل هذا يا مجتمع!

قالت ورد: أيوب انظر إلي..

رفع ناظريه نحوها، كانت أجمل فتاة في الدنيا في عينيه، قالت بحنان: ألا يكفيك أنني أحبك و متمسكة بك؟ ألا يكفيك أنني أحترمك لأن شخصك يستحق الاحترام ولأنك أفضل وأشرف رجل عرفته في حياتي؟ ألا يكفيك أنني معك ولو كانت الدنيا كلها ضدك؟

ألا يكفيك أنني أحبك أنت، ولن أحب في حياتي رجل غيرك..

ألا يكفيك أنني عندما أتحدث إليك فإنني أتقن أن لا رجل في العالم يستحقني سواك؟

ابتسم لها، وجاءت ابتسامته تلك كشعاع شمس ساطع بالنور وسط ظلمات الأحزان..

ناداها لأول مرة باسم مختلف عن ما اعتاده: شكراً لك يا وردتي..
ابتسمت له وقد راق لها هذا الاسم كثيراً...

(34)

لقاء

لم يسأم شهاب وهو ينتظر لقاءً آخرًا يجمعه مع عذارى، فرغم مرور شهر كاملٍ على حادثة الممشى إلا أنه لم ييأس وهو يحوم حول بيتها عليها تخرج مرةً أخرى للتنزه مع كلبها.

فكر بأنها صارت تذهب للتنزه في مكان آخر، لا بد أنها خافت بعد ما حصل لها هنا، لكن أين تراها صارت تذهب؟ ومتى؟ فهو يأتي بحثاً عنها في نفس الوقت يومياً، قد تكون غيرت موعد نزهتها مع كلبها، تُرى كيف يمكنه رؤيتها من جديد؟

كان لا يزال يتساءل وهو جالس في سيارته في مكان مجاورٍ لبيتها عندما لمحها تخرج من البيت أخيراً بصحبة كلبها وهي ترتدي ملابساً رياضية. خفق قلبه، لقد عذبت تلك الفتاة بانتظارها، وكان إصراره على رؤيتها من جديد اختباراً حقيقياً لشخص قليل الصبر مثله.

بدأت عذارى نزهتها بخطواتٍ متأنية، ولحق بها شهاب وترك مسافة كافية بينه وبينها كي لا تحس بوجوده..

كان يفكر بعذر مناسب يتيح له فرصة التحدث إليها وكأن لقاءهما المنتظر صدفة لا أكثر،

لاحظ أنها منهمكة بالحديث مع كلبها! فهمس لنفسه ساخراً: يبدو أنها مجنونة فعلاً!

كانت تعجبه، رغم أنها قصيرة جداً وتتحدث مع الحيوانات إلا أنه لا يعرف سبب انجذابه إليها رغم كل ما قالته له أمه عن أبيها وعائلتها.

قرر أخيراً أن يبادر بمحادثتها قبل أن يمر الوقت فتضيع منه هذه الفرصة التي

انتظرها طويلاً، أسرع بخطواته ليلحق بها وبعد أن صار قريباً منها بمسافة قصيرة قال بصوت مرتفع: يبدو أنك تغلبت على خوفك أخيراً وقررت المشي هنا ثانية! كان تعليقه غيبياً فقد فضح ترقبه لحضورها وملاحظته لغيابها عن هذا المكان، التفت نحوه مبتسمة: أهذا أنت من جديد؟

حاول أن يرسم على وجهه تعبيراً لا مبالي، لكنه لم يستطع فقد كانت لهفته تطل من عينيه وهو يقول: كيف حالك؟ وكيف حال تمبو؟ صححت له: تقصد كمبو؟

ضحك: نعم، نعم، وكأن في الأمر فرق، لا أظن أنه يعرف ما هو اسمه أصلاً. قالت باستياء: أنت تقلل من قيمته، فهو كلب ذكي للغاية ويعرف الكثير! قال بسرعة وهو ينحني بطريقة مضحكة للكلب الصغير: عذراً كمبو، أرجو المعذرة لأنني قللت من قيمتك.

أشاحت عنه ضاحكة وهي تقول: يالك من سخيف. مشى بجوارها وهو يبتسم: أخبريني، كيف قررت العودة إلى هنا؟ نظرت إليه قليلاً ثم قالت: قررت أن أتغلب على ما حدث، فالممشى قريب جداً من بيتنا، ومن غير المعقول أن أستمّر بالذهاب للمشي في أماكن أخرى بسبب حادثة لا أظن أنها ستكرر..

قال بثقة: مادمت معك فهي لن تتكرر.. ضحكت: وهل ستواجه دائماً حولي عندما أحتاج لنجدتك؟ قال متودداً: لم لا؟ يسعدني التواجد حولك..

لم يكن يخطط لأن يبدو شديد اللهفة عليها بهذه الطريقة المفضوحة، لكنه لم يستطع التصرف بطريقة أخرى، كانت هذه الفتاة الصغيرة تفقده صوابه وتطيح بكل مخططاته بتلقائية!

سألها: من أنت، حدثيني عن نفسك. ابتسمت: ولم تريدني أن أحدثك عن نفسي؟ رد متوتراً وقد قرر أن يفضح نفسه تماماً فلم يعد يطيق المماطلة فالفتاة تعجبه

حقاً: لأنني منذ رأيتك ذلك اليوم وأنا أنتظر أن أراك مرة أخرى..
أحست بالزهو وردت: لماذا؟

قال وهو يعرف أنه ينساق وراءها: لأنك أعجبتني، بكِ شيء يروق لي!
ضحكت سعيدة، وصمتت لبعض الوقت، كانا يسيران متجاورين والكلب يتراقص بينهما بخطواته، هو بقوامه الفارع، وهي بقوامها الصغير، كانا مختلفين، لم يكن شكلهما منسجماً معاً، ففرق الطول بينهما كبير، لكنه أحس بالزهو وهو يمشي بجوارها وكأنه مسؤول عنها، وكأنها صارت في حمايته وتحت وصايته!
كانت تثير فيه شيئاً غريباً، يشعر بحنان جارف نحوها وكأنها ابنته!

استغرب شهاب نفسه من هذا الشعور، فلم يكن حنوناً بطبعه ولا متدفق العاطفة بل على العكس، كان قاسياً مع الفتيات اللاتي حطم قلوبهن، لم يكن يهتز لدموعهن أمامه، لكنه أمام عذارى شعر وكأنه مستعد لمحاربة العالم بأكمله من أجلها إن سقطت دمعة واحدة من عينيها!

كان كلبها يسير بينهما ولوهلة أحس شهاب بأنه قد يغار عليها حتى من كلبها السخيف هذا!

امتعض شهاب لأنه صار يقارن نفسه بهذا المخلوق الأليف، وهرب من أفكاره إليها وهو يصصر على سؤالها: أخبريني.. من أنت!

كانت لهفته تثير غرورها، ردت مازحة: مازلت لا أفهم، لم تريد أن تعرفني!
عرف أنها سعيدة باهتمامه، فهي لم تنهره، وها هي تمشي بجواره سعيدة مزهوة به، ابتسم لها: أخبرتك السبب، يبدو أنكِ ستعجبيني..

ضحكت، ثم صمتت قليلاً وكأنها تفكر ثم قالت: ما الذي تريد أن تعرفه عني؟

توقف شهاب وقد أصبح بمواجهتها تماماً وقال وهو ينظر لعينيها اللتين تأسرانه: كل شيء.. أريد أن أعرف عنك كل شيء!
نظرت إليه قليلاً، ثم هزت رأسها موافقة.

(35)

حياة

جلست فضة أمام جوهرة والخجل مرسم على وجهها، ابتسمت لها أمها مشجعة وهي تلمح خجلها وارتباكها، ثم سألتها بحنان: ما الأمر يا ابنتي؟ ما هو الموضوع الذي تريدني التكلم معي بشأنه؟

شدت فضة نفساً عميقاً من صدرها وقالت وهي لا تجرؤ على النظر إلى عيني أمها: بصراحة.. هناك شاب يرغب بالتقدم لخطبتي!

اجتاحت جوهرة مشاعر متضاربة، فمن ناحية كانت سعيدة بهذا الخبر الذي انتظرته طويلاً ومن ناحية أخرى كانت قلقة! فمن أين تعرف فضة هذا الشاب! سألت ابنتها بهدوء: من هذا الشاب؟

أجابت وهي لا تزال تهرب من عيني أمها: أتذكرين الشاب الذي أوقف سيارته خلفي وتسبب لي بالتأخير ذلك اليوم بعد الدوام؟ إنه هو من يرغب بالتقدم لطلب يدي!

سألتها جوهرة بحذر: أتعرفينه؟

لم تكن فضة ممن يجيدون الكذب، فحتى لو حاولت فإنها لن تستطيعه، وبالذات مع أمها، تلعثت وهي تجيب: حادثني، وطلب مني أن أمهد الموضوع لأمه قبل أن تتصل بك لتخطبني له..

فهمت جوهرة من كلامها أنها تعرفه، ولسبب ما خاب أملها، ربما لأنها كانت تظن أنها تعرف كل شيء عن ابنتها الوحيدة فإذا بالحب يتغافلها ويصبح لابنتها سرّاً مهماً كهذا دون علمها..

تغلبت جوهرة على تلك المشاعر السلبية بسرعة، وذكرت نفسها بدعواتها التي لم تنقطع من أجل أن تتزوج ابنتها من رجل مناسب لتبدأ بتأسيس عائلة

تخصها، عليها أن تبتهج الآن بغض النظر عن أية مشاعر متناقضة أخرى!

سألته جوهرة بعض الأسئلة عن وليد، وأجابت فضة عن معظمها مما أكد لجوهرة أن ابنتها تعرف الشاب معرفة معقولة على الأقل!

عندما اتصلت والددة وليد بها مساء ذلك اليوم، كانت جوهرة قد تهيأت نفسياً لمحادثتها، كانت أمه طيبة الحديث، وارتاحت لها جوهرة قبل أن تلتقي بها، بدا كل شيء مناسب تماماً لابنتها، فالعريس محام ولديه مكتبه الخاص، ووالداته تبدو طيبة وسعيدة جداً بفضة حتى قبل أن تراها، وحددت جوهرة موعداً لاستقبالهم بالمنزل بعد يومين.

فاتحت جوهرة زوجها أحمد بالموضوع، وبدا متحمساً جداً لعريس ابنته، وفي الموعد المحدد أتى وليد وأمه وأخته لخطبتها..

بدت فضة رقيقة بثوبها الوردي الرقيق الذي اشترته خصيصاً لهذا التعارف، سرحت شعرها عند مصففة الشعر بتسريحة بسيطة تليق بمناسبة صغيرة كهذه، في حين دعت أمها خالتها ماجدة أيضاً للحضور، فهي أختها الوحيدة ويهمها رأيها في زواج ابنتها.

كان وليد وسيم الوجه، طويل القامة، دقيق الملامح وبدا سعيداً جداً بفضة ومتحمساً لها خلال حديثه معها، وبدت هي خجلة كعادتها إنما سعيدة ومتألقة بفرحتها به.

كانت أمه تكبر أمها كثيراً بالعمر، لكن وجهها يعكس طيبة قلبها، وقد أعجبتها فضة كثيراً ولم تتردد بإبداء إعجابها بها صراحةً أمام الجميع مما أسعد قلب فضة رغم حيائها.

كانت الأم تثني على اختيار ولدها لفضة بعفوية، وكان وليد يضحك وهو يرى ارتباك فضة واحمرار خديها كلما أطرتها أمه وأثنت عليها.

كانت أخت وليد تدعى جنان، بدت شديدة الشبه بأخيها بقامتها الطويلة وجسدها الرشيق، ورغم الحزن الكامن في عينيها كانت سعيدة أيضاً بفضة وودودة جداً معها.

بدا الجميع سعيداً بهذا الزواج المرتقب وعندما رحل وليد وأهله احتضنت ماجدة ابنة أختها بحنان وباركت لها، قالت جوهرة: لقد أحببت أمه، تبدو طيبة جداً، وذلك مهم لأنك سوف تعيشين معها في بيت واحد.

قالت ماجدة بحماس: تستحقين الأفضل حبيبتى، فأنت فتاة طيبة لا مثيل لك..

ردت عليها جوهرة: ورد أيضاً فتاة طيبة، أتمنى أن تتزوج قريباً..
غيرت ملامح ماجدة، تعرف جيداً ما تقصده أختها، وكانت تخشى أن تتجراً جوهرة وتطلب يد ورد لأيوب في تلك اللحظة، تخاف وقتها أن تنفجر في وجه أختها وقد تسمعها ما لا تحب سماعه فتتأثر علاقتهما لذلك، لم تكن تطيق حتى تلك الفكرة بأن تتأثر علاقتها بأختها الوحيدة كما تأثرت علاقتها بابنتها الوحيدة وبسبب نفس ذلك الشخص الدخيل!

لاحظت جوهرة ما تمر به أختها فغيرت الموضوع على الفور وأخذت تسأل فضة عن رأيها بوليد، بدت فضة سعيدة جداً، فرجلها رجل رائع وهي تحبه كثيراً رغم معرفتها القصيرة به، كانت تحس أنها محظوظة لأنها ستزوج من رجل تحبه وتعرفه، فقصتها القصيرة معه قصة جميلة ملأت حياتها سعادة وفرحاً.
في تلك الليلة حدثها وليد مطولاً عن مدى إعجاب أمه بها وبشخصيتها الهادئة الرزينة، كانت أمه سعيدة بها للغاية، الأمر الذي أفرح قلب فضة وأثلج صدرها، فكل فتاة تشعر بالخوف في موقف مشابه فلقاء الأهل أشبه باختبار صعب ودقيق والحمد لله أن فضة تمكنت من اجتياز هذا الاختبار بنجاح باهر.

(36)

برود

بدت ياسمين رائحة الجمال تلك الليلة وهي ترتدي قميصاً منزلياً بلون السكر وبنظراً ضيقاً أسوداً يظهر رشاقة جسدها، كان شعرها الأشقر مشدوداً خلف رأسها وقد صبغت شفيتها باللون الأحمر..

جلست صامته بجوار زوجها خالد، كانت تراقبه خلصة وهو يعبث بهاتفه النقال ويضحك وحده على نكات أصدقائه السخيفة..

تأملت وجهه، لقد حفظت ملامحه من كثرة ما تأملتها ومن كثرة ما حاولت أن تجد فيها شيئاً يعجبها!

لم تكن تشعر نحوه بأية عاطفة، ولم تجد فيه أية طابع تجذبها، إنه رجل عادي بقامته المتوسطة وجسمه الممتليء ولامحه المعتدلة ونظارته السميقة..

فكرت لو لم يكن هذا الخالد ابناً لخالها لما زوجتها له أمها، همست لنفسها: ليته لم يكن!

رن هاتفها النقال فخفق قلبها، إنه ضاري، حدقت برقمه دون أن تجيب، سألتها خالد وبقايا ضحكاته لا تزال على شفيتها: من المتصل؟

ردت ببساطة مغلفة ببرود لا حدود له: إنه ضاري!

قال لها: ولم لا تردين عليه؟

أحست بالاستياء فجأة فردت على زوجها بحدة: ألا تغار من اتصالاته المتكررة بي؟

تعجب خالد، قال بسداجة: ولم أغار؟ ألم تخبريني أنه معجب بصديقتك ورد ويريد منك التوسط بينهما؟ كما أن أمه صديقة قديمة لأمك وأنتما تربيتما

معاً، لم تتوقعين مني أن أنزعج من اتصالاته بك أو أغار منه عليك؟

كان على حق، فضاري يتصل بها من أجل ورد، ورغم أنها أحبته كثيراً في يوم من الأيام إلا أنه لم ينظر لها أبداً ولم يبادلها مشاعرها التي لم يعرف بها أصلاً.. أحقاً لم يعرف ضاري أنها تحبه؟ تكاد تجزم أنه كان يعرف، كانت تتودد إليه وتحاول استمالته نحوها دون جدوى، تجاهلها وسافر ليدرس في الخارج، تزوجت من خالد بهدوء وانتهت قصتها معه - هذا إن كان يمكن تسمية ما بينهما بقصة - لتبدأ قصته مع ورد!

ورد.. كانت تحبها، حملت لها الكثير من الود في قلبها إلى أن لفت انتباه ضاري فوق في هواها فصارت تغار منها!

استيقظت البارحة بعد منتصف الليل والتقطت موبايلها، ونظرت لصورة لها مع ورد، ولأول مرة قارنت نفسها بها، لورد جمال مختلف عنها بعينيها الرائعتين وشعرها الداكن وبشرتها النضرة، كانت جميلة، لكنها قطعاً ليست أجمل منها، أكدت ياسمين لنفسها ثانية لكنها عادت توسوس لنفسها بحيرة وانزعاج: أيمن أن تكون ورد أجمل منها؟ هي بشعرها الأشقر وعينيها الخضراوين وبشرتها المشربة بلون الورد؟

إنها فاتنة في حين أن جمال ورد مألوف ومكرر، نعم إنها تعرف الكثيرات ممن يملكن مثل جمالها، أحقاً هي أجمل من ورد؟ إذن لم أعجب ضاري بورد ولم تلفت هي انتباهه إليها؟

لم يتصل بها بكل هذا الإلحاح رغم أنها أخبرته أن ورد لا تريده بعد أن سألتها بنفسها من أجله وردت عليه برفضها القاطع له!
لم يصبر على استجداء اهتمامها رغم أنها صدته مراراً!
نظرت إلى رقم ضاري الذي عاود الاتصال بها بغیظ، ردت عليه بصوت بارد: ألو..

جاءها صوته ذو النبرات التي تثير شعوراً لم ينظفيء بعد في قلبها: ياسمين، هل أنت مشغولة؟ أريد أن أتحدث معك بموضوع مهم!
وضعت يدها على صدرها عليها تهديء من روعها: ما الأمر؟ تفضل.. أنا

أسمعك..

قال ضاري: بصراحة صاحبتك خلبت لبي، لم أعد قادراً على إيقاف تفكيري بها، ياسمين مارأيك لو تقدمت لخطبتها؟
كادت تختنق وهي تقول: ماذا؟ تخطبها بهذه السرعة؟ تخطبها بعد أن رفضت التعرف عليك!

قال بصوت عاشق: نعم، أريد أن أثبت لها أنني جاد في نواياي نحوها، وأن قصدي شريف، البنت تعجبني حقاً، أعتقد أن الزواج هو السبيل الوحيد إليها، لقد فاتحت أمي بالموضوع ورحبت و..
ولم تسمع الباقي، كانت تجاهد نفسها بضراوة كي تحبس دموعها، ومن خلف هذه الدموع لمحت خالد وجسده الرخو ممدداً أمامها ككيس من الدقيق.. العفن!

(37)

قلب يبكي

كان الجميع مشغولاً بالتحضير لزواج فضة، وكانت جوهرة سعيدة جداً لأن ابنتها الوحيدة ستزوج من رجل مثل وليد.. ففرحة جوهرة به كانت كبيرة، فهي تحس بالفخر أن محامياً مرموقاً ومن عائلة طيبة قد اختار ابنتها عن اقتناع ودون وساطة من أحد.

دخلت جوهرة ذلك الصباح إلى غرفة أيوب لتشرف على الخادمة وهي تقوم بتنظيفها، هكذا اعتادت كل يوم، أن تشرف بنفسها على تنظيف الغرف ثم تنتقل مع الخادمة إلى المطبخ..

نظرت جوهرة نحو دولاب أيوب فوجدت أن ضلفته مفتوحة، اقتربت لتغلقها فوقعت عينيها على الصندوق الأزرق الخاص به، ولأول مرة اكتشفت أن أيوب قد نسي إقفاله كما يفعل عادة!

ترددت، لم تسأل أيوب أبداً ما يحويه ذلك الصندوق رغم معرفتها بحرصه عليه، أحست بفضول جارف يقتحم قلبها لتتطلع على ما يخفيه هذا الصندوق القديم، حاولت أن تغالب فضولها فلم تستطع فطلبت من الخادمة أن تخرج من الغرفة وتتركها فيها وحدها..

أخرجت الصندوق بيدين مرتعشتين، كانت تتصرف بفطرة أم غلبها فضولها رغم أن ما تفعله مخالف لمبادئها، شيء ما كان يلح عليها بأن تفتح الصندوق وترى ما يحويه، وكان هذا الشيء أقوى منها..

فتحت الصندوق وشهقت وهي تلمح الرسائل والهدايا.. وقرأت: أمي.. من أنت؟

أحست جوهرة وكأن خنجراً حاد النصل قد اخترق قلبها، إن أيوب يبحث

عن أمه في خياله! ليس هذا فقط، إنه يكتب إليها باستمرار، وبعد ساعة أخرى قضتها في غرفته وحدها عرفت أنه يشتري لها الهدايا أيضاً!

كان هذا الاكتشاف قد أذهلها، ولأول مرة منذ احتضنت أيوب أحست أن هذا الولد ليس ولدها، أحست كم هو معذب ورغم كل ما كتبه عنها هي في رسائله إلا أنها أيقنت أنها لم تحل محل أمه الحقيقية أبداً حتى وإن كان لا يعرفها.. من الصعب التعبير عن ما شعرت به جوهرة وقتها، كان شعوراً عميقاً بالخيبة ممزوجاً مع ألم لا حدود له، شعور غريب بالغيرة من امرأة ليست موجودة ولن تكون موجودة لكنها بنفس الوقت تعيش في قلب ولدها، فلذة كبدها الذي لفظته وأرادت الهرب من أمومتها نحوه لتنجو بفعله ما لا يمكنها تحمل تبعه انكشافها للملأ.

بكت جوهرة كثيراً وهي تقرأ رسائل أيوب إلى أمه، وبكت أكثر وهي ترى أنه اشترى لها حلية مشابهة لما أهداه لها عندما استلم راتبه الأول.. كانت تحس بالخيانة، وكأنها اكتشفت أن زوجها يحب غيرها، أو أن زوجها قد تزوج عليها من وراء ظهرها، لكن خيانة الابن أعظم، ولم يكن أيوب أي ابن، لقد أحبته دائماً أكثر من أولادها، نعم، تحبه أكثر من شهاب وأكثر حتى من فضة، في الحقيقة لم تحب جوهرة أحداً في حياتها كما أحبت أيوب، لقد خلقت لتنقذه، هكذا آمنت دوماً، وخلق هو ليناجي أما غير موجودة فلا يكتفي بها ويحبها العظيم له، ياله من عذاب عندما نكتشف أننا لا نكفي من نحبهم ولا يملأ وجودنا فراغهم!

قضت جوهرة ساعة أخرى في الغرفة وهي تغالب دموعها، أتت الخادمة لتخبرها أن موعد الغداء قد اقترب ولم تطبخ شيئاً بعد، أخبرتها جوهرة أن تطبخ شيئاً سريعاً وحدها اليوم، فالיום ليس ككل يوم، إنه يوم خيبتها الكبرى وانكسار قلبها..

أتخبر أيوب أنها فتحت صندوقه واطلعت على مشاعره العارية؟ لا لن تكسر قلبه ولن تحمله ألماً فوق ألمه، يكفيه عذابه وحيرته وحبه لورد وبعده عن أمه.. أحست جوهرة أن قلبها يتفتت وهي تعيد الرسائل والهدايا لمكانها، أحكمت

إقفال الصندوق كي لا يعرف أيوب أبداً أنه نسي إقفال صندوق أسرارهِ.

وأن هذه الأسرار صارت خناجراً مغروسة في صدرها..

أغلقت الدولاب بإحكام وهي تشعر بارتعاشة يديها..

أسندت ظهرها إلى الحائط لتتمالك نفسها قبل أن تخرج من هذه الغرفة التي

كادت تختنق فيها لتوها..

وعندما تماسكت، خطت نحو الباب.. وقد عرفت أنها لن تعود أبداً كما

كانت، فقلبها تغير، ليس نحو أيوب، فهي لا تملك سوى أن تحبه كل هذا

الحب، لكنه صار قلباً.. يبكي..

(38)

فرحة لا تصل للقلب

دخلت ورد لمنزلها منهكة ذلك العصر، كان الجو قد صار شديد الحرارة وقد اقتربت السنة الدراسية على نهايتها..

وبمجرد دخولها لصالة المنزل فوجئت بأمها تنتظرها وعلى وجهها ابتسامة كبيرة كانت من النادر أن ترسم على شفتيها.

قالت ورد: مساء الخير، تبدين سعيدة اليوم!

ضحكت ماجدة بفرح: نعم، لدي خبر رائع، اجلسي لأخبرك به..

جلست ورد وهي تراقب أمها التي قالت: اتصلت بي أم ضاري المحمودي، وهي سيدة مجتمع رائعة وراقية والكل يتشرف بمعرفتها.

عرفت ورد اسم ضاري فسألت أمها على الفور وهي تكذب ظنونها: وما الذي تريده منك؟

قالت ماجدة وهي تبسم: تريد أن تخطبك لولدها، تقول أنه رآك صدفة مع صديقتك ياسمين وقد جن بك منذ رآك..

شعرت ورد بغضب جارف، ما هذه الوقاحة! كيف يخطبها ضاري بعد أن صدته وأخبرت ياسمين مراراً برفضها له، من يظن نفسه هذا المغرور!! أيريد أن يتزوج بها رغماً عنها أم ماذا!!

قالت ورد بحدة: اتصلي بها وأخبريها أنني لا أريد ولدها.

قالت ماجدة بتحدٍ كانت مستعدة له: لم لا تريدينه؟

تأففت ورد: لأنه حاول ملاحقتي وتوسيط ياسمين بيني وبينه أكثر من مرة،

إنه رجل وقح، ولا يعجبني ولن أتزوجه ولو خلت الدنيا من الرجال!

قالت ماجدة بصبر: ورد، الرجل ثري ومن عائلة مرموقة، درس في الخارج،

وكان متفوقاً طوال عمره، لديه أخ واحد فقط يصغره، إنه رجل رائع، لن تجدي مثله، وحتى إن كان قد حاول التعرف عليك، هذا الأمر لا يعيبه، خاصة وأن قصده شريف وقد أرسل أمه لتخطبك له رسمياً، لا تضيعيه من يديك! نظرت ورد إلى أمها وقالت بحزم: لا أريده ولا أريد غيره، الوحيد الذي سأتزوجه هو أيوب تعرفين ذلك جيداً!

صرخت ماجدة وقد فقدت أعصابها: أنتِ مجنونة! تعرفين جيداً أنني لن أزوجك لأيوب ولو خلت الدنيا من الرجال كما قلتِ قبل قليل، ورد، سترين ضاري وستستقبلين أمه وإن أعجبني ورأيتُه مناسباً لكِ ستتزوجين منه رغماً عنكِ، تفهمين؟

قامت ورد من مكانها وقالت وهي تصعد الدرج: لن أتزوج سوى أيوب، أيوب فقط من سيكون زوجي، والأفضل أن تتقبلي هذه الفكرة من الآن وتعتادي عليها!

تركت ورد ماجدة التي كادت تفقد صوابها وهي تلعن الساعة التي وجدت فيها جوهرة ذلك الولد في الشارع!

(39)

مطلقة

لا يزال شهاب يذكر مشاعره المتضاربة عندما حكّت له عذاري عن تجربة طلاقها، تضايق بدايةً أنها كانت متزوجة من رجل غيره وتضايق أكثر عندما عرف منها عن علاقة الحب الطويلة التي جمعتها بطليقها قبل الزواج..

لا يزال يذكر كلماتها تلك جيداً عندما أخبرته: لم يكن عبدالله رجلاً عابراً بالنسبة لي، كان أهم رجل في حياتي، لم أحب في حياتي كلها أحداً كما أحبته!

تلك الكلمات أدمت فؤاد شهاب لمجرد سماعها، فكيف تكون الفتاة التي اختارها مقيمة برجل آخر غيره؟ إن ذلك فوق احتمالها، لكن أتكون لا تزال مقيمة به؟ أم أن ذلك الرجل صار جزءاً من ماضيها عندما تخلى عنها؟ هناك شيء ما في صوتها عندما كانت تحكي له عنه أشعره أن عبدالله لم يكن قد انتهى بعد من حياتها.

حكّت له كيف تعرفت عليه في المدرسة الأجنبية التي كانت تدرس فيها، وقعت في حبه منذ رأته، ارتبطا بعلاقة طويلة بعدها، تخرجا من الثانوية ودخلا نفس الكلية، تخرجا وتقدم لها، تزوجا بحفل ضخم تحدث عنه الجميع لفترة أطول من فترة زواجهما بكل أسف.

لم تخبره بالتفاصيل، لا بد أن لديها تفاصيل كثيرة لتحكيها عن علاقة طويلة راسخة كهذه لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالها: ما الذي حدث بينكما! لم تطلقك بعد شهر واحد فقط من زواجكما بعد قصة حبكما الطويلة؟

تشاغلت عنه وقتها بالنظر لقدميها وهي تمشي بجواره، أحس أنها تجد صعوبة كبيرة في أن تحكي له سرها، فصمت..

عندما تركها ذلك اليوم كان منزعجاً بشدة، أحس أنه مثقل بهم يكاد يكتفم أنفاسه، اختلى بنفسه طويلاً ليلتها وهو يفكر، وأخيراً قرر أن يبتعد عنها، فالفتاة حياتها مربية، أحبت شخصاً آخر لسنوات طويلة وعندما تزوجها طلقها سريعاً، هناك حلقة مفقودة في قصتها، وأياً تكن هذه الحلقة لا يعتقد أنها حلقة مشرفة!

اتخذ شهاب قراره بالابتعاد عن عذارى، وقرر عدم الذهاب لموعده التالي معها في الممشى حيث اعتادا على المشي معاً مؤخراً في موعد محدد، لكنه في الوقت الموعود وجد نفسه مدفوعاً للذهاب إليها رغم القرار الذي اتخذته بشأنها، وكأن مغناطيساً يجذبه نحو تلك الفتاة رغماً عنه!

لاحظت هي انزعاجه المرتسم على ملامحه بمجرد أن رآته مقبلاً عليها، مشت بجواره صامتة، عرفت بحدسها أنه يعاني بسبب ماضيها، تعرف أن الرجل في مجتمعنا لا يتقبل ماضي المرأة التي يحب، لم تكن هذه الأمور غائبة عنها، أرادت أن تكون صريحة معه منذ البداية، فقد ارتبطت بحبيبها السابق بعلاقة زواج، ومهما كانت أسباب انفصالها عنه فمن حق من يقرر اقتحام حياتها أن يعرف كل شيء عنها خاصة وأن قصتها مع عبدالله قصة معروفة يمكنه أن يسمع الكثير بشأنها إن حاول التقصي عنها..

عرفت بفطرة الأنثى أن شهاب يحبها، عرفت أنها تعجبه وأنها تستطيع أن تجره للزواج منها إن تابرت، عرفت كل ذلك لأنها امرأة ذات خبرة، لم تكن امرأة ساذجة غريبة، كانت امرأة ذات تجربة، تجربة كبيرة مريرة لا تزال تعاني بسببها وتسرق ذكراها النوم من عينها كل ليلة.

هل يعجبها شهاب؟ كان لطيفاً، أحبت اهتمامه بها، لقد طلقت منذ عام، وربما كان الوقت قد صار مناسباً لها لخوض تجربة عاطفية جديدة، تعرف أن عبدالله لن يعود إليها أبداً، فلم تنتظره؟

عليها أن تنتهز هذه الفرصة، وشهاب فرصة جيدة، عرفت عنه الكثير دون أن يخبرها بشيء، لديها مصادرها الخاصة، تعرف أنه يحمل اسم عائلتها، وأن

والده أحد أقرباء أبيها، سمعت أنه صاحب علاقات نسائية كثيرة، وتعرف أنه ليس بهذه البراءة التي يبدو عليها، كانت تراه فرصة لها، ويراهم هو لغزاً له.

سألته لتكسر صمته: ما رأيك لو حدثتني قليلاً عن نفسك؟

ابتسم ساخراً: ماذا تريد أن تعرفني عني بالضبط؟

تجاهلت لهجته الساخرة وقالت: أي شيء تجد أن معرفتي به مهمة!

صمت قليلاً وهو يفكر، إنه غاضب منها ساخط عليها، لكنه هنا الآن، يمشي ذليلاً حائراً بجوارها، يتمنى لو يستطيع الولوج إلى قلبها وقراءة كل ذكرياتها ونبضاتها، عله يستطيع محو كل ما لا يعجبه فيها لتكون له وحده! فلم يستكثر عليها أن تعرفه؟

قال أخيراً: لدي واحد وأخت واحدة.. أيوب وفضة..

لم ينتبه أنه لم يتذكر وقتها أن أيوب ليس أخاه، قال تصريحه ذلك بحكم العادة، فأيوب كان بمثابة أخ حقيقي له طوال عمره رغم كل مشاعره السلبية نحوه.

سألته: أنت أوسطهم؟

رد واجماً: صحيح، أنا أوسطهم، كيف عرفت ذلك؟

ضحكت ضحكة صغيرة: خمنت ذلك.. ماذا عن أمك وأبيك؟ كيف هي

علاقتك بهما؟

نظر للبعيد وهو يجيب: أمي امرأة رائعة، إنها أفضل أم قد يحظى بها المرء، حنونة طيبة وبنفس الوقت قوية حازمة، وهي أيضاً امرأة جميلة جداً، لطالما تمنيت الزواج من فتاة تشبهها!

تمنت أن تسأله إن كان يرى فيها شيئاً من أمه لكنها قررت أن لا تسأل، فسألته عن أبيه، فأخبرها القليل عنه، عن عمله ومشروعه بعد التقاعد وعن قربه من عائلته والقليل أيضاً عن حنانه المستتر الذي يكره إظهاره..

أحست عذاري أن عائلته جميلة مترابطة، سرحت وهي تفكر بعائلتها المفككة، أباهم الذي يقدر المال ويجري وراءه مقطوع الأنفاس ومبدأه في

ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة، أياً كانت هذه الوسيلة!

والدتها المشغولة دائماً بصديقاتها، والتي تسافر معهن على مدار العام وفي كل المناسبات، وبعمليات التجميل التي تستنزف كل أموالها، إنها مهووسة بشكلها الخارجي، تريد أن تصارع الزمن لتمحي خطوطه على وجهها وجسدها، لم تتصالح أبداً مع حقيقة أن لكل عمر جماله الخاص ومسئوليته الخاصة، تريد أن تتنافس مع بناتها، تريد أن تبدو أصغر منهن حتى!

تذكرت أختها الكبرى (علا) والتي تزوجت من رجل يعمل في الخارج لتهرب من أسرتها البائسة، إن علا تخجل منهم، تباعدت عنهم منذ زواجها وكأنها لا تعرفهم، تخلت عنهم ببساطة ولم تعد تسأل عن أي فرد فيهم، وبالمقابل قابل الجميع تباعدها بالتجاهل، فمادامت ترغب بالبعد فليكن، ففي عائلتهم لا وقت للمشاعر، فكل فرد من هذه العائلة لديه مشاغله الخاصة واهتماماته، لا وقت لتصنع الحب والاهتمام، ولا وقت لبناء علاقات لم تعد مهمة على الإطلاق.. حتى عندما أنجبت علا ابنتها، لم تدعو أمها لحضور ولادتها اكتفت فقط باتصال قصير بها لتخبرها أنها صارت جدة، وبالمقابل، أخفت أمها خبر حصولها على لقب الجدة عن جميع صديقاتها!

تنهدت عذاري وهي تتذكر أختها الصغرى عهدود، إنها على علاقة حب برجل يرفض الزواج منها وتعجز عن تركه رغم معرفتها باستحالة ارتباطه بها، رجل من عائلة كبيرة وذات نفوذ عظيم في البلد، إنهم قوم من الأكابر الذين ينظرون لغيرهم نظرة الملوك إلى الرعية.

يحبها مساعد، لكن أهله غير موافقين على ارتباطه بها، فهي لا تناسبهم، ومن مستوى أقل من مستوى عائلتهم، لا تشرفهم عهدود ولن يقبلوا بها أبداً، ورغم ذلك لا تزال مستمرة بعلاقتها بمساعد، فهي تحبه، ولا تريد تركه، ولنكون أكثر دقة.. هي لا تستطيع تركه من شدة تعلق قلبها المسكين به!

قفز الكلب أمامهما وهو يلهو.. داعبت عذاري رأسه بأناملها الرقيقة، أحست بالحزن يجتاح قلبها وهي تفكر بحالها وحال عائلتها، لاحظ شهاب

حزنها، فأشفق عليها دون أن يعرف ما الذي أحزنها، بدت صغيرة جداً على
الحزن، جميلة جداً حتى وهي في قمة غموضها وحزنها!
و دون أن يعي مد يده وأمسك بيدها فتفاجأت، ابتسم لها وقال: أتعرفين،
أكره أن أراكِ حزينة، ابتسمي أرجوكِ، من أجلي!
نظرت إليه بدهشة، لكنها ابتسمت من أجله، ابتسامة كبيرة، حركت نبضات
قلبها الساكنة منذ زمن!

(40)

عروس

نظرت فضة إلى نفسها في المرآة وهي ترتدي ثوباً بسيطاً جميلاً بلون اللؤلؤ،
ابتسمت لوجهها المتألق بزينتها ولمست بأصابعها الرشيقة الطرحة الرقيقة
المستقرة على رأسها.

لطالما حلمت بثوب كهذا، ولطالما أرادت أن تتزوج بحفل بسيط في بيتها،
تخجل أن تدخل عروساً إلى قاعة كبيرة مليئة بالعيون المتطفلة التي تتفحصها
لتقييم جمالها وتطلق عليها أحكاماً مختلفة إن كانت تستحق الزواج من رجل
مثل وليد أم لا.

فبعض البشر يستكثرون الرزق على غيرهم، وكل منهم يرى أنه الأفضل
والأكثر استحقاقاً للخير من غيره، إنهم ينسون أن في الكون وفرة تكفي الجميع،
لكن أعينهم الضيقة تعجز عن رؤية ذلك فيستوطن الحقد قلوبهم كلما سمعوا
عن أمر طيب حصل لأحد ما.

كانت فضة سعيدة جداً، لم تشعر بسعادة مماثلة في حياتها الهادئة، ففرحتها
بوليد عظيمة ومجرد فكرة أنها أصبحت زوجته على سنة الله ورسوله كانت
تسعددها وتفجر ينابيع الفرح في قلبها اللطيف.

دخلت إليها جوهرة التي بدت بمنتهى الأناقة يومها بثوبها الأسود الراقى،
نظرت إلى ابنتها بثوب الزفاف وفرحتها تطغى على أحاسيسها، فحلم كل أم أن
تري ابنتها عروساً تزف إلى رجل تتمنى أن يعرف قيمتها ويستحق قلبها.

ربت جوهرة على شعر فضة برفق كي لا تفسد تصفيفته، وقالت: مبروك يا
ابنتي، كم هو محظوظ بك.

التقطت فضة يد أمها وقربتها من شفيتها وقبلتها بحب وهي تقول: شكراً لك

يا أمي.. أتمنى أن أكون زوجة رائعة مثلك.

ردت جوهرة وهي تغالب دموعاً ملأت قلبها قبل عينيها: ستكونين أفضل مني، أنا واثقة من ذلك.. هيا حبيبتي، يجب أن تنزلي، لقد حان الوقت..

خفق قلب فضة: الآن؟

ضحكت جوهرة لارتباكها: عدد المدعوين لا يزيد عن الخمسين، إنها حفلة صغيرة كما أردت، فلم الخوف الآن؟

قالت برجاء: أمي، أرسلني ورد إلي، أحب أن تكون إلي جانبي في موقف كهذا.

أومأت جوهرة برأسها: حسناً، سأنزل لانتظارك بالأسفل، وسأرسل ورد لتكون معك..

خرجت جوهرة من الغرفة وبقيت فضة وحدها، وخلال فترة قصيرة صارت ورد أمامها، ابتسمت فضة لورد وهي تراها بثوبها البنفسجي الداكن وشعرها المرفوع فوق رأسها بأناقة، بدت جميلة جداً، بل باهرة الجمال، أحست فضة بعاطفة جارفة نحوها في تلك اللحظة وهمست لها بصدق: أتمنى أن تتزوجي بعدي مباشرة.

ضحكت ورد: تمني لي بأن أتزوج بمن أحب.. هذا هو الأهم..

ابتسمت فضة، فهي تعرف قصدها، وتعرف ذلك الذي تحبه ورد جيداً، لم يكن الأمر خافياً على أحد، همست فضة: أتمنى أن نفرح بكما أنتِ وأيوب قريباً جداً..

ردت ورد بحرارة: آمين! أتمنى ذلك من كل قلبي..

ضحكت الفتاتان وهما تخرجان من الغرفة، صدحت أغنية هب السعد متزامنة مع دخول فضة إلى القاعة، أحست بركبتها تصطكان ببعضهما البعض من شدة ارتباكها، لكن وجهها لحسن الحظ لم يعكس أياً من مشاعرها، فبدت متماسكة واثقة من نفسها.

لم تكن باهرة الجمال، لكن جمالها الهاديء المريح كان رائعاً، وشخصيتها

الطيبة الأسرة كانت الأروع..

جلست على الكوشة وأحاطت بها أمها وخالتها وأم زوجها وأخته أيضاً وهن تصفقهن على نغمات الأغنية، رقصت ورد أمامها مباشرة وهي تخطف أبصار المدعوات بجمالها ودلالها، أحست فضة وقتها كم تحب ورد، ودعت من كل قلبها أن تراها عروساً تزف في القريب العاجل لأخيها الذي تحبه كل الحب.. أيوب.

مرت الحفلة سريعاً بين رقص المدعوات ومباركاتهن للعروس، التقط الجميع صوراً مع فضة التي لم تفارقها ابتسامتها الرقيقة الهادئة طوال فترة جلوسها..

وأخيراً حان وقت دخول العريس، استعدت النساء لدخول الرجال، وزف وليد لفضة ووالدها بجواره وأخويها أيوب وشهاب خلفه مباشرة..

اقترب أحمد من ابنته، نظر إليها بثوب الزفاف فاجتاحه شعور غريب، أحس أنه لا يريد أن يمنحها لرجل آخر، أحس أنه خائف عليها أكثر من أي وقت مضى، تذكرها طفلة صغيرة هادئة تطيل الجلوس في حضنه، امتلاً قلبه حناناً عليها، قبلها وضمها طويلاً إلى صدره ولأول مرة في حياته لم يكن مهتماً بإخفاء حنانه، ففي مناسبة كهذه كان أباً، أباً حنوناً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى.

قبلت فضة رأسه ولأول مرة في هذه الليلة الجميلة أحست أنها على وشك البكاء، ولأن أيوب حساساً بطبعه، قرر التدخل بينهما، فشد فضة نحوه برفق وهو يمازحها: كفى، الآن دوري أنا..

قبلت فضة أباها على وجنتيه وقبل هو جبينها وهو يهمس لها: تبدين رائعة، ألف مبروك يا أختي الحبيبة..

ابتسمت له: شكراً يا أطيّب أخ في الدنيا..

اقترب شهاب من أخته وقبلها وقال ضاحكاً: ما كل هذا الجمال، لم أعرفك عندما رأيتك!

ضحكت فضة وربتت على خده وقالت: أتمنى أن أراك عريساً يا حبيبي..
 نزل أيوب من الكوشة بعد أن التقطت المصورة المحترفة بعض الصور
 العائلية، لمح حالته ماجدة فسلم عليها من بعيد في حين شدت هي شهاب إليها
 وقبلته وطلبت من المصورة التقاط صورة لها معه.

مشى أيوب ناحية باب القاعة وقبل أن يخرج سمعها تناديه: أيوب..
 التفت نحوها، إنها وردته الغالية، نظر إليها فبهر بجمالها وحسنها، لم يرها
 قط بهذا الجمال، خفق قلبه نحوها، تمنى لحظتها لو كانت هناك طرحة صغيرة
 على رأسها، ليتها تكون عروسه في يوم من الأيام.

شدته من ذراعه خارجاً، وقد أشارت للمصورة، فطلبت منها أن تلتقط لهما
 صورة معاً، ارتبك أيوب، فأصرت: هيا.. انظر للكاميرا وابتسم..

كانت المصورة مستعجلة فقد تركت مكانها بجوار العريسين إكراماً لخاطر
 ورد، وضعت ورد يدها على ذراع أيوب التي تغطيها الدشداشة، واقتربت منه
 وابتسمت أجمل ابتساماتها، أحس برائحة عطرها تخرق رئتيه، ورغم احمرار
 خديه بخجله بدا في غاية الوسامة بجوارها عندما التقطت المصورة صورة لهما
 أخيراً..

ذهبت المصورة مسرعة لتكمل عملها، التفت أيوب لورد وقال: لورأت أمني
 هذه الصورة سيكون الأمر محرراً!

ضحكت: لم تفكر دائماً في التفاصيل المقلقة؟ سأتصل بالمصورة بنفسي
 وأطلب منها أن تسلمني هذه الصورة شخصياً.. فما رأيك؟ أتريد نسخة لك
 أيضاً؟

ضحك أيوب، كان يريد الأصل لا النسخة، يريد لها هي، يريد لها أن تصبح
 ملكه، أن تصبح زوجته وأم أولاده، أن يبني معها أسرة سعيدة، أن يجتمع بها في
 بيت يخصهما وهدهما، سيكون هذا البيت جنته، لن يسعد في مكان آخر سواه،
 حيث تكون ورد معه، وله، ويكون هو معها ولها.

أحست ماجدة باختفاء ورد، تلفتت حولها لتبحث عنها، رجحت أنها لحقت

بأيوب، قامت من مكانها بعصبية وتوجهت إلى بهو الصلاة التي يقام فيها الحفل، وهناك وجدت ورد واقفة مع أيوب، وكل شيء فيها يضحك!

صرخت ماجدة: ورد!! ماذا تفعلين بالله عليك!!!

انتبهت ورد لوجود أمها، ردت: ما الأمر؟ أتكلم مع أيوب فقط!

جزت ماجدة بأسنانها على شفيتها واقتربت من ورد وشدتها من ذراعها بقسوة: ما هذا الاستهتار؟ ماذا سيقول الناس إن شاهدوك واقفة هكذا مع أيوب! هيا إلى الداخل أمامي..

وقبل أن تمضي بابنتها إلى الداخل تلقى أيوب من ورد نظرة حب دافئة، ومن أمها نظرة كره حارقة!

(41)

أب حنون

لم يخمن أيوب أبداً أن جوهرة قد اطلعت على صندوقه الخاص، ولم يتخيل أبداً أنها قرأت رسائله إلى أمه الحقيقية!
لاحظ نظرة الحزن في عينيها كلما تطلعت إلى عينيهِ، لكنه لم يتوقع أبداً سبب تلك النظرة الجديدة في عينيها.

قضى تلك الليلة الطويلة وهو يفكر في فضة التي تركت المنزل إلى منزل زوجها، كان سعيداً من أجلها، لكنه في نفس الوقت حزيناً لفراقها ككل من في البيت..

عليها أن تبدأ حياتها الخاصة، ففتاة مثلها ستكون خير زوجة وأروع أم.. لا فائدة من بقائها في منزل أهلها، من الجميل أن تحظى فتاة مثل فضة بمنزلها الخاص.. أحس كم سيفتقد وجودها في البيت، وأحس كم يحبها ويتمنى لها السعادة.

ابتسم لنفسه وهو يتذكر ورد وصورته معها، ترى كيف سيدوان في هذه الصورة؟ من الجميل حقاً أن يكون لديه صورة تجمعه بها، سيطلب من وردته أن تعطيه نسخة منها، يريد حقاً أن يحظى بصورة لهما معاً، سيخفيها بصندوق أسرارهِ، وسيحافظ عليها مدى حياته حتى وإن حرم من ورد ستكون هذه الصورة أجمل ذكرى بينه وبينها..

خفق قلبه، فهو يعرف أنه محروم منها لا محالة، لا بد أن ماجدة ستسعى لتزويجها من رجل غيره، يعرف هو ذلك ويحاول التهيأ له، يتمنى لو تحصل معجزة ما، فيجد أهله ويعرف أنهم لم يتخلوا عنه وأنه ابن عائلة كبيرة وأنه قد خُطف منهم و..

قطع خيالاته بحزن، يعرف أنه يحلم، وأن الواقع المر منتصب أمامه بلا رحمة، عليه أن يقبل بواقعه الأليم وأن يهياً نفسه لفراق من يحب في أية لحظة. تحاول ورد إقناعه بأنها لن تتخلى عنه، لكنه يعرف في قرارة نفسه أنها لن تكون له، يحزنه ما يعرفه، ويؤلمه أكثر أن يكون عاجزاً عن إيقافها عن حبه وعاجزاً عن الابتعاد عنها إلى هذا الحد، إنه ضعيف أمامها، يحبها كثيراً، يعجز عن وصف حبه لها، ويعجز عن احتمال ألم تفكيره بأنها ستؤخذ منه رغماً عنها وعنه..

لا تعترف ورد بالهزيمة، تصر على أنهما لبعضهما، يخاف عليها من قسوة الواقع فهو يعرف ماجدة جيداً، لا يزال يشعر بالرهبة كلما تذكر نظرتها الأخيرة إليه، يعرف أنها لو كانت تستطيع لسلبته روحه، ما كانت لتتردد للحظة واحدة بأن تفعل، يرى كرهها له في كل لفظة منها تجاهه، إنها تناصبه العدا، وامرأة مثلها لن تزوجه أبداً بابتها الوحيدة.

أحس أيوب بأن خواطره ستخنقه فقام من سريره وقد فاض به الضيق، اقترب من النافذة ليفتحها عله يستنشق بعض الهواء النقي وكان أفكاره قد سممت هواء غرفته.

أطل أيوب بالصدفة من نافذة المنزل فتعجب وهو يلمح والده أحمد يقف بجوار الرصيف الخارجي وحده، كان يقف بجوار سيارة فضة المركونة بجوار الرصيف تحت المظلة الصغيرة الملحقة بالبيت.

تعجب من وجود أبيه في الخارج في هذا الوقت!
حاول التحديق به فلم يستطع رؤية ملامحه فأحمد كان يوليه ظهره.
أحس أيوب بالقلق عليه فقرر استطلاع أمره، فالتقط حذاءه وارتداه على عجل دون أن يبدل ملابس نومه.

نزل من غرفته بهدوء، كانت الساعة تقترب من الرابعة فجراً، فتح باب المنزل وخرج، لمح والده وقد أعطاه ظهره كما كان، اقترب منه بهدوء وكى لا يفزعه بوجوده المفاجيء تنحنح قليلاً قبل أن يناديه: أبي.. ما الأمر؟ لم أنت واقف هنا

في الخارج؟

لوهلة لم يرد أحمد فأحس أيوب بالخوف عليه، تساءل عن ما أصابه، اقترب منه بحذر وقال وهو يربت على كتفه: أبي.. ما الأمر؟
التفت أحمد نحوه أخيراً فشهق أيوب، كان وجه أحمد غارقاً بدموعه، جزع أيوب: مابك يا أبي؟ أحصل مكروه ما؟
هز أحمد رأسه وهو يقول: لا، لكنها المرة الأولى التي تنام فيها ابنتي خارج البيت.

ابتسم له أيوب بحنان وقال: هي الآن في بيتها، مع زوجها..
هز أحمد رأسه وهو يقول من بين دموعه: لقد خرجت من ذمتي الآن وصارت في ذمة رجل آخر، وذلك يؤلمني..
صمت أيوب، وقد أحس أن الكلمات قد صارت عاجزة عن مواساة أبيه، استطاع الإحساس بما يعتمل بصدره، إنه يشبهه رغم أنه ليس من صلبه، ففي قلب كل منهما ينبوع حنان لا يجف وعاطفة جارفة لا شبيه لدفتها.
همس أحمد وهو ينظر نحو السماء مناجياً:
كم أحبك يا فضة، وكم أتمنى أن يعرف ذلك الرجل الآخر قيمتك يا ابنتي...

(42)

غيرة

جلست ورد غاضبة أمام ياسمين في أحد المقاهي ، كانت منفعلة جداً وفي غاية الاستياء وهي تقول: تظنني بلا رأي وبلا شخصية، تخبرني ببساطة بأن استعد لأن أم ضاري ستأتي اليوم لرؤيتي!! لا يهمها رفضي له ولا حبي لغيره، لا يهمها إلا أن أتزوج على هواها وكأنها هي من ستتزوج لا أنا!!!

كانت ياسمين صامته وهي تنظر لورد التي صبغ الانفعال خديها بحمرة طبيعية فبدت منصهرة الوجه فائقة الجمال في تلك اللحظة، أحست ياسمين بالغيرة تحرق قلبها منها، فضاري الذي أحبته بشدة متم بهذه الورد، بل وأمه اليوم ستأتي لتخطبها له وهي ترفضه بل لا تعرف قيمته ولا تريده!! أي حظ هذا!!!

تمنت لو كانت هي الآن مكانها، لكانت أسعد فتاة في العالم، لكانت الآن تتزين من أجل استقبال أم، الرجل الذي تحب، ما هذه الفظاعة!!! لم يحصل الآخرون على ما نريده نحن ببساطة حتى وإن كانوا لا يرغبون به!! أي عدل هذا أيتها الدنيا!!!

زفرت ورد وهي غافلة عما يعتمل في صدر صديقتها: ما العمل؟ ما رأيك يا ياسمين؟

انتبهت ياسمين إليها أخيراً وقالت وهي تحاول أن تتنفس: لا خيار لك، أمه ستأتي اليوم، ومن المحرج أن تضعي أمك في موقف كهذا، عليك مقابلة أم ضاري على الأقل!

كادت ورد أن تصرخ: لم أقابلها أصلاً وأنا لا أريد ولدها؟

زفرت ياسمين قائلة: ورد، تعرفين عناد أمك، لقد اتفقت مع المرأة على

حضورها اليوم، لن تنفع الآن أي مناقشة معها.

قالت بحدة: تريد وضعي أمام الأمر الواقع، أنا أرفض هذا الأسلوب، أنا.. قاطعتها ياسمين وهي تقف: علي أن أذهب، لدي موعد مهم كنت قد نسيتته! تعجبت ورد: وأنا؟ ماذا عني أنا؟ ماذا أفعل؟

نظرت إليها ياسمين بحقد خفي وقالت: أتريدني مني أن أخبر ضاري أنك تحبين ابن خالتك؟ لا أظن أنه سيقبل بالزواج بك إن عرف أنك مرتبطة برجل آخر.. ما رأيك؟

لمعت عيني ورد وهي تقول: نعم، أخبريه، اطلبي منه أن يتعد عن طريقي وأن يطلب من أمه أن تعتذر عن الحضور.. أنا لا أريده، أخبريه بوضوح أرجوك، لا أريده!

هزت ياسمين رأسها بتفهم وتركت ورد وخرجت من المقهى وهي تكاد تجري، ركبت سيارتها على عجل وبمجرد أن أدارت المحرك انهمرت دموعها سيولاً على خديها..

كانت منقبضة الصدر، حزينة لما يحصل، معقول! أن تكون وسيطة بين صديقتها الوحيدة وبين الرجل الوحيد الذي خفق له قلبها! ماذا عن زوجها خالد؟ إنه ابن خالها، ابن خالها فقط ولن يكون غير ذلك، كانت غاضبة لأنها تزوجته، غاضبة حتى من أمها التي رسمت لها طريق حياتها، غاضبة من نفسها لأنها كانت دائماً مجرد تابعة لأمها في كل ما تريده، لقد ألغت أمها شخصيتها، لكن غيرتها من ورد على ضاري غيرتها وفجرت في قلبها قوى التمرد والثورة على هذا الخنوع المؤلم.

قادت سيارتها على غير هدى حتى هدأت قليلاً، التقطت هاتفها النقال واتصلت بضاري، لن تتركه يتزوج من ورد، ستعمل على ذلك، ليس من أجل ورد، بل من أجلها هي، لا تريده أن يتزوج منها! لن تسمح لورد أن تنتصر عليها!!

اتصلت به وهي تشعر بروح جديدة، وكأنها تقدم على مغامرة ما، قالت له:



سمعت أن أمك اليوم ستذهب لرؤية ورد، صحيح؟
 قال لها بصوت مرح: صحيح.. لا تعرفين كم أنا سعيد اليوم.
 قالت له بمكر: أكره أن أفسد عليك سعادتك، لكنني أقوم بما طلبته مني ورد
 شخصياً، لذا أنا مضطرة لإخبارك بأمر ما.
 سألتها بفضول: ماذا تقصدين؟

قالت: الأمر متعلق بورد ومشاعرها الخاصة، بصراحة طلبت مني أن أخبرك
 أنها متيمة بابن خالتها وبأنها لن تتزوج من غيره، هي تطلب منك أن تنسحب
 وأن تطلب من أمك بطريقتك الخاصة العدول عن الحضور اليوم.
 صمت ضاري، كانت تلك المعلومة مربكة جداً بالنسبة له، فمن ناحية قلبه
 متيم بالفتاة ويتمنى فعلا الزواج منها، ومن ناحية أخرى كرامته التي صارت تن
 بسبب معرفته بأن فتاته تحب غيره ولا تريد الزواج منه!
 احترمت ياسمين صمته لبرهة ثم قالت: ما الأمر؟ لم أنت صامت هكذا؟
 ماذا ستفعل؟

سألها: ما رأيك أنت؟

قالت بحماس: عليك أن تنسحب بالتأكيد.. أين ذهبت كرامتك؟
 عرفت أنها لمست وترأ حساساً بكلماتها تلك، فهي تعرفه جيداً، قال لها:
 أحتاج بعض الوقت للتفكير وحدي، أخبرني ورد أن رسالتها قد وصلت..
 شكراً لك!

أنهى ضاري المكالمة فوراً فشعرت ياسمين بانتصار لا حدود له، ضحكت
 وهي تصل للبيت بعد يوم متعب وشاق عليها، صعدت الدرج بنفسية رائعة
 رائقة، بدلت ملابسها وتناولت غداءها مع خالد وكانت لطيفة جداً معه أكثر
 من المعتاد.

خلدت للنوم بعد الغداء وقامت بعد المغرب، التقطت هاتفها لتتبع أخبار
 ورد، فأرسلت لها: لقد أوصلت لضاري رسالتك.. ما الذي تفعلينه الآن؟
 انتظرت وهي تبسم، لكن ابتسامتها تحطمت تماماً عندما قرأت رد ورد



عليها: أنا أستعد الآن لمقابلة أمه، فهي لم تعتذر!

تغيرت ملامح ياسمين، ورمت بالهاتف بعنف على الأرض وانهارت باكية
في سريرها وهي تدفن رأسها في مخدتها!

(43)

حب متعب

كان شهاب يسير بجوار عذارى حائراً، يعرف أنه يحبها، لكن في حبه لها خيط من الندم وكأنه يندب حظه أنه أحب فتاة لها ماضٍ!
 كان يتخيل أنه عندما سيقع في الحب سيختار فتاة لم يخفق قلبها أبداً لسواه، كان مغروراً بنفسه معتزلاً بعدد الفتيات اللاتي مررن في حياته، لكنه لم يحسب أبداً حساباً لقلبه، لم يتوقع أنه سيقع في الحب رغماً عنه، ظن أن الحب سيستأذنه أولاً، وسيكون له الخيار دائماً بأن يختار الفتاة التي يحبها وأن تكون بالمواسفات التي يريدتها، لكن الحب سلبه جميع حقوقه، اقتحم قلبه بلا استئذان ولم يترك له أي خيار سوى أن يجد نفسه مسلوب الإرادة أمام فتاة ما كان عقله ليختارها أبداً لو كان القرار له!

كانت عذارى تحس بصراعه مع نفسه، تعرف أنه متردد بالارتباط بها، ومع هذا كانت مطمئنة، فهو لن يتركها، ترى حبه لها جلياً في عينيه، إنه واقع في هواها وهي لن تضيعه من بين يديها..

قالت ضاحكة فجأة: أتعرف.. عندما تصمت هكذا أشعر أننا زوجين مر على زواجهما أعوام كثيرة ولم يعد هناك ما يقولانه لبعضهما البعض!
 نظر إليها، أتراها تلمح له بالزواج؟ لا بد أنها لم تقصد هذا المعنى..
 كان وجهها جميلاً مستديراً، وشعرها يتأرجح خلف ظهرها بحرية، أحب طلتها وملابسها ورائحة عطرها القوي، كانت تعجبه في كل ما يخصها، ما عدا ماضيها!

سألته عليها تبدد سحابة الكدر التي تظلل ملامحه: كيف حال عملك؟
 قال بمثل: على حاله، أكره الالتزام بالدوام ومواعيده، أحب أن يكون لي

عملي الخاص .

قالت: أنا أيضاً لا أحب عملي، لكنني ملتزمة فيه .

قال لها: أتعرفين، عندما أتزوج، لا أحب أن تعمل زوجتي .

ضحكت: هذا إن التزمت بدوامك وحصلت على راتبك كاملاً لتصرف عليها .

ضحك معها وهو يقول: معك حق!

نظر إليها وسألها: أتحيين أن تتركي عملك إذا طلب منك زوج المستقبل ذلك؟

ابتسمت بسعادة وهي ترد: ولم لا؟ إن كان قادراً على إعالتني، أحب طبعاً أن أفقرغ له .

أعجبه ردها، وأعجبه أكثر أن يتخيلها في بيته، تنتظره عندما يعود من العمل بعينها الواسعتين وابتسامتها الجميلة، سيكون أسعد رجل على وجه الأرض إن تحقق ذلك!

لكن ماذا عن الرجل الآخر؟ لم تطلقها!!

تمنى أن يسألها ويطلب منها أن يعرف السبب بوضوح، لكن بأي حق يفعل؟ أيخبرها أنه يريد أن يعرف لأن إجابتها ستجعله يقرر إن كان سيتزوجها أم لا؟ ماذا إن كذبت عليه ولم تخبره بالحقيقة؟ أو ماذا لو رفضت أن تجيبه وأصرت على إخفاء سر طلاقها عنه؟ لكن من حقه أن يعرف الحقيقة منها، حتى لو كانت هذه الحقيقة جارحة مؤلمة كما يفترض!

في الفترة الأخيرة تغير شهاب كثيراً، لم يعد ذلك الشاب المرح المزعج، صار أكثر هدوءاً فقد كان مشغول البال بعداري، فهو إما يفكر بها أو ينتظر اتصالها به أو يستعد لموعده معها في الممشى، لقد صارت هذه الفتاة الصغيرة محور حياته.. صار يحب العزلة، ويقضي أغلب وقته وحده، لم يعد يناكف أيوب ولم يعد يجالس أمه وأبيه كما في السابق، كان تائهاً في عالمه، عالم الحب الذي أتعبه، فقد كان حبه لهذه الفتاة حباً متعباً، يسرق النوم من عينيه، والراحة من قلبه..

(44)

حياة جديدة

بدأت فضة جميلة بثوبها المنزلي الزاهي وشعرها المصفف بعناية والمبخر المذهب الذي تحمله بين يديها، كان وليد يرتدي ملابسه ليخرج للمكتب، بدا وسيماً جداً بقامته الطويلة ووجهه الحليق، وقفت فضة وراءه وهي تنظر إليه بسعادة، فوجوده أمام ناظريها يملأ قلبها اللطيف بسعادة لا توصف.

التفت لها لتبخره، نظر إليها بحنان، تلقت هي نظرتة بوله، فهي تشتاق له حتى وهي في حضرته، ربت على شعرها برقة وهمس لها: لن أتأخر على العشاء.. ضحكت بخجل: جيد، سأكون في انتظارك..

قبل جبينها قبل أن يخرج فودعته بدعوة صادقة: ليحفظك الله حبيبي.. خرج من الغرفة فتنهدت، تركت المبخر على الطاولة وفتحت باب غرفتها لتفوح رائحة الطيب القوية خارجها، جلست أمام مرآتها تتأمل وجهها وتفكر.. كانت سعيدة في زواجها، فالشهرين اللذين قضتهما في بيت زوجها كانا أجمل شهرين مرا في حياتها، كان وليد طيباً معها، حنوناً عليها، يدللها ويرعاها كأنها طفلة لا زوجته، أحبته أكثر بعد الزواج، أحست كم هي محظوظة به، لم تكن تتخيل أنها ستتزوج برجل رائع مثله، إنها تحبه، لا، إنها تعشقه، وهي محظوظة لأنها تزوجت من رجل تعشقه.

كانت أمه طيبة معها، سعيدة بها، وبالمقابل عاملتها فضة كما تعامل أمها تماماً، لم تبخل عليها قط بوقتها بل على العكس، كانت تحب مجالستها وتستمع بصبر لنصائحها وتتقبل منها أي ملاحظة قد توجهها لها، أرادت أن تكسب أمه من أجله، فهو وحيد أمه وبما أنهما يعيشان معها فمن الأفضل أن تكون علاقتها بها جيدة مستقرة.

كانت أخته جنان تأتي للغداء معهم أسبوعياً مع زوجها، ولاحظت فضة أن جنان متعلقة جداً بزوجها في حين يعاملها هو ببعض التعالي، هناك أمر لم يكن يعجبها بطريقة تعامله معها، وكأنه يستكثر عليها أن تكون زوجته!

لم تعلق فضة قط على هذا الأمر أمام أي أحد ولا حتى أمام وليد، لم تكن من النوع الذي يتدخل في خصوصيات الغير، فهي تعرف حدودها جيداً وتكره أن تتعدها.

كانت تشتاق لمنزلها ولأمها وأبيها وتحرص على تناول العشاء عندهم في البيت مرتين في الاسبوع سواء ذهب معها وليد أم لا، فهي تحرص على زيارة أهلها ووصلهم فمن لا خير له في أهله لا خير له في أحد.

كانت تلمح شوق أبيها لها بحزن، ذلك الشوق الذي يحاول إخفاؤه أمامها فتحزن من أجله لكنها تعرف أن هذه هي سنة الحياة، فالبنت عندما تتزوج يصبح لها بيتها الخاص وتصبح مجرد ضيفة في منزل أهلها، هكذا كانت فضة تفكر، لقد صار لها بيتاً ورجلاً، وأي مكان لا يتواجد فيه رجلها لم يعد بيتها ولن تكون سوى ضيفة فيه.

ارتبطت فضة بوليد بشدة، فحبها الكبير له جعلها تشعر أن وجودها صار مرتبط بوجوده، كانت زوجة جديدة فرحة، تعيش لحظاتها الجميلة بوله وتوق.

فتاة السابعة والعشرين صارت زوجة سعيدة محبة، والحب يمنح للقلب سعادة لا يمكن وصفها ولا يمكن لغيره أن يمنحها.

سمعت فضة صوت الخادمة وهي تخبرها أن أم زوجها تطلب منها النزول لمجالستها، قامت فضة مبتسمة ونزلت الدرج واتجهت إلى الصالة حيث تجلس أم زوجها.

ابتسمت لها خالتها وهي ترى أنافتها وتألّق وجهها وقالت: تعالي يا ابنتي، اجلسي معي فأنا وحدي.

ردت فضة بركة: حاضر.

جلست فضة وأخذت خالتها تثرثر عن الخدم ومشاكلهم التي لا تنتهي وعن

تبذيرهم في استخدام مؤونة البيت، استمعت لها فضة بصبر وتعاطف فخالتها مختلفة عن أمها وتكبرها عمراً، كما أنها أكثر بخلاً مع الخدم حيث تحرص على إقبال الثلاجة بمفتاح خاص، وتحرص على غرفة المؤونة وتعد ما فيها مراراً وتكراراً كل يوم.

فكرت فضة في أمها التي لا تهتم أبداً بما يأكله الخدم وتردد دائماً بأنهم فقراء وليأكلوا ما يريدون من بيوتنا الخيرة.

لم تعرف فضة أي منهما على حق، أهى خالتها المتقشفة التي تصر على المحافظة على موارد بيتها، أم أمها التي ترى أن للخدم الحرية فيما يفعلونه في المطبخ!

(45)

شهرين

كانت ورد تجلس مع أيوب في حديقة منزل جوهرة، بدت ورد منزعة فقد مر شهرين كاملين على خصامها مع أمها منذ يوم حضور والدتها ضاري لتخطبها. قال أيوب: لقد طالت المدة، عليك التحدث معها، لا يجوز أن تتخاصمي مع أمك كل هذه المدة.

قالت ورد بقلق: هي التي ترفض محادثتي، ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أروض لها؟

ضحك أيوب: لا أصدق أنك فعلت كل ذلك من أجلي!

ضحكت لضحكته: طبعاً تضحك، فأنت لا تعرف من أنت بالنسبة لي!

ففي يوم حضور والدتها ضاري لرؤية ورد خطرت لها فكرة جهنمية قبل نزولها للتعرف عليها بدقائق، لقد ادعت المرض، أخذت تصرخ وهي تدعي أنها تعاني ألماً في معدتها؛ صدقتها أمها، فقد أجادت التمثيل أمامها وأمام أم ضاري، جزعت أمها عليها واتصلت بالاسعاف وخافت أم ضاري عليها، نقلوها إلى المستشفى بعد أن رحلت أم ضاري على الفور.

أخبر الطبيب أمها أنها لا تعاني من شيء البتة، عرفت أمها أنها تمارضت لتفسد الأمسية ولتنهي لقاءً لم يبدأ بعد.

حاولت ورد أن تبقى بالمستشفى ولو لليلة واحدة لكن الطبيب أصر على أنها في أتم الصحة والعافية فعادت مع أمها إلى البيت صامتة ومنذ تلك الليلة لم تعد ماجدة تحادثها.

عرفت ورد من خالتها جوهرة أن والدتها ضاري اتصلت بأمرها في اليوم التالي لتطمئن عليها، أخبرتها أمها أنها بخير ووعدها باتصال في وقت لاحق لترتيب

لقاء آخر يجمع بينها وبين كنتها المنتظرة.

أما ضاري فلا يزال على حاله كما أخبرتها ياسمين، بل أنه أصبح أسوأ حالاً، فولعه بورد قد زاد، خاصة عندما ضاع منه حلمه بارتباطه بها بعد ما حدث في ذلك اليوم، ورغم أنه ألح كثيراً على أمه لتتصل بأم ورد ثانية لتحدد معها موعداً آخرًا، إلا أن أمه رفضت، فالأصول أن تنتظر اتصالاً من ماجدة كما وعدتها، لا أن تلاحقها كما يفعل ضاري مع ورد!

نظر أيوب إليها، كانت تبدو أكثر نحافة عن ما سبق، فخصام أمها لها يعذبها، فمهما حصل تظل ماجدة أمها، ولا أحد لها غيرها، فهي ابنتها الوحيدة ورغم اختلافهما معاً بسبب أيوب إلا أنهما تحبان بعضهما حباً جماً.

كانت ورد تعاني وتتألم فعلاً بسبب غضب أمها منها، وكانت تشتاق إلى الحديث معها، وكونهما تعيشان معاً وحدهما صار جو المنزل كثيباً جداً بسبب هذا الخصام الذي تأبى ماجدة إنهاؤه بسهولة.

حاولت جوهرة التحدث مع أختها في الأمر، طلبت منها التريث فيما يخص زواج ورد، فالفاتة حديثة التخرج، ولا داعي للاستعجال في هذا الموضوع، لكن ماجدة تعرف بم تفكر ابنتها، وترى أن تزويجها هو الحل الوحيد لإبعادها عن ما تفكر فيه إبعاداً نهائياً!

أحس أيوب بالذنب، فمعاناة حبيبته كلها بسببه، ليته لم يكن موجوداً كي لا تتعذب، ليته لم يُخلق قط، حتى هو ما كان ليتعذب لو أنه لم يُخلق! خرجت جوهرة من المنزل وهي تحمل صينية الشاي، كان الجو حاراً، لكن ورد وأيوب لم يكونا مباليين بحرارة الجو.

وقف أيوب ليحمل الصينية عنها، جلست جوهرة بجوار ورد، وقدمت لها الشاي، ارتشفت ورد بعضه فأحست به يسري في أوصالها، لم تأكل شيئاً قط في ذلك اليوم، لقد نسيت أن تفعل ولم يعد هناك من يهتم بأكلها وغذائها منذ خاصمتها أمها.

قالت جوهرة: لقد آن الأوان لهذا الخصام السخيف أن ينتهي، غداً سأذهب

لما جدة وأنهى الموضوع.

قالت ورد بحزن: أختك عنيدة جداً، لم أعرف في حياتي أحداً في مثل عنادها.

ضحكت جوهرة: أنا أعرف.

سألت ورد: من؟

ضحكت ثانية: أنتِ!

ضحك أيوب: أنفق معك!

ضحكت ورد معهما، كانت تعرف أنها عنيدة، لطالما كانت كذلك، نظرت إلى العشب الطري في حديقة خالتها الصغيرة، شتان بين حديقة منزلها وحديقة منزل خالتها، خطر لها أمراً فقامت فجأة من مكانها، خطت نحو العشب الطري وخلعت حذاءها كما كانت تفعل في صغرها، بعد عدة خطوات وقفت منتشية بذلك الشعور الجميل الذي شعرت به عند التصاق قدميها الناعمتين بالعشب الندي.

كان أيوب يراقبها بحب، وجوهرة تراقبه بحسرة، كانت تشعر بذبذبات حبه لها وحبها له وتتألم بصدق من أجلهما، فمن ناحية كان أيوب ولدها كما تعتبر ورد ابنتها ومن ناحية أخرى كانت هناك ماجدة التي وقفت لحظتها على باب منزل أختها وهي ترمق ابنتها الحافية والتي تقف على العشب كحمقاء... بغضب!

(46)

صلح

لم تصدق ورد أن خالتها جوهرة استطاعت أخيراً أن تذيب ذلك الجليد بينها وبين أمها.

لقد تصالحت مع أمها أخيراً تلك الليلة في منزل خالتها بعد أن اعتذرت منها وقبلت رأسها أمام الجميع.

كانت ورد مشتاقة لها، وكذلك كانت ماجدة أيضاً، فكل يوم قضته ماجدة في خصام مع ابنتها كان كالجحيم بالنسبة إليها، لكنه ذلك العناد الذي يفرق الأحبة، وذلك الكبرياء الكاذب الذي يمنع الصلح من الحصول.

استلقت ورد في سرير أمها وقد قررت قضاء تلك الليلة في أحضانها، نامت على الفور بمجرد أن وضعت رأسها على وسادة أمها واستشعرت أصابعها التي كانت تمسدها شعرها بحنان..

نامت ورد فبكت ماجدة بصمت، كانت تتعذب من أجل ابنتها، تريدها سعيدة وبنفس الوقت تعرف أنها لا تستطيع الموافقة على اختيارها لشريك حياتها.

فكرت.. إن ضاري المحمودي فرصة قد لا تتكرر، فهو أفضل عريس تقدم لابنتها، ستكون ورد محظوظة إن تزوجت به، من الجميل حقاً أن يحمل أحفادها اسم عائلة المحمودي العريق وأن يرفلوا بالثراء والنعيم والنسب الحسن.

ستكون ورد سيدة مجتمع حقيقية وستحظى دائماً باحترام عظيم أينما حلت بسبب اقترانها بضاري، ستعرف حياة حقيقية مرفهة وستمتلأ حياتها بعلاقات اجتماعية مشرفة، ما الذي ستجنيه من ارتباطها بأيوب غير العار وقلة القيمة؟ إنه رجل لا أهل له، رجل بلا حسب ونسب، سيخفت وهج هذا الحب بعد الزواج وستلومها ورد يوماً ما لأنها سمحت لها بالزواج والانجاب من رجل نكرة لن

يشرفها أبداً ارتباطها به أمام المجتمع، سيلومها أحفادها أيضاً لأنها سمحت لهذا الزواج الكارثة بالحدوث، لذا عليها أن تكون قوية وأن تحمي ابنتها الغريرة من عواقب لا يمكنها تحملها مستقبلاً.

لمست رأس ابنتها بحنان، ليتها تستطيع برمجة هذا الرأس وإلغاء أيوب منه، راقبت أنفاسها المنتظمة أثناء نومها فتنهدت، عليها أن تنقذها من مصير قد يدمرها، عليها أن تنقذها من أيوب، لا يجب عليها أن تضعف أو تستسلم أمام جهل ابنتها وعنادها!

تمنت ماجدة لو أن والد ورد كان رجلاً سوياً، لو أنه لم يكن مدمناً، لكان الآن موجوداً معها ليحمي ابنته ويدعمها، إن الحمل عليها كبير، والعبء على كاهلها ثقيل، عليها أن تنقذ ابنتها من أيوب، وأن تؤمن لها زيجة سعيدة مريحة بعيدة عن العقد والمشاكل.

تريد أن تطمئن على وحيدتها، تريد أن تراها عروساً لضاري المحمودي، ستتزوجين من ضاري المحمودي يا حبيبتي أياً كان الثمن، هكذا قطعت ماجدة ذلك الوعد لورد وهي نائمة على مخدتها، غافلة عن ما يدور في فكر أمها.

(47)

مصارحة

كان ذلك اللقاء بين شهاب وغازي مختلفاً، فهو أول لقاء لهما بعيداً عن الممشى، حصل ذلك اللقاء في أحد المطاعم الفاخرة في أحد الفنادق المعروفة في الكويت.

بدأت غازي متألفة بثوب أسود ضيق وحذاء ذو كعب عال طويل، لقد خاف شهاب عليها من الوقوع عندما رآها تمشي نحوه وهي تبتسم، لا بد أنها رجحت سبب هذا اللقاء، فهي فتاة ذكية بل داهية! فكر شهاب وهي تقترب وتجلس أمامه بكامل أناقتها.

تحدثا قليلاً ثم طلبا طعام العشاء، كانت متحفزة وكان هو متوتراً، نظرت إليه بانتظار كلماته القادمة وعرف هو أن عليه أن يكون صريحاً معها.

نطق أخيراً: غازي، تعرفين أنني أحبك، لا مجال لإنكار ذلك بعد كل هذه الفترة التي عرفتكم فيها، أعتقد أنك تعرفين ذلك.

غرد قلبها في صدرها، لقد أحبته هي أيضاً، لم يعد شعورها نحو مجرد شعور لرجل تريد اصطياده للزواج منها لا، إنها تحبه، تحب كل شيء فيه ومجرد تفكيرها بأنه سيتقدم للزواج منها كان يسعدها ويثير دقات قلبها.

ابتسمت له: شعورك نحوي كشعوري نحوك، شهاب أنت أيضاً تعني لي الكثير. أسعده اعترافها هذا من الصميم، لكن بقي الحديث الأهم، ذلك الحديث الذي يقض مضجعه ويشعره بعدم الارتياح نحوها.

سألها أخيراً: أريد أن أعرف سبب طلاقك السابق. تغيرت ملامحها، وهربت من نظراته المتفحصة، زفر وكأنه ينفض عن قلبه غبار الألم، قال بإصرار: من حقي أن أعرف سرّك، لا أريد أن نستمر معاً ويبقى ذلك السرّ

بيننا، أريد أن تخبريني كل شيء عن ماضيك، ما السبب الذي جعل عبدالله يتركك بعد كل تلك السنوات وينهي زواجكما بهذه السرعة رغم الحب الذي جمعكما معاً؟

قالت بحزن: لم لا تترك الماضي في الماضي؟ نحن هنا الآن.. في هذه اللحظة لا وجود لعبدالله ولا لغيره في حياتي، في هذه اللحظة لا يوجد سواك أنت يا شهاب.. أنت وحدك فقط، صدقني.

قال بإصرار أكبر: أعرف ذلك، وإلا ما كنت أخبرتك بحبي، عذاري، أريد أن أتقدم للزواج منك وأنا مرتاح.

نظرت إليه: ماذا لو كان ما ستعرفه لن يريحك؟

نظر إليها: قلت أنه ماضي!

قالت: والماضي لا يتغير!

زفر ثانية: عذاري، لن أستطيع الزواج بك إلا بعد أن تصارحيني بكل شيء وإلا اضطررت لإنهاء علاقتي بك والانسحاب على الفور!

نظرت إليه، لقد وجدته بعد عناء، بعد انكسار دام طويلاً، أحقاً من حقه أن يعرف ماضيها؟ أيمكنه التصالح مع أحداثٍ انتهت بعد أن دفعت ثمنها من صحتها وأعصابها وأيام عمرها؟

كان التصميم بادٍ على وجهه، وكان الضعف بادياً على وجهها، عليها الاعتراف له بذلك الجزء المستتر من قصتها مع عبدالله، ذلك الجزء الذي تخجل منه وتعذبها ذكره كلما اقتحمت رأسها، عليها أن تكشف له عن الحقيقة التي رفضت البوح بها لأحد ورفض عبدالله أيضاً أن يبوح بها إكراماً لسنوات حبهما الطويلة، فرغم كل شيء كان فعلاً يحبها في يوم من الأيام، تعرف ذلك جيداً!

قررت البوح فقالت: أحببت عبدالله كثيراً كما أخبرتك سابقاً، لسنوات كنت معه، وكان هو عالمي، قبل زواجنا بعام واحد حصل بيننا خلاف كبير، اتصلت بأحد أصدقائه لأوسطه بيننا، فلم أكن أطيق بعده عني بعد أن استفدنا كل سبل الإصلاح. صمتت قليلاً، كانت كلماتها تؤلمه، يكره أن يفكر أن غيره قد امتلك قلبها، لكنه

كان عاجزاً عن تغيير هذه الحقيقة.

أردفت: كان ذلك الصديق يعرفنا من المدرسة، كان شاباً ذو شعبية كبيرة، محبوب من الجميع، لطيف المعشر، حلو الحديث، ودون أن أنتبه وجدت نفسي أحادثه حتى بعد انتهاء مشكلتي مع عبدالله!

تعجب شهاب: لم أفهم قصدك؟

زفرت هي هذه المرة: شهاب، لقد خنت عبدالله، تعرفت على صديقه، وحادثة لفترة، لم يحدث بيننا شيء سوى تلك المحادثات لكن الشاب وقع بحبي بجنون وصار يطاردني بعد أن قررت قطع علاقتي به لأن عبدالله تقدم للزواج مني رسمياً. صمت شهاب، كانت مشاعره متضاربة، لا يعرف حقاً يرثي لحال عبدالله الذي يكرهه أم يرثي لحال نفسه لأنه في مكانه الآن!

أكملت عذاري: كانت تلك العلاقة غلطة عمري، تقدم لي عبدالله وتجاهلت جميع اتصالات صديقه وتهديداته، لم آخذه على محمل الجد أبداً، لم أتوقع أنه جاد في نواياه بإيدائي، استمرت تجهيزات الزواج وأنا مغرورة بنفسي سعيدة بتهافت شابين رائعين على قلبي، كنت أظن أن زواجي سيردع الآخر ويبعده تلقائياً عني، لكنه أرسل صوراً لجميع محادثاتنا لعبدالله في ليلة عرسنا، لقد انتقم مني، حقق وعيده، وسرق مني فرحتي في ليلة عمري.

خفق قلب شهاب بشدة، كان يضع نفسه مكان عبدالله في تلك اللحظات، فيغمض عينيه ألماً وهو يتخيل ما أحس به ذلك المسكين!

قالت عذاري: جن عبدالله بما رأى، هجرني ليلتها ولم يلمسني، تحولت ليلة زفافنا إلى ليلة مرعبة حزينة، بكيت طويلاً عند قدميه، أخبرته أنها مجرد غلطة، وأنه هو فقط من يملك قلبي، لم يستطع عبدالله تحمل خيانتني له، سافرنا في اليوم التالي لشهر العسل، لم يقترب مني عبدالله أبداً وكانت تلك الرحلة أتعس رحلة في حياتي كلها، حاول أن يتغلب على ما بدر مني، حاول أن يتخطى خيانتني له فلم يقدر، وعندما عدنا قرر أن يطلقني على الفور بعد أن وعدني بأنه لن يخبر أحداً أبداً عن سبب طلاقنا.

طلقني عبدالله، وعدت إلى بيتنا مخذولة، أحمل لقب مطلقة بعد شهر واحد فقط من زواجي، لاكت الألسن سيرتي، وكاد الاكتئاب أن يدمرني، خضعت للعلاج النفسي لفترة كي أتمكن من استعادة توازني، ولازلت إلى الآن نادمة أشد الندم على فعلتي.

سألها بحدّة: والشاب الآخر؟ ماذا عنه؟

نكست رأسها: لا أعرف عنه شيئاً، لقد فضحني وحقق مأربه، أما عبدالله فقد انتهت علاقتي به تماماً، اشتريت كمبو ليكون صديقي وليواسيني في وحدتي، أتعرف، لم أبح بهذا السر لأي أحد أبداً، حتى لأمي أو أختي، كمبو فقط من يعرف الحقيقة، كمبو وأنت!

كاد أن ينفجر ضحكاً عندما قالت جملتها تلك، فشر البلية ما يضحك، فهو وكلبها صارا في مقام واحد، باللسخرية!

ساد الصمت بينهما بعد ذلك الحديث، وصل الطعام فلم يستطيعا مس شيء منه، كانت غارقة في ألمها وخجلها من نفسها، وقد عاشت لحظات الماضي العنيفة كلها من جديد بمجرد أن اعترفت له بها، أما هو فقد كان غارقاً في ألمه، فحبيته مطلقة لأنها خائنة، خانت رجل كانت تحبه لسنوات، رجل تخلى عنها لأنها اكتشف أنها على علاقة بصديقه في ليلة زفافه بها، رجل لم يقترب منها ولم يستطع تخطي فعلتها نحوه، لم تورط مع فتاة كهذه! كان يندب حظه! لم لا يقوم الآن ويتركها إلى غير رجعة؟ لم يشعر بكل هذا الألم في قلبه لمجرد أن يفكر بأن عليه أن يتركها؟ لم أحبها هي دوناً عن كل الفتيات الجميلات اللاتي مررن في حياته؟ لماذا يارب؟ هذه الفتاة بالذات! لا بد أن هذا هو عقابه على كل أفعاله المشينة السابقة!

دفع شهاب الحساب دون أن يقوى على النظر في وجهها المعذب، قال قبل أن يقوم من مكانه: أحتاج وقتاً للتفكير، سأتصل بك، وإن لم أفعل، أعدك أن سرّك سيذهب معي إلى قبوري، كوني مطمئنة.

قام من مكانه وخرج، انهمرت دموعها التي عجزت عن السيطرة عليها أمام الناس وقد عرفت أنها خسرت لتوها رجلاً أحبته، وما كانت لتخونه أبداً...

بعد شهر آخر

امتلاً قلب فضة بالفرح وهي تقرأ نتيجة تحليل الحمل الذي قامت به للتوفي ذلك الصباح السعيد، إنها حامل، والتحليل بين يديها يؤكد حقيقة حملها. خفق قلبها بفرح غامر وربتت على بطنها بحنان: سيكون لي ولد من وليد، ما أروع ذلك!

قررت أن تستعد لإبلاغ زوجها بالخبر الجميل بمجرد عودته من المكتب، فاختارت أجمل أثوابها الصباحية، وبدأت تصفف شعرها وتلوي خصلاته الناعمة باستخدام جهاز خاص لذلك.

بدت جميلة كما لم تكن من قبل وقد أضفى نور الأمومة بريقاً خاصاً على ملامحها الطيبة، وعندما التقطت أدوات الزينة بأصابعها الرشيقة أحست برغبة شديدة بالتقيؤ!

لقد أجرت الفحص بسبب شعورها المزعج بالغثيان، لكنها لم تعد منزعجة منه على الإطلاق فيكفي أنه يحدث كدلالة على حملها، ولا شيء أحب على قلب المرأة من شعورها عندما تعرف أنها تحمل بين أحشائها طفلاً من زوجها الذي تحبه.

تمالكت نفسها قليلاً ثم أكملت تزيين وجهها بعناية، أرادت أن تبدو في أجمل حالاتها وهي تخبر وليد بالخبر.

كانت الدقائق تمر ببطء شديد وكأن الساعة تعاندها، فالانتظار يحول الدقائق إلى سنوات، هكذا همست لنفسها وهي تربت ثانية على بطنها.

فكرت.. تحب أن يكون بكرها ولداً، وتحب أن تنجب بعده ولداً آخراً ليلعبا معاً، وبعد ذلك تحب أن تنجب ابنة لها، وعليها أن تنجب أيضاً أختاً لابنتها،

لا تريدها بنتاً وحيدة مثلها دون أخت تصاحبها وتشاركها فرحها وحزنها في هذه الحياة..

فكرت بأمها بحنان، ستفرح كثيراً بالخبر، ستبلغها بعد أن تبلغ وليد أولاً، تريده أن يكون أول من يعرف بخبر قدوم ابنه، له الحق في ذلك قبل الجميع. وصل حبيبها أخيراً إلى البيت، ابتسم لجمالها ولاحظ تألقها عن المعتاد، سألتها: تبدين مختلفة اليوم، ما الخطب؟

ضحكت بدلال: لدي خبر لك، خير سعيد جداً. نظر إليها بحنان، فكل ما تنطق به يسعده، إنها امرأة لا تنطق من الحديث إلا أجمله، لم يسمع منها كلمة مزعجة قط منذ تزوج بها، لم يسمعها تشتم أحداً ولو على سبيل المزاح، لم يرها غاضبة أبداً، كانت امرأة تلقت تربية خاصة ومميزة، كانت زوجة رائعة نادرة وكان هو أسعد الناس حظاً لأنها زوجته هو.

اقتربت منه وقالت بخجل: وليد، أنا حامل!
قفز قلبه فرحاً بين ضلوعه: حقاً؟ هل أنت متأكدة؟
هزت رأسها: نعم، أجريت فحصاً اليوم، وجاءت النتيجة إيجابية.
وقبل أن تعي حملها بين ذراعيه ضاحكاً وهو يقبل خديها، ضحكت ثم أخذت تحذره: انتبه، سأكون ثقيلة الوزن قريباً، ولن تقدر على حملي هكذا!
ضحك معها وقال وهو يقبل رأسها: سأحملكما معاً، أنت وطفلي..
دار بها فأحست بالغثيان من جديد، حذرته بجدية: وليد توقف، سأتقياً!
ضحك من قلبه وهو ينزلها أرضاً، أمسك برأسها بين راحتيه، نظر في عينيها وقال بصوت يحمل صدقاً ممتزجاً بالمودة والرحمة: أحبك يا فضة، لا تعرفين كم أنا سعيد لأنك ستكونين أمماً لأولادي.

(49)

غضب

كانت ياسمين في زيارة لأمها، وكانت أمها تسألها كعادتها عن أدق تفاصيل حياتها، ولأول مرة أحست ياسمين بالانزعاج من أسئلة أمها، همست لنفسها أهي في تحقيق أم في زيارة عائلية!

كان السأم بادياً بوضوح على وجهها، ولاحظت أمها أنها لم تكن على ما يرام، سألتها مباشرة: ياسمين، ما الأمر؟ لم أنتِ منزعجة؟ أتساجرت مع خالد؟ ضحكت متهكمة: أتساجر مع خالد؟ لا، نحن لا نتساجر أبداً، فأساساً نحن لا نجد ما نتحدث به معاً، كلانا صامت أمام الآخر، لا مجال للشجار بيننا، لا تقلقي.

تعجبت الأم: ما هذا الكلام؟ يبدو أنك غاضبة منه! أهو مقصر معك في شيء؟ أخبريني أريد أن أفهم سبب سخطك!
ردت بضيق: لا، لم يقصر في حقي ولم أقصر أنا في حقه، نحن نعيش معاً بسلام، اطمئني فكلانا لا يزعج الآخر بتاتاً، وإن أردت الحقيقة، كلانا لا يهتم لوجود الآخر أصلاً!

احتارت أمها في حديثها، إنها لا تشتكي من شيء محدد، لكنها ساخطة على زوجها متبرمة بحياتها معه!

لم تفهم الأم ما الذي تريده ابنتها بالضبط، فهي متزوجة من رجل محترم، جامعي، ثري وابن عائلة، وسيم في نظر الأم لأنها عمته!

كانت ياسمين على وشك الانفجار فحياتها رتيبة لأقصى حد، لا تجد في قلبها أي شعور بالود نحو خالد، لا تحس به أكثر من كونه ابن خالها الذي تربت معه وقضت طفولتها تلهو معه رغم أنها كانت دائماً تستقل دمه!

تعرف أن هناك أمراً آخرأ فجر بركان ثورتها، إنه ضاري، ضاري الذي ظهر فجأة في حياتها ليلاحق أعز صديقاتها أمام عينيها، بل ويصر على أن تتوسط له عندها، ضاري الذي تجاهل حبها له وخذلها فتزوجت لأنها فقدت فيه أملها فإذا به يقع في حب أخرى أمام عينيها لتكتوي بنار الغيرة التي تأبى أن ترحمها. لو كانت ياسمين تحب خالد حقاً لما اهتمت لضاري وما يفعله في حياته لما اهتمت بمن يحب وبمن يكره، لكانت بدلاً من ذلك امرأة سعيدة بزوجها وحياتها، لكن ما حدث أكد لها أنها لا تحب زوجها وكان هذا الشعور يعذبها، لقد ندمت على زواجها منه بهذه السرعة وندمت أكثر لأنها سمحت لأمها باتخاذ هذا القرار المهم في حياتها عوضاً عنها.

حاولت أمها معرفة سبب غضبها بلا فائدة، فما يعتمل في صدرها لا يمكنها التصريح به، كان الأمر أكثر تعقيداً من أن تتمكن من شرحه، ما الذي يمكنها قوله لأمها؟ أنها كانت تحب ضاري وعندما عاد ليحب ورد اكتشفت أنها لا تحب خالد وصارت تغار من ورد لأنها على ما يبدو لا تزال تحب ضاري؟ ما هذه الفوضى في مشاعرها!!

أيمكنها الحصول على الطلاق من خالد؟ فكرت ياسمين.. لكن ما الذي سيتغير إن حصلت على الطلاق، فضاري لن يحبها لأنه يحب غيرها، ولن يتزوج بها فهو لم يفكر بها قبل زواجها فما الذي سيتغير بعد طلاقها!

تعرف أن لا شيء سيتغير على الإطلاق لكن فكرة الانفصال عن خالد كانت تلح عليها بشدة، ما ذنبها لتعيش حياتها كلها مع رجل لا تحبه؟ أليس من الممكن أن تقودها الحياة لتلتقي برجل تحبه ويحبها؟ رجل يتلهف عليها كما يتلهف ضاري على ورد رغم صدها له ومعرفته بأنها تحب غيره؟

قامت ياسمين فجأة من مكانها، كانت منزعجة لدرجة أنها خافت أن تنفجر رغماً عنها فتقول لأمها ما تفكر به من دمار!

سألها أمها: ما بك؟ إلى أين ستذهبين؟

ردت وهي تهم بالخروج من البيت: لا أعرف!

صفتك باب المنزل وراءها بعنف وكأنها تعلن عن رفضها لواقعها أمام أمها، لم تكن حادة الطباع في السابق لكن الألم الذي تحس به كان يغيرها من الداخل.. للأسوأ! فما أسوأ الغيرة وما أسوأ أن يعيش المرء مع شخص لا يطيقه لكنه يجد نفسه مضطراً للاستمرار معه من أجل الآخرين!

ركبت ياسمين سيارتها وبمجرد أن بدأت بقيادتها انهمرت دموعها، لا، لن تستمر بهذا الزواج من أجل خاطر أحد، لا تريد أن تضحي بسعادتها من أجل أي أحد حتى لو كانت هذه التضحية من أجل أمها، لن تدوم لها أمها، لقد عاشت هي حياتها مع أبيها بسعادة وكانت دائماً تتباهى بحبها له وحبها لها، ما ذنبها هي لتعيش حياة قاحلة مع رجل بارد وسخيف مثل خالد؟

لن تستمر معه أكثر، إنها لا تريده ولا تطيقه، ستحصل على الطلاق منه، وستصر على الحصول عليه، وستجد لنفسها رجلاً يهيم بها حباً، تستحق أن تعيش الحب وتعرفه، تستحق ذلك، فهي أجمل من ورد، وأفضل منها!

توجهت إلى شقتها وفرحت عندما وجدت سيارة خالد في مكانها، كان متوعداً هذا الصباح فلم يذهب إلى عمله، في حين ذهبت هي لزيارة أمها، لقد تخرجت من الجامعة منذ فترة ولا زالت تنتظر الوظيفة المناسبة.

كان خالد يجلس أمام التلفزيون ويديه كوباً من الشاي الساخن، كان يبدو شاحباً بعض الشيء ويرتدي ملابساً رياضية مريحة غالباً يقوم بارتدائها في المنزل.

دخلت ياسمين نائرة وبمجرد أن رأى احمرار عينيها سألتها بجزع: ما بك! أغلقت الباب خلفها ورغم أنها حاولت أن تضبط نبرات صوتها إلا أنها أتت مرتعشة بثورة انفعالاتها، جلست أمامه مباشرة، كان صدرها يتهدج، ولأول مرة في حياتها خالجهها شعور غريب بالخوف من زوجها!

لم تتوقف لتفسر هذا الشعور الغريب عليها، فقد قررت أن تقدم على قول ما تريد مهما كانت العواقب، فقالت بسرعة: خالد، هناك موضوع مهم أريد أن نتحدث فيه الآن.

سألها برفق فقد بدت له متعبة وعلى غير طبيعتها: خير، ما الأمر؟
قالت وهي ترتعش من قمة رأسها إلى أسفل قدميها: خالد.. لا أستطيع
الاستمرار معك أكثر من ذلك!

لم يفهم قصدها فابتسم ببلاهة: لا تقلقي، يمكننا السفر في أي وقت ما دمت
قد أنهيت دراستك، أستطيع أن آخذ إجازة في أي وقت تريدين!
نظرت إليه بدهشة، كان قصدها واضحاً، لكن يبدو أنه لم يستوعبه!
أوضحت بقسوة: خالد، أنا لا أتكلم عن السفر أو ما شابه، أنا أتكلم عن
حياتنا، زواجنا كان غلطة، وأنا أريد تصحيح هذه الغلطة، أريد الطلاق.

أحست بمجرد أن نطقت كلمة الطلاق بأنها قد تحررت، وكأن الطلاق قد
حصل بمجرد أن طلبته، في حين كان خالد يغالب دهشته، فزواجه من ياسمين
بالنسبة له ارتباط وثيق ظن أنه سيستمر طول العمر، تهاوت فجأة صورة حياته
السعيدة التي كان يفترض به أن يعيشها معها، لم يكن يحمل لها شعوراً بالحب
بقدر ما يحمل لها شعوراً بالألفة، إنه معتاد على وجودها حوله منذ صغره فلم
يجد أن فكرة زواجه منها فكرة سيئة عندما اقترحها عليه والده.

مرت في حياته علاقة حب عابرة لكن الفتاة لم تكن من طبقة الاجتماعية
فلم يضيع وقته معها طويلاً، كان رجلاً يعرف التقاليد ويحترمها فقد تربي عليها،
يقدر العادات ولا يفكر أبداً بمخالفتها، يحترم أبيه ويثق برأيه وعندما اختار له
ياسمين لتكون زوجته لم يعارض على الإطلاق، ولم يعارض؟ فهي ابنة عمته،
يعرف تربيتها، كما أنها جميلة للغاية، لا شيء يعيبها، صحيح أنه لا يكن لها حباً
جارفاً، لكنه يعرف أنها زوجة مناسبة له.

لم يتوقع أبداً أن تطلب منه ياسمين الطلاق في يوم من الأيام، كان يتخيل
أنهما سيشيخان معاً وسيقضيان حياتهما معاً إلى أن يفرقهما الموت.

نظر إليها بدهشة وسألها: لم تريدين الطلاق؟ ما الذي حصل!
كانت ترتعش، أحست بتجمع الدموع في عينيها، إنها تهدم بيتها، بدون
أسباب واضحة يمكنها الإفصاح عنها، لكنها لا تحب زوجها، كان يقف أمامها

بوجهه الممتليء والصدمة واضحة على ملامحه، أحست أنه يفتقد شيئاً، لم لا يقرب منها الآن ويضربها؟ تريده أن يجن لأنها تطلب الانفصال عنه، أن يصرخ في وجهها بأنه لن يتنازل عنها، أن يخبرها كم تعني له وكم يحبها، أن يخيفها لدرجة أن تستطيع سماع دقات قلبها، أن تتراجع وترتمي بين ذراعيه نادمة!

قال بهدوء: لا بد أنك متعبة اليوم، سأعتبر أنني لم أسمع شيئاً مما قلته، وعلى فكرة الطلاق ليس أمراً سهلاً، أتمنى أن لا تستخدمى هذه الكلمة ثانياً خلال مناقشاتنا!

أعطاه ظهره وأراد التوجه إلى غرفة المكتب، فنادته وهي تبكي: خالد... أنا آسفة!

ابتسم لها وهو يلتفت نحوها: لا بأس.. حصل خير.
بكت أكثر وهي تقول: أنا آسفة لأنني مصرة على الطلاق!

(50)

دعوة غير متوقعة

عندما تلقى أيوب اتصال ماجدة ذلك الصباح وهي تطلب منه زيارتها في بيتها لم يصدق أذنيه!

حاول إقناع نفسه بأن بشارة طيبة في طريقها إليه لكن معرفته الوثيقة بماجدة كانت تنفي له هذا الاحتمال!

حادثته بلين وطلبت منه الحضور لرؤيتها بعد الدوام، أخبرته أن ورد لن تكون في البيت في ذلك الوقت وطلبت منه عدم إخبارها بقدمه في حال حادثها لأي سبب.

قضى يومه في العمل متوتراً وهو يعد الدقائق لتمضي فيأتي وقت مواعده المنتظر، اتصل بجوهرة وأخبرها أنه سيتأخر اليوم على الغداء وقد يأكل خارج المنزل.

حادثها على عجل كي لا يترك لها المجال لسؤاله عن وجهته، فهو يكره نفسه عندما يضطر للكذب عليها.

انتهى الدوام بعد يوم بطيء عنيد وقام أخيراً ليذهب إلى ماجدة وكل ما فيه متحفز لهذا اللقاء غير المتوقع.

وصل إلى منزلها وبمجرد أن ركن سيارته ابتسم للحديقة الواسعة وتذكر وردته الجميلة التي تحب هذه الحديقة كثيراً وترتاح فيها أكثر من أي مكان آخر. استقبلته الخادمتة وأخذته إلى صالة الضيوف الشبه منعزلة عن المنزل وكانت ماجدة هناك في انتظاره.

ابتسمت له ابتسامة صغيرة وهي تقول: أهلاً أيوب، شكراً لقدومك، تفضل، اجلس.

جلس أمامها مرتبكاً، تأملته بصمت لبرهة، تعرف كم هو وسيم، إن وسامته تخلع قلب من يراه، يبدو كطفل كبير، فيه هدوء عجيب وجاذبية طاغية، لا يمكنها أن تلوم ابنتها على الوقوع بحبه، فمثله يستطيع أن يدخل قلب أي فتاة ويترعب فيه بسهولة.

لم تكن تحمل نحوه أي شعور بالود، ناصبته العداة منذ زمن، وازدادت عداة له لأنه ملك قلب ابنتها الوحيدة، تمنت له الموت في سرها، تمنت له الفناء، ليته لم يُخلق قط لكنها في تلك اللحظة أحست ببعض العطف نحوه، فغالبت ذلك الإحساس بداخلها على الفور، فامرأة مثلها تعرف جيداً كيف تتحكم بعواطفها، لم تكن حياتها سهلة، لقد عاشت وحيدة، والقلب الوحيد قلب قوي.

قالت له: فكرت كثيراً قبل أن أتصل بك، لكنني لم أجد سبيلاً آخرلاً لأتفاهم معك سوى المواجهة، علينا أن نهي هذه المهزلة!

نظر إليها، لم يكن يعرف عن أي مهزلة تقصد! إلا إذا كانت تعتبر حبه لورد مهزلة!

أومأت برأسها وقد أحست أنها قد استعجلت بالهجوم عليه، عليها أن تحاول كسبه، عليها أن تتفاهم معه لا أن تتشاجر معه، كررت لنفسها: لا تفسدي الأمر، انتهي.

زفرت وقالت: أنا آسفة، لكنني أريد منك أن تسمعي جيداً ثم تقرر ما تقول. قال وهو ينظر إليها: إنني أسمعك، تفضلي، قولي كل ما تريدين. قالت وهي تحاول أن تضبط أعصابها كي لا تفلت منها ثانية بسبب انفعالها: إنها ورد، أعرف أنك تحبها وأعرف طبعاً أنها تحبك، رأيت البارحة بالصدفة صورة لكما معاً تحت مخدتها لذا قررت أن أقابلك لأوضح لك بعض الأمور.. أيوب هذا الحب مستحيل وأنت بلا شك تعرف الأسباب.

رد عليها بحزن: لأنني مجهول الوالدين صحيح؟ قالت بصوت خالٍ من المشاعر: أيوب، أنت تعرف المجتمع، لا أريد أن أجمل الأمور بحيث تبدو على غير ما هي عليه، بصراحة لا يشرفني أن أزوجك

ابنتي، افهم، سيكون الأمر صعباً إن عرف أبناؤك ما حقيقتك!

سألها وكأنه يواجه مجتمعاً بأسره: لم؟ ما ذنبي أنا في ما أنا عليه؟

قالت: أيوب.. سيعايرك الناس بأنك بلا والدين، ستعاني وسيعاني كل من يرتبط باسمك، سيأتي يوم لن تحتملك فيه ورد، من حقها أن تزوج برجل يليق بها، لقد كرست نفسي لتربيتها، لم أتزوج بعد وفاة أبيها، من حقي أن أبدي رأيي بزواجها، وأن أختار لها زوجاً مناسباً، أريد أن أراها سعيدة، من حقي التدخل في حياتها بعد أن وهبتها كل حياتي، ألا تظن أن ذلك من حقي؟

قال: أنتِ تلغين إرادتها وترفضين الإصغاء لمشاعرها.

قالت باستخفاف: مشاعر الإنسان تتغير، صدقني، والواقع يحطم أجمل المشاعر، هي الآن صغيرة وغير ناضجة وتجري وراء قلبها، لو أنها فكرت لحظة واحدة بعقلها لما رضيت بك أبداً، أيوب تزوج بفتاة مثلك، لتحملا الحياة معاً، قد لا يكون ما أقوله منصفاً لكنها الطريقة الوحيدة الصحيحة والحل الوحيد المتاح لمن هم في وضعك، لا تحلم بورد فهي لن تكون لك، أعرف أنه لا ذنب لك بخطيئة والديك، لكن هكذا هي الحياة، نكون أحياناً ضحايا لأخطاء غيرنا، إنه قدرك وعليك احتمالاه بشجاعة.

قال بآلم: ومن أخبرك أنني ثمرة خطيئة؟ ألا يمكن أن أكون قد اختطفت من أمي؟ ألا يمكن أن يكون هناك سبب ما أجبرها أن تتخلى عني؟ أنتِ لا تعرفين الحقيقة لتحكمي علي.

نظرت إليه، كان مجرد شاب مسكين، وكانت مجرد أم خائفة على ابنتها، قالت وهي تعرف أنها مضطرة لأن تجرحه أكثر كي تصل لما تريد: أيوب، لا يوجد أم تترك ابنها للخادمة لترمي به بين حاويات القمامة في ليلة ممطرة إلا إذا كانت تريد التخلص من فضيحة ما.

شعر أيوب بالدنيا تدور به، كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الحقائق، لقد رمت به خادمة ما تحت زخات المطر والأسوأ أنها رمت بين حاويات القمامة!!

أحست بألمه فقالت: أعرف أن جوهرة لم تخبرك بهذا الأمر من قبل، لكنني سأخبرك عليك تجدي لي بعض العذر في موقفي منك، حدث ذلك في يوم زواجي من والد ورد، عادت أمك من عرسي مع أبيك الذي توقف لشراء غرض ما من الجمعية التعاونية فلمحت خادمة ما ترمي بك تحت المطر وقبل أن تفتك بك القبط أنقذتك جوهرة، لم تستطع اللحاق بالخادمة ولم تعرف أبداً من تكون لاحقاً لكنها أصرت على احتضانك، فعلت المستحيل لتأخذك من دار الأيتام، كانت وكأنها جنت بك، وأرضعتك مع شهاب لتكبر بين أولادها وأنت تعرف الباقي، أيوب أنا لن أزوجك ابنتي أبداً ولن أرضى عنها أبداً إن أصرت على تمسكها بك، أريدك أن تعرف أن هناك شاب مناسب يريد الزواج منها، اتصلت بي أمه أكثر من مرة لتطلب يدها، دعها تذهب في نصيبتها يا أيوب، دعها تكمل حياتها مع رجل ذو حسب ونسب وجاه، رجل تهتز البلد لسماع اسم عائلته، تستحق ورد رجلاً كهذا، لا تنسى أنها يتيمة بلا أب أو إخوة وأنا لن أدوم لها، إن كنت تحب ورد حقاً يا أيوب فعليك أن تتركها وتنسحب من حياتها على الفور فالحب تضحية و عليك أن تضحى من أجلها.

أحس أيوب أنه يغرق بعد تلك الكلمات، ولم يكن هناك ما يتشبث به لينقذه بعد كل ما قالته له ماجدة...

(51)

تصرفات غير مفهومة

جلست ورد أمام ياسمين في شقتها ذلك الصباح والحيرة مرتسمة على وجهها، كانت ياسمين تبكي بحرقه في حين بدت ورد حزينة جداً من أجلها وهي تقول لها ناصحة: لازلت لا أفهم ما هي المشكلة! كنت تعيشين معه بهدوء! ما الذي حصل بالضبط وجعلك تريدین الطلاق منه؟ أهناك أمر لم تخبريني عنه؟ صارحيني..

ردت ياسمين من بين دموعها: لا أحبه، لا أريد أن أقضي بقية حياتي معه!! سكتت ورد، إنها تحاول أن تفهم صديقتها قدر الإمكان، لكنها تحس أن هناك شيئاً غير واضح، هناك حلقة مفقودة في حكايتها، هناك أمر لا تفهمه، كانت قانعة بآبن خالها مستقرة معه، مقتنعة بكل ما قالته لها أمها عندما زوجها له، لم الآن بالذات تغير كل شيء وصارت لا تطيقه؟ سألتها ورد بصراحة: أهناك رجل آخر؟ صرخت ياسمين: هل جننت؟ أنا على ذمة رجل، كيف يكون هناك رجل آخر؟

خجلت ورد من ظنها واعتذرت قائلة: أنا آسفة، لم أقصد أن أهينك أبداً، لكنني محتارة في أمرك، لا تغضبي مني حبيبتي، وإن كان هذا قرارك النهائي فلا يمكن لأحد أن يجبرك على الاستمرار مع رجل لا تريدينه..

قالت ياسمين وقد هدأت قليلاً: أمي حذرتني من أن أترك البيت، أخبرتني أنها لن تقف معي في موضوع طلاقي، وخالد يتجاهلني، يتصرف بطريقة طبيعية وكأنني لا أبكي أمامه ولا أطلب الطلاق منه!! يبدو أن أمي نصحته بذلك.. ردت ورد: قد يمل وينفجر في وجهك ويطلقك.

ردت باستهزاء: من؟ خالد؟ إنه جبل من الجليد، لن يمل ولن ينفجر، فهو رجل بلا إحساس، رجل مجرد من المشاعر.

صمتت ورد، ربما كان تصرف أم ياسمين صائباً، ربما تهدأ ياسمين بعد فترة وتنسى الطلاق برمته، ربما كانت تمر بأزمة نفسية لسبب لا تعرفه ومن الأفضل لها أن تترث فما تنويه فيه تدمير لبيتها وحياتها خاصة وأن زوجها رجل محترم وشكواها منه ليست لأسباب جوهرية.

خرجت ورد من عند صديقتها منزعجة، كان مزاجها متعكراً وتفكيرها بياسمين يشغل بالها قارنت نفسها بها، ما كانت لتتزوج أبداً من رجل لا تحبه، ربما لأن هناك رجل ما يسكن قلبها، ابتسمت وهي تتخيل نفسها زوجة لأيوب فتعيش معه في بيت صغير، تطهو له وتخدمه، تحب أن تخدمه بنفسها فهي تغار عليه كثيراً، لا تطيق أن تتخيل أن يأكل من يدي الخادمة أو يرتدي ما تجهزه له، تحب أن تعطر ثيابه، وأن تقضي يومها في انتظاره، كم ستكون حياتها سعيدة معه إن تزوجا.. همست لنفسها: سأنتظره، حتى لو عشت حياتي كلها بانتظاره، ولن أكون أبداً لرجل غيره.

وصلت إلى البيت وعندما دخلت لاحظت على الفور شحوب وجه ماجدة، ألقى التحية عليها وجلست ثم سألتها عن حالها، بدت أمها متوترة، ولاحظت ورد بأنها تهرب من التطلع بعينيها مباشرة!

قالت ماجدة رداً على ابنتها: أشعر ببعض الألم في معدتي، لا تقلقي علي، تناولت قرصاً للمغص وسأكون بخير.

كانت حقاً تعاني ألماً لا يطاق في معدتها، فالتوتر الذي تشعر به بعد لقاءها بأيوب كان فوق طاقتها، عرفت أنها جرحته في الصميم، أحست أنها قتلتها عندما خرج وهو يكاد لا يرى طريقه، لم تكن نادمة لكنها خائفة من أن يخبر جوهرة بهذا اللقاء فتغضب منها أختها والأسوأ أن يقوم بإخبار ورد! من يدري، قد يخبرها، فتزيد ورد جنوناً وتعلقاً به!

عرفت ماجدة أن عليها انتظار ردة فعله، وكان الانتظار في نظرها موت بطيء،

فطبيعتها الانفعالية لا تحتمل الانتظار والصبر!

صعدت ورد إلى غرفتها متعبة، وقبل أن تغير ملابسها خطر لها أن تتصل بأيوب، أحست أنها تريد سماع صوته بعد هذا اليوم المتعب، لكنها وجدت هاتفه مغلقاً عندما اتصلت به، ورغم أنها تعجبت إلا أنها لم تقلق فتركت هاتفها وقد قررت أن تتصل به من جديد في وقت لاحق.

غيرت ملابسها واندست في سريرها، وضعت يدها تحت مخدتها وأخرجت صورتها معاً في يوم عرس فضة، قبلت الصورة، ونامت بهدوء وأصابها تقبض عليها.

(52)

عتاب

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً عندما قرر أيوب أن يعود إلى المنزل، كان قد اتصل بجوهرة في وقت سابق وأخبرها أنه سيكون مع أحد أصدقائه طوال اليوم كي لا تقلق عليه كما أخبرها أن هاتفه خالٍ من الشحن، فهو يعرف أنها ستتصل به بين حين وآخر لتطمئن عليه.

قضى وقتاً طويلاً أمام البحر وهو يفكر، كان الألم قد استحوز عليه بشكل كامل فلم يعد يشعر بالوقت، كانت كلمات ماجدة له كسكاكين انغrust في قلبه لكنه عاجز عن إخراجها منه.

إذن وجدته جوهرة بجوار حاويات القمامة! باللقسوة! أي أم هذه التي ترمي بابنها هكذا! لكن مهلاً، الخادمة من فعلت ذلك، لا بد أن أمه كانت في وضع لم يسمح لها بأن تعرف ما الذي حل بولدها؟ بكى وهو يتساءل: يارب، بين لي الحقيقة...

أحس أنه مستعد لأن يدفع عمره كاملاً ليعرف تلك الحقيقة الغائبة، تلك الحقيقة التي قد تريحه وقد تقتله إن كانت على عكس ما يريد ويتمنى.. يعرف أن الحقيقة لمن هم في مثل وضعه مستحيلة، كيف يعرف من هي أمه؟ كيف يجدها؟ بل كيف يصل إلى خيط يوصله إليها؟

عليه أن يرضى بالواقع وعليه أن يترك ورد إكراماً لها.. عليه أن يضحى من أجل سعادتها.

كانت دموعه تنهمر كلما فكر بورد، كيف يترك فتاة يعيش من أجلها؟ كيف يترك فتاة منحته كل هذا الحب والأمل؟ كيف يطفىء مصدر النور الوحيد في

حياته؟ كيف يحتمل الظماً والظلام من بعدها؟ بل كيف يعيش ولمن يعيش إن تركها؟ وكيف يحتمل البقاء على قيد الحياة من دونها؟

تذكر تلك الصورة التي تجمعهما والتي تقبع في صندوق أسرارها، لن يتبقى له من ورد إلا هذه الصورة، سيعيش حياته كلها وهو يحدق إليها، عليه أن يحرر وردته منه لتعيش حياتها أما هو فيكفيه أن يعيش على ذكراها.

وصل أيوب إلى المنزل وهو كسير النفس، كانت جوهرة جالسة في الصلاة بانتظاره، لقد قلقت عليه منذ كلمها، سمعت في نبرة صوته شيئاً لم يطمئنها، شيئاً أخافها وأثار ارتيابها، تأكدت لها مخاوفها عندما عادت الاتصال به فوجدت أن هاتفه مغلق وصارت مخاوفها يقيناً عندما دخل عليها يحمل انكساراً لا يمكن وصفه على وجهه..

جزعت وهي تسأله: ما بك؟؟؟؟

كان شهاب يجلس معها، ورغم أنه يمر أيضاً بحيرة لا مثيل لها فيما يخص موضوع عذاري التي لم يعاود الاتصال بها منذ التقى بها في ذلك اليوم المشؤوم، إلا أن وجه أيوب قد أثار قلقه، كان يبدو منهاراً تماماً، فقال دون أن يعي بمجرد أن رآه: ما بك؟ ما الذي حصل؟

وقف أيوب في مواجهتهما حائراً، لم يعرف ما يقول، كان وجه جوهرة الحبيب خائفاً ووجه شهاب الشاحب فضولياً، أيمنه تهدئة الخوف أو إشباع الفضول إن تكلم؟ أيمنه أساساً أن يتكلم؟ وما الذي يمكنه قوله، أن ماجدة أخبرته بأمر جارحة وطلبت منه أن يتخلى عن وردته لأنها لن تتشرف بأن تصبح زوجته؟

اقتربت منه جوهرة وربتت على كتفه، قالت له بحنان بالغ: أيوب، ما بك حبيبي؟

وكان لمستها الحانية قد حطمت قامته فانهار جالساً على المقعد وهو يدفن وجهه بين كفيه سأله جوهرة بجزع وهي تربت على شعره الذي تعشقه: أخبرني يا ولدي، ما بك؟ إن لم تخبرني أنا فلن ستبوح؟

كان شهاب يقف بجوارهما صامتاً ولسبب غير مفهوم، أحس بالحزن لأنه يرى أيوب بهذه الحالة المزرية!

تمالك أيوب نفسه قليلاً وقام من مكانه وهو يقول: أحتاج للراحة قليلاً، نتحدث لاحقاً عندما أستطيع، أرجوك يا أمي..

أحس عندما نطق كلمة أمي هذه المرة باختلاف في وقعها على أذنه ولسانه، إنها أم عظيمة، ليته كان حقاً ولدها..

أومات برأسها وقد احترمت رغبتة، فصعد إلى غرفته مسرعاً، جلست متوترة أمام شهاب الذي كان ينظر إليها بصمت، قالت جوهرة: ما بك تقف هكذا؟

جلس وهو يبتسم بحزن: أعرف أنك لن تتمكني من النوم إن لم تعرفي ما به. ردت بسرعة: أكيد، كم أنا قلقة عليه، لا تنسى أنه ولدي..

قال بتهكم: لم أنس ذلك أبداً، يبدو أنك أنت من نسيت!
سألته: نسيت ماذا؟

ضحك بحزن: أنني أنا أيضاً ولدك!

تعجبت: ماذا تقصد؟

رد بحزن: تدورين في فلكه ولا تسأمين، تجاهرين بحبك له ولا تكثرين، أنت تحبينه أكثر مني، أتعرفين، أنا أيضاً لدي مشكلة تسرق النوم من عيني، مشكلة حرمتني من راحة البال، لكنك لم تلاحظي ما أمر به قط، أنت لا تركزين إلا على أيوب، ما يمر به وما يحسه هو شغلك الشاغل، أنت تقرئين وجهه وتحسين بما يخالجه حتى قبل أن تريه، أما أنا، ولدك الحقيقي فلا أخطر لك على بال، أستحلفك بالله يا أمي أخبريني، من تحبين أكثر؟ أنا أم هو؟

نظرتة إليه بدهشة، لم تتوقع منه هذا السؤال بهذا الشكل المباشر، فعلاً لم تلاحظ أبداً إن كان يمر بمشكلة أو أنه يعاني من أمر ما! لا تفكر به بقدر ما تفكر بأيوب، ربما لأنها تعاطفت دائماً مع ذلك المسكين وفي غمرة تعاطفها معه ظلمت ولدها الذي من لحمها ودمها!!

لم ينتظر شهاب ردها، ابتسم لها بحزن وهم بالصعود إلى غرفته، تألمت

لأنها خيبت أمله لهذه الدرجة، نادته مستجدية: شهاب، أرجوك أخبرني، ما هي مشكلتك؟

التفت لها، كانت صادقة في رجائها، رأى ذلك في عينيها، ولأنه يحبها كثيراً، أكثر مما يمكنها أن تتصور، لم يرد أن يزيد همها في تلك الليلة بالذات، لكنه فعل للأسف بمجرد عتابه لها.

قالت وهي تقترب منه قليلاً: أخبرني يا ولدي، ما الذي يحدث معك؟ أستحلفك بالله أن تخبرني الآن.

قال وقد حسم أمره: مشكلتي تتعلق بحامد صالح الراجح!

شهقت جوهرة: ماذا تقول؟ وما علاقتك بهذا الرجل؟؟

قال وهو يرتعش: مشكلتي أنني أحب إحدى بناته!

كادت جوهرة أن تقع من طولها وهي تسمع ما قاله لها ولدها للتلو!

هجوم وشجار

كانت فضة تعيش أجمل فترة في حياتها في تلك الأيام، عرفت أم زوجها بحملها فصارت تدللها كثيراً بل تبالغ في تدليلها.

فرح جميع أهلها بخبر حملها، إنه الحفيد الأول للعائلتين والجميع متحمس لقدومه، كانت سعيدة جداً رغم أنها تتقيأ كل ما تأكله تقريباً مما أدى إلى نزول وزنها.. أخبرتها الطبيبة أن الأمر طبيعي عند بعض النساء وكتبت لها فيتامينات مقوية وحبوب خاصة للتخفيف من الغثيان.

كان وليد أكثر سعادة منها وهو يرى فرحة أمه المسكينة التي تنتظر رؤية أحفادها بفارغ الصبر، الوحيدة التي لم تكن سعيدة بهذا الحمل كانت أخته جنان، فكونها لم تنجب شعرت بالنقص كما شعرت بالغيرة من زوجة أخيها التي صارت محط اهتمام أمها.

لاحظت فضة ذلك الجفاء الذي اتصفت به تصرفات جنان نحوها منذ معرفتها بخبر حملها، حاولت التغاضي قدر الإمكان واحتواء غيرتها الواضحة منها، لكن جنان صارت قاسية في غيرتها خاصة وهي تخبر الجميع بالآي فرحوا كثيراً فالحمل لا يزال في أوله وقد تخسره فضة في أي وقت!

كان كلامها يزعج فضة بشدة ويخوفها على جنينها القادم، ورغم أن أم زوجها نهرت ابنتها أكثر من مرة إلا أن جنان كانت مصرة على إزعاج فضة كلما رأتها. كانت دائماً تحكي أمامها عن حالات الإجهاض التي سمعت بها، كما أنها تعلق دائماً على شحوب وجه فضة وهزالتها على نحو سلبي، لم ترد فضة إخبار وليد بسلوك أخته كي لا تتسبب بتوتر العلاقة بينهما، لكنها كانت تضيق بوجود جنان التي صارت تزورهم أكثر من السابق بنية إزعاج فضة والتأكيد عليها.

قررت فضة أن تمتنع عن النزول من غرفتها كلما أتت جنان إتقاءً لشرها، فعشرات النساء ممن لم ينجبن يفرحن لغيرهن ويغبطهن لا أكثر، لكن جنان لم تكن تحمل في قلبها سوى الغيرة والحسد فصارت فضة تخاف منها ومن كلامها المزعج الذي تسممها به كلما التقت بها فقررت الإنسحاب بهدوء وتقليل احتكاكها بها.

لم تكن فضة تحكي لأمها أي شيء سلبي عن حياتها الجديدة، أحبت أن تعطي أهلها صورة جميلة عن زوجها وأهله، إنها تحبهم، وتريد أن يحبهم أهلها أيضاً، ومن أجل ولید كانت مستعدة لتحمل أي شيء منهم.

كانت تجلس في غرفتها ذلك المساء عندما اتصلت بها ورد، أجابتها فضة بفرح فهي تحبها كثيراً وتشتاق إليها، أخبرتها ورد بأن صديقتها لديها مشكلة مع زوجها وأنها مصرة على استشارة محام، طلبت من فضة أن تأخذ لها موعد من ولید وأن توصيه بها خيراً، وعدتها فضة أنها ستقوم باللازم وستخبرها بالموعد عندما يؤكد له ولید.

تحدثتا بعد ذلك عن مواضيع عامة، وبمجرد أن أنهت فضة المكالمة فوجئت بجنان تدخل غرفتها غاضبة وهي تقول: ما هذا الأسلوب معي؟ من تظنين نفسك؟

تعجبت فضة وردت: أنا؟؟ أي أسلوب تقصدين!
صرخت جنان: أعتقدين أنك المرأة الوحيدة الحامل في هذا العالم؟ أم تعتقدين أنني لن أستطيع الإنجاب؟

قالت فضة بهدوء: جنان، أنا لا أعتقد شيئاً، لا داعي لهذا الكلام، أتمنى أن تتركيني بسلام.

جنت جنان وأخذت تصرخ أكثر: أنت مغفلة، تعتقدين أنك محظوظة، ولید سيمل منك بسرعة، أخي وأعرفه، كانت له علاقات كثيرة، لم يصمد أبداً مع أي امرأة، ولن يصمد معك أيضاً، أنا أعرف ما أقول.

أحست فضة بإنزعاج لا حد ولأول مرة صرخت في وجه جنان: لا أسمع

لك بالتحدث هكذا عن زوجي، اخرجني من غرفتي حالياً، لا أريد أن أراك هنا ثانية!

ردت جنان: البيت بيتنا، وليس من حقدك طردي، أما فيما يخص أخي، ستثبت لك الأيام صدق أقوالي.

استمر الشجار بينهما إلى أن أتت الأم وطردت جنان شر طردة وهي تلومها على تصرفاتها الخاطئة، حاولت الأم أن تطيب خاطر فضة التي بدأت تبكي فور رحيل جنان، طلبت منها أن تصبر عليها وأن تراعي وضعها فالأطباء أكدوا لها أنها لن تتمكن من الإنجاب أبداً لذلك تتصرف على هذا النحو بسبب غيرتها وحزنها ليس إلا..

لم تعرف الأم أن فضة كانت تبكي بسبب خوفها مما قالتها جنان عن أخيها وليس لأي سبب آخر...

حاولت الأم تهدئتها بلا جدوى فاتصلت بوليد وأخبرته بما حدث وطلبت منه الحضور إلى المنزل على الفور.

بقيت فضة تبكي إلى أن دخل وليد عليها، نظر إليها بتعاطف شديد وبمجرد أن رآته بدأت تنتحب، شدها إلى صدره وضمها إليه بحنان فازداد بكاءها، أحس أن في الموضوع شيئاً أكبر من مجرد مهاترات بينها وبين أخته وصدق ظنه عندما صارحته فضة بما قالتها لها جنان، أحس وليد بغضب شديد من أخته المتسرعة، وجلس أمام فضة وهو يمسخ دموعها الغزيرة بأصابعه وهو يقول: تعرفين أن كل شاب يمر بعلاقات عابرة لا قيمة لها، لم أرتبط من قبل لأن قلبي لم يدق أبداً لغيرك، ولن يدق أبداً لغيرك، كوني مطمئنة وواثقة من حبي لك يا فضة، أنا أحسد نفسي كل يوم لأنك زوجتي، إياك وأن تسمح لي لأي أحد بزعزعة ثقتك بي، أما جنان فلي معها حساب عسير.

هدأت فضة وهي تنظر إلى عينيه، رأت في عينيه دفئاً وحناناً دافقاً، أحست بالهدوء يتسلل إلى قلبها وأخذت تلوم نفسها لأنها انفعلت إلى هذا الحد، لابد أنه الحمل، فالتغييرات التي تمر بها بسببه كبيرة، لقد أصبحت حساسة مؤخراً



وذلك سبب انفعالها المبالغ به بلا شك.

طلبت من وليد بأن يتغاضى عن تصرفات أخته، لكنها في اليوم التالي فوجئت بجنان تدخل المنزل وتتجه مباشرة نحوها لتعتذر عن كل ما بدر منها. عاتبت فضة زوجها في وقت لاحق لأنه تحدث مع أخته ولم يستجب لطلبها بتجاهلها، فقال لها وهو يربت على شعرها الجميل: لقد قمت باللازم، عليها أن تلتزم حدودها، فما دمت حياً لن أسمح لأي كان أن يتناول على زوجتي، مفهوم؟

فرحت بكلامه، فضمته إليها، قبل رأسها بحنان، فأحست بشعور جميل بالأمان، فلديها رجل يحبها، وتعرف الآن أكثر من أي وقت مضى أنها في حمايته.

عرب

(54)

هروب

مر أسبوع منذ تلك المواجهة مع ماجدة، أسبوع كامل لم يسمع فيه أيوب صوت ورد، ولم يرد على اتصالاتها الكثيرة به ولا على رسائلها الهاتفية إليه. كان يعرف أنها تتعذب، يستطيع أن يحس بعذابها حتى وهو بعيد عنها، لكنه كان يتعذب مثلها، بل يتعذب أكثر منها، فهو يحتاجها أكثر، فرجل غارق في اليأس مثله لم يكن يملك من الأمل سوى وجودها في حياته، تُرى كيف يمكنه الاستمرار بحياة لا تكون ورد فيها؟ لن تكون له حياة بدونها، ستموت روحه وسيبقى جسده حياً رغماً عنه.

دخلت جوهرة غرفته عصر ذلك اليوم، أخبرته أن ورد تسأل عنه باستمرار، لمحت حزنه ويأسه فقررت أن تعرف ما به، طلبت منه أن يكون صريحاً معها، عليه أن يخبرها بسبب تغيره، وبسبب ذلك الحزن العميق الذي صار مرتسماً على وجهه.

تردد أيوب، أيحكي لها عما قالته أختها؟ أيعقل أن يتسبب بمشكلة بينهما؟ ما الذي سيحدثه إن أخبر أمه بما حدث؟ لن يتغير شيء أبداً إن أخبرها، لن تتغير الحقيقة ولن يسبب سوى المزيد من الحزن لها، لا بد أنها ستحزن بشدة إن أخبرها أنه يعرف أين وجدته وكيف، وهو لا يريد أن تحزن، لا تستحق هذه المرأة أن تحزن، إنها ملاك يمشي على الأرض، ملاك رحوم عطوف محب..

وضع أيوب رأسه في حجرها فجأة، فأحست بموجة حنان جارف تجتاح قلبها نحوه، قبلت جبينه وهي تسأله: ما الأمر حبيبي؟ أخبرني..

قال وهو لا يزال على حاله: أمي.. أتعرفين، أنا لا أستحق ورد، ولا أريد أن أعذبها معي!

تعجبت جوهرة: ماذا تقصد؟

قال بألم: أمي، تعرفين نظرة أمها لي وشعورها نحوي، ورد متعلقة بي أكثر من اللازم، وهذا الأمر ليس في مصلحتها.. الأفضل لها أن تنساني، لذلك أريد الابتعاد عنها.

خفق قلب جوهرة بحزن، كانت حزينة على ورد، وفي نفس الوقت تعرف أن كلام أيوب صحيح وفي محله فصمتت تماماً وكأن لسانها قد خرس. اعتدل أيوب في جلسته وقال: أنتِ أكثر من يعرف كم أحبها، إنها أكثر من أحب في هذا العالم، لكنني يجب أن أنسحب، لا أريد أن أدمر حياتها، ولا أن أدمر علاقتها بأمها.

خمنت جوهرة: لقد حادثتك ماجدة صحيح؟

أراد أن يكذب ففضحته دموعه، صرخت جوهرة: وما الذي قالته لك ماجدة؟ قال بحزن: لم تحادثني ولم تقل لي شيئاً، أمي أرجوك، لا تزيدني همي همماً، انسي ماجدة وساعديني، علي أن أنسحب من حياة ورد بأي شكل. ابتلعت غصتها وهي تقول: وكيف تنسحب من حياتها يا ولدي؟ قال أيوب: عليها أن تياس مني..

سألته: وكيف تياس منك؟

قال بحزن لا مثيل له: أريد منك أن تخطبي لي فتاة أخرى..

نظرت إليه بدهشة: هل أنت جاد يا أيوب؟

أوماً برأسه مؤكداً وهو يقول: هذا هو الحل الوحيد صدقيني، عندما أتزوج ستدرك أنني لن أكون لها، ستغضب وتحزن لفترة، ثم ستضطر للتفكير بمستقبلها، أريد لها السعادة يا أمي حتى لو كانت مع غيري، علي أن أتزوج من أجلها هي، تفهمين ما أقصد؟

أومات برأسها وقد بدأت الدموع تنهمر على وجنتيها، فرغم قسوة قراره إلا أنه قد يكون الحل الوحيد لتنسأه ورد وتمضي بحياتها بعيداً عنه كما تريد أمها..

سألته جوهرة: ومن سأخطب لك!!

قال لها بحزم: ابحتي لي عن فتاة مثلي..
نظرت إليه متسائلة: ماذا تقصد؟
قال بقهر لا يوصف: ابحتي لي عن فتاة لقيطة مثلي لأتزوج بها..
ولو كان للصخر عيون، لبكت الصخور في تلك اللحظة...



(55)

موعد

كان وليد ينتظر قدوم ورد مع صديقتها ذلك المساء في مكتب المحاماة الذي يملكه..

تذكر توصيات فضة له بالاهتمام بهذه القضية من أجل خاطر ورد فابتسم، لا تعرف فضة كم يهتم بقضاياها دون الحاجة إلى توصية من أحد، إنه رجل يحترم موكله لأقصى حد ويقدر ثقتهم في شخصه كما يقدرون هم تفانيه في عمله.. يعرف أن ورد قد درست الحقوق وكذلك أخبرته فضة عن صديقتها القادمة معها، سيهتم بهما لأنهما زميلا مهنة، ابتسم وهو يتذكر نفسه في بداية تخرجه وحمدالله أنه حقق طموحه بافتتاح مكتب ناجح وخاص به وحده.

أخبره السكرتير بوصول الفتاتين فقام واقفاً لاستقبالهما، ابتسم لورد التي بدت شاحبة وكأنها مريضة، بدت له غير طبيعية إلى حد ما، لكن لم يكن الوقت مناسباً ليسألها إن كانت بخير أم لا..

عرفته ورد على صديقتها قائلة: هذه صديقتي ياسمين، الموضوع يخصها هي، لقد أتينا من أجلها، أتمنى أن تتمكن من مساعدتها.

نظر وليد إلى ياسمين، كانت ترتدي ثوباً أبيضاً قصيراً يكشف عن ساقها وذراعيها، حدق لوهلة بشعرها الأشقر المشدود خلف رأسها بإهمال وعينيها الخضراوين الحزبتين للغاية..

سألها بشكل مباشر: كيف أستطيع أن أخدمك؟

قالت له وهي مرتبكة: أريد أن أرفع دعوى على زوجي.

سألها باهتمام: وما نوع الدعوى التي تريد رفعها؟

قالت ياسمين: خلع، أريد أن أخلعه!
قالت جملتها تلك وكأن زوجها مجرد ثوب لم يعجبها وتريد خلعه عن
بدنها!

سألها وليد رغم أنه يستطيع تقدير عمرها: كم عمرك سيدتي؟
قالت بسرعة: أكملت الثالثة والعشرين لتوي.. أرجوك لا تعتقد أنني غير
ناضجة، أنا حقاً أريد الخلع.. وأريدك أن تساعدني..
بدت له مجرد فتاة متهورة، كانت صغيرة في نظره، لكن أحب أن يسمع
مشكلتها، على الأقل من أجل فضة التي أوصته بها..
طلب منها وليد أن تحكي له عن الأسباب التي تريد أن تترك زوجها من
أجلها، كانت ياسمين تتوقع سؤالاً كهذا فقالت ببساطة: أنا لا أحبه، لا أطيعه،
ولن أستطيع الاستمرار معه، هو شخص جيد، لكنني لا أريده..
سألها: لم تزوجته إذن إذا كنت لا تريدينه؟

قالت بقهر: هو ابن خالي، والدتي أخبرتني أنه الزوج المناسب لي، أكدت
لي أنني سأكون سعيدة إن تزوجته، لكنني لم أسعد معه قط، أرجوك يا أستاذ
ساعدني كي أحصل على حريتي.. أنا لا أستطيع أداء حقوق هذا الرجل ولا
أريد أن أظلمه معي، سأرد له كل ما أعطاه لي مقابل حريتي.. ساعدني أرجوك!
لا يعرف وليد لم أحس وقتها أنه متعاطف معها، كانت ترجوه بحرارة، وكأنه
الشخص الوحيد في هذا العالم الذي يستطيع مساعدتها، سألها إن كان أهلها
على علم بما تنوي فعله فأخبرته أنهم لم يقفوا في صفها عندما طلبت الطلاق،
وأنها لا تزال تعيش في منزل زوجها لكنها مصرة على تركه مهما كان الثمن..
أخبرته أنها أتت إليه بعد أن سمعت عن مدى مهارته في مهنته، فهو محام
قدير وذو خبرة وسمعة طيبة ويمكنها الاعتماد عليه لتحصل على حريتها.
حاول وليد مناقشتها في قرارها، أخبرها أن قرار الانفصال لن يكون سهلاً،
فالرجل تربطها به صلة قرابة، كما أنها لا تشتكي من مشاكل كبيرة معه، طلب

منها أن تعطي لنفسها المزيد من الوقت لتفكر، لكنها لم تقنع بكلامه، كانت تريد أن تنهي ارتباطها بخالد بأسرع وقت ممكن، لم تعد تطيقه، لم تعد ترغب حتى برؤية وجهه!

قال وليد أخيراً: أعتقد أن أهلك يريدون من التريث كما طلبت منك بنفسى، خذي أسبوعاً آخراً لتفكري جيداً بالموضوع وفي حال لم تغيري رأيك حدى معى موعداً جديداً للتناقش فيما يمكننا عمله.

صمتت ياسمين على مضض، لم يصبر الجميع على بقائها مع خالد؟ لم يرفض الجميع أخذ طلبها للطلاق بجدية؟ ألا يكفي أنها لا تطيق زوجها؟ لم لا يفهمها أحد ما فى هذا العالم!

انتهت تلك الزيارة، ولم يبدُ على ياسمين الرضا، كانت مستاءة لأن وليد لم يباشر فوراً بعمل الإجراءات القانونية اللازمة للخلع!

رحلت ورد مع ياسمين دون أن تنطق حتى بكلمة واحدة خلال تلك الزيارة، أحس وليد بالقلق عليها، لا بد أنها تعاني من مشكلة ما، وفى ذلك المساء أخبر فضة بما حصل بالتفصيل..

قلقت فضة على ورد وعندما اتصلت بأمرها وسألته إن كانت ورد بخير بدت أمرها غامضة وهى تستمع لها وكأنها تعرف أمراً لا تريد مصارحتها به، وفى تلك الليلة أرسلت فضة رسالة إلى ورد قبل أن تنام لتطمئن عليها، وعندما لم يصلها رد منها لم تستطع النوم طوال الليل قلقاً عليها!

(56)

لماذا تبتعد؟

كان أيوب قد انتهى من دوامه وخرج متجهاً لسيارته المركونة في مواقف الوزارة، كان سارحاً، مشتتاً، فقد مرت ثلاثة أسابيع كاملة منذ لقائه بماجدة ومقاطعته لورد..

وصل لمكان سيارته وبمجرد أن رفع نظريه وجد ورد أمامه مباشرة وهي تقف مستندة على سيارته وكأنها تسند نفسها كي لا تقع..

نظرت إلى عينيه مباشرة فارتبك، لم يتوقع رؤيتها هنا، وبنفس الوقت أحس أنه خجل منها بسبب تصرفاته غير المتوقعة نحوها، كانت ترتدي بنظالاً من الجينز وقميصاً أسوداً وقد بدت منهكة متعبة وهالات سوداء واضحة قد ارتسمت حول عينها الفاتنتين.

اخترقت نظرتها تلك فؤاده فخفق بحبها، وفي نفس الوقت كان الألم يتأكل روحه، ظل واقفاً أمامها وكأنه فقد القدرة على النطق، في حين ظلت هي تحديق في عينيه معاتبة.

قالت بصوت حزين: لماذا؟

نكس رأسه أمامها، اقتربت منه حتى استطاع أن يشم رائحة عطرها الذي يحبه، أعادت سؤالها: لماذا يا أيوب؟

مدت أصابعها المرتعشة ورفعت ذقنه ليوافقه عينها وكررت: لماذا؟

سألها: ماذا تقصدين؟

سألته: لماذا تبتعد؟

لم يستطع أن يرد، فنكس رأسه من جديد..

كانت ترتعش، وتحس بأن كل خلية في جسدها تؤلمها، أرادت أن تبكي

فلم تستطع، كانت تجهل ما يمر به، وتجهل ما حدث بينه وبين أمها، فوجئت بتجاهله لها وهي التي تحبه كل هذا الحب وفي نفس الوقت أحست بالخوف، كان أيوب أمانها، لكن أمانها صار خوفاً الآن.

لم تكن تعرف أنه يستطيع أن يتعد، لم تتوقع أنه يستطيع، لقد فاجأها جفاؤه! فعندما نثق بحب أحد، يصبح جفاؤه قاتلاً..

يعرف أنها تتألم، لكن رؤيتها تعاني أمام عينيه كانت أكبر من قدرته على المكابرة، يحبها، لكنه لا يريد أن يأتي يوم ما فطره فيه، عندما تكبر وتنضج أكثر وتواجه نظرة المجتمع كونها زوجته، عندما تغيرها الحياة بصدماتها ستندم على ارتباطها به، عليه أن يتركها من أجل مصلحتها..

لكن كيف يتركها؟

اقترب من باب سيارته، قال بصوت خافت: علي أن أذهب..

نظرت إليه وهو يركب سيارته، وقبل أن يغلق بابها نادته: أيوب!

نظر إليها فقالت: لم تجب على سؤالتي بعد، فكيف ترحل؟

ساد صمت بينهما، وعندما عجز عن الإجابة، حرك سيارته مبتعداً عنها،

نظرت وراءه بدهشة، فلم تتوقع منه أبداً أن يتركها وحدها ويمضي بهذه

البساطة!!

((حيرني جفاؤك وألمني، شعرت بألمي أغرق دون أن أجد من ينقذني، أمنت

بحبك لي فظننت أنك لن تجرحني، صدقت أنك لن تتركني، ولم أعرف أنك في

يوم ما بابتعادك عني ستقتلني..))

(57)

تأجيل

تلقت ماجدة مكالمة أم ضاري وهي تشعر بالخجل منها، لقد سئمت من طول تأجيلها لموضوع خطبة ضاري وورد، اختلقت عشرات الأعذار كي لا تعطي المرأة جواباً واضحاً بخصوص موافقة ورد على ضاري أم رفضها له، كان من الواضح أن الشاب يلح على أمه ويصر بأن تعاود الاتصال بماجدة، إنه مهووس بورد، وهذا ما يطمئن ماجدة، لكن بعد مكالمة أمه اليوم والاستياء الذي سمعته واضحاً في صوتها عرفت أن على ورد أن تقرر وتنتهي المسألة.. ورغم أن ورد قررت وصرحت مئات المرات أنها لا تريد ضاري ولن تتزوجه إلا أن ماجدة كانت تتأمل أن توافق في النهاية عليه، وخاصة وهي ترى وضع ابنتها الحالي بعد أن قرر أيوب الابتعاد عنها، كانت ماجدة سعيدة جداً لأن كلامها أثر بأيوب إلى هذا الحد، لم تتوقع منه أن يستجيب لرغبتها بترك ورد بهذه السهولة، ليتها حادثته من زمن!

جلست ماجدة في انتظار ورد، المفترض أن تكون الآن في مكتب المحاماة الذي تتدرب فيه، لكن الخادمة أخبرتها أنها خرجت من غرفتها في وقت متأخر ويبدو من ثيابها أن لن تذهب إلى المكتب اليوم.

اتصلت بها ماجدة أكثر من مرة فلم ترد، فظلت تنتظرها في بهو المنزل إلى أن عادت أخيراً، بدت ورد شاحبة الوجه ولاحظت ماجدة عينيها المحمرتين، لا بد أنها كانت تبكي، ولأنها تعرف سبب بكائها لم تسألها عنه شيئاً، قال ماجدة: ورد، علينا أن نتحدث.

قالت ورد وهي تقف أمامها: عن ماذا؟

تهددت ماجدة: عن ضاري، اتصلت أمه عشرات المرات لتطلبك له، الأم

تريد كلمة نهائية وفوراً..

قالت ورد: لقد قلت كلمتي النهائية منذ زمن، أنتِ التي لا تريدين إنهاء المسألة.

ردت بصبر: لم أنه المسألة لأعطيك الوقت اللازم لتفكري، لا تضيعي هذا الشاب من يديك، لن تجدي أفضل منه، ستعيشين معه بسعادة وسلام وستفخرين به وبكونك زوجته وسيكون لأولادك شأن وقيمة بالمجتمع ولن تندمي أبداً لأنك تزوجته، و.....

أخذت ماجدة تتحدث عن ضاري ومزايه باسهاب وثقة، وبلحظة فهمت ورد كل شيء، نظرت إلى أمها بدهشة، تخيلت أيوب وهو يسمع من أمها نفس هذا الكلام، أتاها حدس قوي ليخبرها ما حصل، لا بد أنها ماجدة، لا بد أنها سبب ابتعاد أيوب عنها، هي ولا أحد غيرها..

قررت أن تمكر بها فقالت: كفى يا أمي، لقد أخبرني أيوب أنك طلبت منه الابتعاد عني من أجل أن أتزوج ضاري وأنا لن أترك أيوب مهما حصل فلا تتعبي نفسك أكثر.

صُدمت ماجدة بكلامها، لم تكن تتوقع أن يشي بها أيوب، أحست أن مخططاتها قد انهارت فجأة فارتبكت وهي تقول: أنا أريد مصلحتك لهذا قررت التدخل وإبعاده عنك..

انفجرت ورد في وجهها بعد أن تأكدت ظنونها: لم تتدخلين في حياتي الخاصة؟ من طلب منك أن تفعلي؟ من أعطاك الحق لتخني مشاعري بهذه الطريقة القاسية؟ لن أسامحك أبداً على ما فعلته، أما ضاري فأنا أفضل الموت على أن أتزوج منه، أنا لن أتزوج سوى أيوب، أيوب فقط من سيصبح زوجي وأباً لأولادي، وسأفخر به دائماً، ولن أندم أبداً، فأنا فخورة به الآن وسأظل كذلك إلى الأبد..

جرت ورد من أمام أمها ثم توقفت فجأة فعادت لتقول: على فكرة أيوب لم يشي بك عندي، بل على العكس، أراد تحقيق رغبتك وقام بمقاطعتي والتهرب

مني، أنا التي خمنت الحقيقة واستدرجتك فاعترفتي بها..
 ذهبت ورد، وبقيت ماجدة وهي تفرك يديها حنقاً وغضباً، لقد وقعت في
 الشرك، وباءت خطتها بفشل ذريع..

((تعتقد إنك إن تركتني سأسعد؟ كيف وأنت سعادتي الوحيدة في هذه
 الدنيا؟ تظن أن هناك رجل أحق بي منك؟ كيف وقد نذرت قلبي لك وحدك؟
 تفكر أنك لست كفؤاً لي؟ كيف وأنا أتفلس هوأك وفي بُعدك أختنق؟))

ابتسامة رضا

كان شهاب مصراً وهو يقول لجوهرة: أخبرتك أنني أحبها ولا أريد غيرها، لا تحاولي تغيير رأيي لأنني لن أغيره مهما حصل.

بدأت جوهرة مكتئبة وهي تستمع إليه، كانت تحاول أن تثنيه عن اختياره لعذاري التي يريد أن يتقدم للزواج منها، فأخر ما كانت تريده لولدها فتاة مثل تلك الفتاة التي تلوك الألسن سيرتها وسيرة أسرتها في كل مناسبة.

قال شهاب: فاتحي أبي بالموضوع..

قالت وهي تستعين بالله في سرها: أباك لن يوافق، لا تنسى أن والدها قريب له، وهو أكثر من يعرف سلوكه المشين..

كاد شهاب أن يصرخ: لا يهمني أباه ولا أمها، تهمني الفتاة نفسها، أنا أحبها، وسأتزوجها هي لا عائلتها، لا شأن لي بهم على الإطلاق، أريدك أن تفتحي أبي بالموضوع وتقفي بصفي من أجل اقتاعه..

بمجرد أن أنهى جملته تلك دخل أحمد المنزل، تقدم منهما وهو يستشعر ذلك التوتر بينهما، قال بعد أن ألقى التحية: ما الأمر؟ ما الذي يحصل؟

نظر شهاب إلى أمه برجاء، هزت رأسها بضيق ثم قررت أن تنهي المسألة لتريح نفسها من هذا الولد المزعج والحاحه الذي لا ينتهي..

قال جوهرة: بصراحة، شهاب يحب فتاة ويريد التقدم لخطبتها..

ظهر الاهتمام على وجه أحمد، أحس بخيط من السعادة للخبر، كان دائم القلق على شهاب وسلوكه، ورغبته بالزواج أمر جيد وسيكون هذا الأمر في مصلحته، ابتسم أحمد وهو يسأل ولده: تفكيرك بالارتباط خطوة إيجابية، الزواج نصف الدين، لقد تخرجت ونلت شهادتك وتعمل الآن في وظيفة

جيدة، أظن أن الوقت مناسب لك لتقوم بتأسيس عائلة..

نظرت إليه جوهرة كأنها تحذره من أن يستعجل فيفرح، فقال أحمد وهو يتفهم نظرتها: أخبرني، من هي الفتاة التي تريد الزواج منها؟
قال شهاب وقلبه يخفق: اسمها عذاري..

صمت قليلاً، ثم فجر قلبته: عذاري حامد صالح الراجح!
صرخ أحمد: هل جنت!!! ألم تجد في البلد سوى هذه الفتاة!!! من المستحيل أن أناسب ذلك المحتال!
قال شهاب بحدة: الفتاة صالحة، وأنا أحبها ولا أريد غيرها، لا شأن لي بأبيها فهو لن يصرف علينا من ماله..

صرخ أحمد: أنا أتكلم عن تربيتها، البيت الذي أتت منه، ذلك البيت مختلف كلياً عن بيتنا هنا..

سأله شهاب: كيف يكون مختلف!

قال أحمد: مختلف في المبادئ، الأساليب، البيئة، بدلاً من أن تجري خلف فتاة مثل ابنة حامد، ابحث لك عن فتاة مثل أختك فضة..
تدخلت جوهرة مؤيدة: كلام والدك صحيح، نحن لن نوافق على هذه الفتاة ولا نريدها أن تكون أماً لأحفادنا!

احتدم النقاش بين شهاب ووالديه بلا فائدة، كان يحب عذاري، يعرف ذلك جيداً، صار متيقناً من مشاعره نحوها، فالفترة التي ابتعد فيها عنها كانت أتعس فترة في حياته، لم يستطع أن يستبدلها بفتاة أخرى ولا أن ينسى عينيها، صحيح أنه لم يتصل بها منذ آخر لقاء بينهما في ذلك المطعم، لكنه لم ينسها أبداً ولم تغب ولا للحظة واحدة عن باله..

عرف شهاب أن عليه أن يصبر لينال ما يريد، يعرف طيبة قلب أمه، ويعرف أيضاً طيبة قلب أبيه، لن يقفأ طويلاً في وجهه، ولن يصمداً أمام إلحاحه، يعرف أنهما سيرضخان له في النهاية، عليه فقط أن يتمسك برأيه، ويلح عليهما باستمرار، يقدر الآن وقع الصدمة على أبيه، لكنه أكثر من يعرف حنانه وحرصه

على سعادة أولاده..

خرج شهاب تلك الليلة مع أصدقائه لأحد المطاعم الشبابية المشهورة في الكويت، كان مزاجه متعكراً فقرر الترفيه عن نفسه، يعرف أن أمامه معركة طويلة عليه أن يكسبها، وكان مصراً على الفوز بما يريد مهما عارضه والداه على اختياره..

جلس مع أصدقائه في المطعم، كان أغلب حديثهم عن مباريات كرة القدم وعن الفتيات، كان شهاب صامتاً معظم الوقت على غير عادته لكنه تناول طعامه بشهية كبيرة رغم ما يمر به..

انسجم في حديث أصدقائه بعد العشاء وشيئاً فشيئاً بدأ يعود إلى طبيعته الصاخبة، قضى معهم ساعتين في المطعم، وبعد أن دفع نصيبه من الحساب الذي قسموه بالتساوي على عددهم، قام ليرحل..

خطى نحو باب المطعم، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، وبمجرد أن هم بالخروج وجد عذارى أمامه، تهم لدخول المكان مع صديقة لها..

نظر إليها بدهشة، كانت ترتدي ثياباً ضيقة ووجهها ملون بالمساحيق، ظهرت عليها الفرحة لرؤيته بعد كل تلك الغيبة فابتسمت له، كان وجهه متجهماً أثناء خروجه فلم يبادلها ابتسامتها، وقف خارج المطعم وصدرة يتهدج، ما هذا الشعور الغريب؟ إنه يغار! يغار عليها من رواد المطعم وهي في هذه الثياب وبهذه الزينة في هذا الوقت المتأخر..

حسم أمره على الفور، فدخل المطعم ثانية، كان أصدقاؤه لا يزالون يجلسون في مكانهم، لمحوه فلوحوا له، ظنوا أنه عائد إليهم، تخطاهم دون أن ينظر نحوهم، توجه مباشرة إلى حيث تجلس عذارى مع صديقتها وببداها قائمة الطعام، وقف بجوارها وقال بصوت حاسم: عذارى..

نظرت إليه بدهشة، قال بجدية: قومي معي، ستعودين إلى البيت الآن.. لم تستوعب كلامه وبدت صديقتها مصدومة وهي تنقل نظرها بين عذارى

وشهاب..

قال شهاب بصوت أكثر صرامة: قومي معي الآن لأوصلك إلى سيارتك، الوقت متأخر جداً وملابسك لا تعجبني، عليك أن تعودى الآن إلى البيت، هيا..

و بدون أن تناقشه قامت عذارى معه وقامت معها صديقتها، خرجتا خلف شهاب بطوله المهيب، تحركت عذارى نحو سيارتها صامتة، أخرجت المفتاح لتركبها ففتح لها شهاب باب السيارة وهو يقول: سأسير خلفك، أوصلى صديقتك ثم عودى إلى البيت...

قالت بهدوء: حاضر!

سار خلفها طوال الطريق، لمح صديقتها تنزل إلى بيتها، ثم سار خلفها بسيارته إلى أن وصلت إلى بيتها بجوار الممشى..

نزلت من سيارتها والتفتت نحوه، كانت نافذته مفتوحة ليرى وجهها، نظرت إليه وكأنها تسأله شيئاً، فابتسم لها ابتسامة كبيرة وكأنه يكافئها على طاعتها له ففرحت، ابتسمت له بخجل ودخلت إلى بيتها وهي تكاد تطير من شدة سعادتها، لقد صار لها رجل يخاف عليها رجل لمحت لتوها ابتسامته الراضية عنها وعينيه العاشقة لها...

محاولات صلح

كانت فضة تجلس لتناول العشاء مع وليد الذي تأخر في مكتبه طويلاً في هذه الأمسية.

حضرت له طعام العشاء بيديها، السلطة التي يحبها والتي لا يجيد أي أحد خلط صلصتها كما تفعل هي، طبق الدجاج الذي يفضله وتجيد صنعه، وبعض المقبلات التي يحب تناولها..

كانت السفرة مرتبة كما في المطاعم الراقية وشموع رقيقة جميلة وضعتها فضة لتجمل المكان وتضفي عليه جواً رومانسياً محبباً..

كان ممتناً على اهتمامها به وبكل شيء يخصه، اعتاد أن يحكي لها عن قضاياها وعن تفاصيل يومه، كانت صديقتها المقربة كما هي زوجته وأم ابنه القادم..

حكى لها أثناء العشاء عن ياسمين التي عادت تلح على رفع قضية الخلع، ولأنه رجل يعرف الأصول وتهمه مصلحة الموكلين أكثر مما يهمه المال، قرر أن يلتقي بزوجها للتفاهم معه قبل أن يرفع القضية المنشودة، جاء خالد بنفسه للقاءه، عرف فور محادثته أنه رجل محترم ذو تربية كريمة، وأنه لا يريد الدخول في قضايا ومحاكم مع ابنة عمته..

أخبره وليد عن إصرار ياسمين على طلب الطلاق وأنها تفكر برفع قضية خلع في حال رفض تطبيقها بشكل ودي، ظهرت الدهشة على وجه خالد، لم يكن يتوقع أن تصل الأمور بها إلى حد توكيل محامي وإلى حد أن تطلب الخلع منه!!
بدا متزعجاً لكنه كان راقياً في انزعاجه وغضبه، أخبر وليد أن العائلة كلها قد تدخلت للصلح بينهما بلا فائدة فياسمين مصرة على الطلاق رغم أنها لا تزال تعيش في بيته إلى هذه اللحظة، أخبر وليد أنها ترفض التحدث إليه وأنه تعمد أن

يتجاهل تصرفاتها ليعطيها الوقت اللازم لتراجع نفسها وتثوب إلى رشدها..
قال خالد: بما أن الأمور وصلت بها إلى اللجوء إلى المحاكم، سأمنحها الطلاق
وكامل حقوقها أيضاً، لقد تمسكت بها إكراماً لصلة القرابة التي بيني وبينها، لكن
بما أن الأمور قد وصلت بها إلى هذا الحد فلا مانع لدي أبداً من أن أطلقها، انقل
لها هذا الكلام، وأخبرني كي أقوم باللازم.

شعر وليد أن ياسمين ترتكب خطأ كبيراً بتخليها عن رجل محترم مثل خالد،
لم يفهم قط سبب إصرارها على الطلاق، وكان من المجحف حقاً أن ترفع قضية
على رجل مثله، أحس وليد بالرضا أنه استطاع حل الموضوع ودياً وعندما أخبر
ياسمين بما قاله زوجها فرحت بشدة وشكرته على جهوده وطلبت منه متابعة
موضوع طلاقها رسمياً مع خالد وأن يخبرها عندما يتم كي تعود إلى منزل أهلها!
قالت فضة: خسارة، ستندم كثيراً في يوم ما لأنها فرطت بزوجها وهدمت بيتها
بيدها.

قال وليد وهو يتأملها: معك حق، حاولت نصحتها مراراً بلا فائدة، ومادامت لا
تريده فالأفضل له أن يطلقها ويبحث لنفسه عن زوجة تحبه وتقدره، أليس كذلك؟
ابتسمت له: صحيح..

قال هامساً: كم أنا محظوظ بك.. كلما مرت علي المزيد من القضايا وتعاملت
مع المزيد من النساء حسدت نفسي عليك أكثر وأكثر..
ضحكت: أنت تبالغ!

هز رأسه مؤكداً: بل على العكس، فكل ما أقوله لا يوفيك حقا.
كان سعيداً معها، ويقدرها بشدة، وكانت هي تحبه أكثر من أي شخص آخر..
تعرف الآن أن في الحياة أزواج رائعون، أزواج يختلفون عن أزواج زميلاتنا
في المدرسة، إنها تعيش حياة مختلفة عنهن، فهي سعيدة مستقرة وتنتظر طفلاً
يفرح قلبها وقلب زوجها الحبيب ورغم تصرفات أخته المزعجة إلا أنها لم تكن
لتشكو أي شيء آخر في حياتها الجميلة معه والتي تتمنى من كل قلبها أن تدوم كما
هي طوال العمر.

(60)

رسالتان

(أيوب.. أعرف أن أمي طلبت منك الابتعاد عني، هي تريدني أن أتزوج بشخص على ذوقها، شخص يحقق آمالها هي ويرضي تطلعاتها هي لا تطلعاتي أنا، أيوب.. لا أريد من هذه الدنيا كلها رجلاً سواك، ولو خيروني بين كل رجال العالم ما كنت لأختار رجلاً غيرك، ثق بي وأجبنني، فقد أتعبني فراقك.. أرجوك، لا تقسو علي أكثر، فقسوتك تقتلني.. ورد)

قرأ أيوب رسالتها الهاتفية تلك مئات المرات وهو يتعذب، تقول إنها تفضله على جميع رجال الأرض، تفضل الرجل الذي رموه رضيعاً بين حاويات القمامة؟ الرجل الذي لا يعرف من يكون ولا من هم أهله ولا كيف جاء إلى هذه الدنيا؟

همس لنفسه بألمه الذي لم يعد يفارقه: ما أطيبك يا ورد، وكم أنت ساذجة لتحبي رجلاً مثلي!

أخرج صندوقه الأزرق من دولابه، كان يشعر بيأس لا حدود له، فتحه ونظر إلى رسائله المتراكمة إلى أمه، لمح هداياه لها بحزن، ثم لمح صورته مع ورد وهي تضع يدها الحبيبة على ذراعه برقة فخفق قلبه..

استل قلمه بصمت وبدأ يكتب:

((أمي.. لازلت على حالي، إن لم أكن أسوأ، إنني أخسرها يا أمي، أخسرها أمام عيني وبقرار مني، ما أصعب أن يقتل الإنسان نفسه، ما أصعب أن يخنق حبه بيديه، ما أصعب أن نختار التخلي عن من نحب بكامل إرادتنا لأننا نعرف مصيرنا ونهايتنا، كيف رضيت لي هذا المصير؟ كيف سلمتني لخدمة لترمي بي

بين حاويات القمامة؟ أشعر بالذل والمهانة كلما تذكرت الأمر، أيعقل أن تكون هذه قيمة إنسان لا ذنب له؟ أن يرمى كالتفائيات التي لا حاجة لوجودها، أهكذا أنا؟ شخص لا حاجة لوجوده في هذه الحياة؟ شخص لا قيمة له؟ شخص لم تريدي حتى معرفة ما حل به؟ ألدبك عذر ما لتخبريني به؟ عذر يجعلني أتفهمك وأبرر لك تصرفك، عذر قد يجعلني أوافقك وأؤيدك على فعلتك أُمي.. عندما كنت جينياً في أحشائك هل شعرت ولو لمرة واحدة بالحب تجاهي؟ أفكرت كيف يمكن أن أكون؟ كيف أبدو؟ كيف هي صفاتي؟ أتمنيت أن تسمي رائحتي؟ هل استوعبت أنني قطعة منك؟ أم أن كل ما فكرت به وقتها هو كيفية التخلص مني؟.. أُمي.. من هو أبي؟ أيعرف أن له ولداً؟ أم أنه تخلى عنك وعني؟ أما آن الألوان لتظهري؟ لتبرري؟ لتخبريني بالحقيقة لأتمكن من أن أعيش، أنا ميت يا أُمي، ميت من لحظة تخليك عني..))

(61)

أريج خلدان

جلست أريج خلدان في الطائرة على مقعدها بين ركاب الدرجة الأولى، كانت تعرف أن رحلتها ستكون مرهقة، فعودتها إلى الكويت من الولايات المتحدة الأمريكية بعد كل هذه السنوات سترهقها حتماً، ليس بسبب طول المسافة بل بسبب قسوة الذكريات.

غابت عن الكويت طويلاً دون أن ترغب بالعودة إليها أبداً، لكن خبر وفاة جدتها أثر بها كثيراً، خاصة وأنها لم ترها منذ زمن، أحست أن أقل ما يمكنه أن تقدمه لها هو أن تحضر عزاءها، إنها مدينة لها بالكثير، فهي الوحيدة التي فتحت لها بيتها عندما طُردت من بيت أمها وأبيها، والوحيدة التي فتحت لها قلبها عندما جافتها كل القلوب التي أحبتها.

كانت أريج تبلغ من العمر أربعين عاماً بالتمام والكمال في ذلك اليوم، بدت جميلة يانعة، لم تفقدها السنوات رونقها وحسنها، لقد عاشت طوال حياتها كامرأة جميلة فاتنة من الخارج، كسيرة محطمة من الداخل!

تذكرت النعي الخاص بجدتها والذي وصلها على الهاتف، توفيت عميدة عائلة خلدان الجدة نزيهة خلدان عن عمر يناهز الثالثة والتسعين عاماً، «إنا لله وإنا إليه راجعون..»

تخيلت وقتها ما سيكتب عنها عندما تموت هي.. توفيت اليوم امرأة تعسة.. تكفي هذه الجملة لوصفها، ستكون هذه الجميلة القصيرة أكثر جملة تعبر عن حالها، كما أنها لا تمنى أن تعيش لتبلغ من العمر ثلاثة وتسعين عاماً من التعاسة، فلو كان العمر بيدها لاخترت أن تموت الآن وفوراً دون أي تردد، فحياتها عبء عليها، ورغم كل مضادات الاكتئاب التي تناولتها لفترات طويلة

من حياتها إلا أنها لم تسعد أبداً ولم تحس بأي شيء يجعلها تعيد ثقتها بالحياة من جديد...

لقد أوقعتها الدنيا في برائن الحزن والندم باكراً ولم تستطع انتشال نفسها قط مما وقعت فيه.

أغمضت أريج عينيها في الطائرة التي لم تلاحظ إقلاعها إلا بعد برهة، أخبرت المضيفة بأنها لا ترغب بأكل أي شيء، وأكدت عليها بأن لا يقوم أي شخص من الطاقم بإزعاجها لأي سبب، فهي متعبة، وتريد أن تقضي بعض الوقت مع ذكرياتها التي لا تمل من اجترارها وكأنها تجلد نفسها بسوط من العذاب الذي لا ينتهي.

عادت بها الذاكرة إلى حيث كانت طفلة في العاشرة من عمرها، كان والديها يتشاجران يومياً بلا توقف، لم تعرف أسباب شجارهما، لكنها كانت تعرف أن حياتهما معاً لا تطاق، وأن بيتها أقرب إلى الجحيم من أن يكون بيتاً لطفلة صغيرة مثلها.

عادت يوماً من المدرسة فاختلت بها أمها، أخبرتها وهي تبكي أنها قد طُلقَت من أبيها وأنها ستركها له، تعجبت وقتها من هذا القرار، كانت متعلقة بأما أكثر من أبيها كحال معظم الأطفال، لم تكن تعرف أن أمها أرادت استخدامها كوسيلة ضغط على الأب، أرادته أن يتورط بوجودها معه كي يندم على اتخاذ قرار الطلاق.

رحلت أمها أمام ناظريها باكية، تركت المنزل وسط ذهولها، كيف تعيش بلا أم؟ من سيهتم بها؟ قضت ذلك اليوم في غرفتها وحدها وهي تبكي، دخل عليها أبوها في ذلك المساء وهو متجهم الملامح، أحس أنه تورط فعلاً بها، فهو عاجز عن الاهتمام بها وحده ومشغول بشؤونه الخاصة معظم الوقت.

بعد فترة من الضياع التي عاشتها بغياب أمها، قرر أبيها أن يأخذها لمنزل أمه أي جدتها، انتقلت إلى منزل الجدة التي احتوت ضياعها وحزنها لفراق والديها، كانت الجدة تعيش مع الجد وحدهما، لم يكن جدها بصحة جيدة،

كان عليلاً طريح الفراش، وكانت جدتها تخدمه بنفسها، فهو رفيق دربها ووالد أبنائها كما أنه ابن عمها، لطالما كان لها السند والصديق، أحبت العلاقة الطيبة التي تجمعهما، تمت أن تحظى بحياة مشابهة عندما تكبر وأن تشيخ مع رجل مثل جدها، كانت متأثرة بروح جدتها الطيبة وكلماتها الكويتية القديمة والتي لم تكن تفهم معناها، ومع الوقت صارت تستخدمها في حديثها وتشرح معناها لصديقاتها في المدرسة.

بعد فترة طلبت أمها أن تراها، ذهبت إليها في منزل جدتها الثانية والتقت بها بعد غياب طويل، لم يكن اللقاء حاراً، كانت أمها غاضبة لأن أبيها سيتزوج من جديد ولم يحاول ردها إلى عصمته، لم تكن تعرف كيف تجيب أمها ولا كيف تحتوي غضبها، فهي مجرد طفلة صغيرة لا حول لها ولا قوة، عاتبها أمها لأنها لم تبك عليها كفاية ولم تلح على أبيها بأن يعيدها إلى البيت! ألقت اللوم عليها وكأنها هي المسؤولة عن ضياع زوجها منها!

لم تعد ترى أمها بعد ذلك إلا في الأعياد، أما أبيها فقد تزوج من امرأة لم تحبها، ولم تكن تحب وجودها في بيتها فبقيت عند جدتها وجدها..

مرت السنوات.. وصارت في السابعة عشرة من عمرها، وصار لها أخ وأخت من أبيها، أما أمها فقد طلقت للمرة الثانية بسبب حدة طباعها وسوء معشرها.. في تلك الفترة تدهورت صحة جدها بشدة، وانتقل إلى رحمة الله تعالى بعد صراع طويل مع المرض، كانت جدتها وقتها على مشارف السبعين من العمر، وقد ألمها رحيل زوجها بشدة فتغيرت حالها، تكالبت عليها الأمراض فجأة، وأصبحت حزينه منطوية على نفسها وتخرج من غرفتها بصعوبة وكأنها فقدت رغبتها في الحياة بعد موت شريك حياتها.

في تلك الفترة الحرجة من حياة أريج وجدت نفسها وحدها، غابت أحاديث جدتها عنها، ولم تعد تجد من يجالسها، لم تستطع إخراج جدتها من عزلتها وكونها تعيش معها وحدهما مع الخادمة في البيت، صار جو البيت مملاً، وبدأت تحس بالوحدة فلجأت إلى صديقاتها لتتسلى معهن، صارت تخرج

معهن كثيراً، فلا أحد وراءها ليحاسبها أو يقيد حريتها، فأبوها لا يراها إلا ما ندر بل إنه غالباً ما يأتي لرؤية جدتها فلا يسأل عنها ولا يطلب أن يراها وكأنها غير موجودة بالنسبة له، أما أمها فكانت مشغلة عنها، إنها تعاملها بجفاء وتحملها مسئولية انهيار زواجها وبأنها مجرد ابنة غبية لم تستطع أن تعيدها إلى بيتها!

صحت أريج من غفوتها فجأة واعتدلت جالسة على مقعدها المريح بالطائرة، أحست بألم خلف رأسها بسبب شعرها المشدود خلفها، مدت أصابعها الرشيقة وفكت شعرها لتريح رأسها فهدلت خصلاته الناعمة على ظهرها، كانت خصلات طبيعية اللون اختلط فيها لون النحاس بلون البندق والعسل.. كان شعرها متموجاً بنعومة، لطالما عرفت أن لها شعراً غير عادي.. غرست أصابعها بين خصلاته لترتبه، وقبل أن تعود لتغفو لمحت الشاب الذي يجلس بجوارها وهو ينظر إليها بانبهار وإعجاب فصدت عنه، تعرف أنه يظنها في مثل سنه، فهي تبدو أصغر بكثير من عمرها، ولطالما نهرت الشباب عن معاكستها فقد كانت معتادة على نظرات الإعجاب التي تلاحقها أينما حلت.. أعادت المقعد الوثير إلى وضع الاستلقاء، وغاصت في ذكرياتها من جديد وهي تغمض عينيها..

عادت إلى الورا.. إلى عمر السابعة عشرة، عمر الغرور والاندفاع، عمر الطيش والتعطش إلى الحب، وكانت هي بالذات أكثر من غيرها متعطشة للعاطفة بشدة، خاصة بعد التغيير الذي اعترى جدتها.

تذكرت ذلك اليوم الذي غير حياتها، كانت تجلس مع صديقاتها في أحد المقاهي المعروفة في ذلك الوقت، كن خمس فتيات مراهقات جميلات، يفرحن بنظرات الشباب إليهن وتباهي كل منهن بعدد المعجبين الذين يتهافتون عليها.

كان المكان مزدحماً بالمراهقين، والشباب يحاولون لفت أنظار البنات بأحاديث صاخبة وحركات مكشوفة، ولأن أريج كانت أجمل البنات، كان الجميع ينتظر نظرة منها، كانت تحادث بعض الشباب على الهاتف بهدف

التسلية وإضاعة الوقت، كانت تلهو ليس إلا، لم تكن تلك المحادثات بالنسبة لها أكثر من وسيلة وجدتها لإمضاء الوقت الذي تمتلك الكثير منه ولا تعرف كيف تجعله يمر دون أن يقتلها مللاً..

تذكر جيداً لحظة دخوله إلى المقهى، لا تزال إلى اليوم تشعر بتلك الارتعاشة التي خالجت قلبها عندما رآته يدخل من الباب مع صديقه، دخل بطوله المهيب ووسامته الطاغية فشخصت إليه أبصار الجالسين، كان وسيماً إلى حد لا يصدق، تعترف أنه أجمل رجل وقعت عليه عينها إلى اليوم، كان يرتدي ملابسه بأناقة وكأنها قد صنعت خصيصاً لأجله، وعندما جال بعينه في المكان استقرت عينيه عليها ولم يستطع أن يبعدهما عنها!

همست لها صديقتها وهي تنهد حاملة: غانم المسعودي!

نظرت إلى صديقتها متسائلة: ماذا؟

كررت صديقتها وعلى وجهها ابتسامة مأكرة: اسمه غانم المسعودي، في العشرين من عمره، سيارته فارهة، بيته كبير يطل على الشارع العام في منطقة راقية، لديه عشرات المعجبات، لطيف، جميل، وغير قابل للمقاومة!

ضحكت أريج: ماذا تقصدين؟

قالت صديقتها: إنه لا يتسطيع إبعاد عينيه عنك، سيكون الأمر مسلياً إن تعرفت عليه.. فهو ليس شاباً عادياً..

لا تزال تحس بنظرات غانم المسعودي على وجهها في ذلك اليوم، لقد اعتادت على تلك النظرات لاحقاً بعد أن صار يلاحقها، استطاع الحصول على رقم هاتفها بسهولة ووجدت نفسها تنساق نحوه وتتعلق به إلى أن صار الشاب الوحيد الذي تحادثه بل وتتلهف إلى حديثه ودون أن تشعر وجدت نفسها تقع في حبه..

أحبته حباً تعجز الكلمات عن وصفه، أحبته أكثر من أي شخص في هذا العالم، لم تكن تظن أنه من الممكن أن يكون في قلبها متسع لكل هذا الحب الذي شعرت به نحوه، وغيرها الحب، صارت فتاة أخرى، فتاة مطيعة، لا تريد

من الدنيا إلا رضاه عنها، لم تعد تخرج مع صديقاتها بل قامت بمقاطعتهن كلهن بناء على رغبته هو، صار الأمر النهائي في حياتها، لم يكن لأحد في حياتها سلطة عليها سواه، ومنحته هي هذه السلطة عن طيب خاطر، أحبته وعندما تحب فتاة في عمرها جباً بهذا الحجم، يصبح الحب خطراً عليها..

أحبته لتعوض مشاعر الرفض التي اختبرتها من والديها، لم تعد تشعر أنها فتاة غبية كما تسميها أمها، بل صارت تشعر أنها فتاة ذكية محظوظة لأنها حصلت على قلب غانم المسعودي دوناً عن غيرها، اعترف لها أنه يحبها، حادتها لليل طويلة وهما يتخيلان كيف ستكون حياتهما معاً اختارت معه أسماء أولادهما، أخبرها أن يريد أن ينجب ذكوراً فقط، لا يريد أن تكون له بنتاً، في حين تمت هي أن ترزق بولد وبنت، تحب أن يكون لها طفل يشبهه وطفلة تشبهها.. كانا يختلفان على أسماء أولادهما وكأنهما قد تزوجا فعلاً ويتظران طفلهما الأول، أحببت أن تكون زوجته، وحلمت بأن تكون أماً لأولاده..

تعلقت به أكثر وأكثر وصار يأمرها فتطيعه أكثر وأكثر، ولأنها صارت طوع بنانه تمادت في الخروج معه، لم يكن يكتفي منها، صارت حياتها ممزقة بين مكالماته ولقائه، لم تعد تحس بمن حولها، حتى جدتها الحزينة لم تعد تطل عليها رغم أنها تعيش معها في بيت واحد..

كانت الخادمة الهندية في المنزل تلاحظ تغيرها، إنها خادمة قديمة، قضت عشرون عاماً من حياتها في خدمة الجد والجددة، كانت تحب أفراد المنزل كما تحب أبناءها وتخاف عليهم، حاولت الخادمة أن تكلمها ذات يوم، حذرتها من الرجال بعد أن أحست أن في حياتها رجل يستنزفها، لكنها لم تكن لتخاف من غانم، كانت تثق به، وتصدق كل ما يقوله، ستكون أم أولاده، ستكون زوجته فلم تخاف منه، فهو يؤكد لها أنه لن يتخلى عنها..

مرت أيامها متشابهة وهي غافلة متيمة بحبها لغانم الذي صار كل حياتها، إلى أن اختفت شارة أنوثتها، أحست بغثيان شديد ذلك الصباح، وبانتفاخ غير طبيعي في بطنها، متى اختفت شارتها؟ لا تذكر بالضبط، لكن الأعراض التي

أحست بها أخافتها! لم تعرف كيف تتصرف، ذهبت إلى الصيدلية مرتبكة، نظر إليها الصيدلي بدهشة وهي تطلب منه شراء اختبار للحمل، قالت وهي متلعثمة: طلبت مني أمي شراؤه لها!

ورغم شكه بارتباكها، إلا أنه أعطاها الاختبار، عادت إلى المنزل متعجلة مع سائق جدتها، كان هذا السائق العجوز يعرف غانم، بل إن غانم كان يعطيه المال كلما رآه وكأنه يرشيه ليتستر عليهما.

أجرت اختبار الحمل وهي ترتعش، وعندما ظهر ذلك الخط الذي يؤكد حملها لطمت خديها، إنها حامل، ما هذه المصيبة ياربي، لقد خسرت كل شيء، خسرت نفسها ومستقبلها وحياتها، خسرت احترامها لنفسها وثقة أهلها بها.. لكن مهلاً لم هي خائفة هكذا، لا يزال غانم معها، إنها واثقة بأنه لن يتخلى عنها، تعرف أنه يحبها كما تحبه، إنه لا يطيق الصبر عنها، لن يتركها غانم وهي تحمل طفله بين أحشائها، يمكنه الزواج منها على الفور، ليولد الطفل بطريقة رسمية، ربما يجب عليها أن تفرح لأنها حامل، سيكون زواجها من غانم قريباً، كم كانت غبية وقتها!

تحركت أريج على مقعدها في الطائرة وهي تشعر بشيء يجثم على صدرها، فالجزء القادم من ذكرياتها هو الأقسى عليها..

تذكرت نفسها وهي تقف أمام غانم وهي تقول: أنا حامل!

نظر إليها بدهشة، بدا كالمجنون وهو يهز كتفها: ماذا تقولين؟!!!!

أحست بأنها في مصيبة حقيقية وهي تقول: أنا حامل يا غانم!

صرخ بها: في أي شهر؟

حاولت أن تتذكر فلم تستطع، لكنها فجأة خمنت أنها على الأرجح في الشهر

الرابع من الحمل!

جن غانم وظهر على حقيقته التي لم تكن تتوقعها: لا شأن لي بهذا الطفل،

عليك التخلص منه بطريقة ما!

بكت وهي تستجديه: كيف أتخلص منه؟ ماذا علي أن أفعل؟

قال بقسوة: المشكلة مشكلتك، لا ترمي بهذه المصيبة علي!

صرخت: هي مشكلتك أنت أيضاً، فأنت والده!

قال بمنتهى الخسة وهو ينظر إليها باحتقار: وما أدراني أنني والده؟ أنت فتاة

ضائعة ويعلم الله وحده من هو والده!

صفعته، لم تكن كما يقول، كانت مجرد فتاة أحببت وصدقت الوعود الكاذبة، صحيح أنها أخطأت، لكنها لم تخطيء وحدها، فقد كان هو من زين لها طريق الخطأ، هو الذي استدرجها وغرر بها باسم الحب، هو الذي استغل صغر سنها وحرمانها من العاطفة، هو الذي استباحها ولم يخف الله فيها، تعرف أن المجتمع لن يدينه، لكنها تعرف أن الله لن ينسى فعلته، وسيدينه بجزاء من جنس عمله في يوم ما.. تعرف يقيناً أن لها ديناً في رقبته عليه أن يوفيه لها في يوم من الأيام مهما طال الزمن.. وأن هذا الدين عدل وحق ليشعر بكل ما شعرت به عندما فعل بها كل ما فعل وعرضها لكل هذا الهوان، في يوم ما سيتساوى غانم المسعودي بها ووقتها لن تشعر بالذل أبداً أمام ذكراه العفنة لأنهما سيكونان متعادلان.

تركها غانم، غير رقم هاتفه النقال، اختفى تماماً وكأنه لم يكن، لم تعد تستطيع الوصول إليه وكأن الأرض قد انشقت وابتلعتة، تسكعت أمام بيته الكبير كثيراً، تجرأت مرة وسألت الحارس عنه فأخبرها بأنه سافر ليكمل دراسته في الخارج، فعل فعلته وهرب وتركها وحدها لتواجه مصيبتها وابنه صار يركلها في بطنها ليدكرها بوجوده وبأن عليها أن تتصرف قبل أن تنالها الفضيحة وتسحقها..

امتعت عن الأكل، صارت تأكل القليل جداً من الزاد، مجرد ما يكفي لبقائها على قيد الحياة وإن كانت تتمنى الموت في كل ثانية، فهزها خير وسيلة لإخفاء حملها عن الأنظار، وصلت إلى الشهر السادس من الحمل دون أن يشك أي شخص حولها بها، كانت تموت في كل لحظة خوفاً من لحظة افتضاح أمرها، سألت الله الستر كثيراً وهي تبكي على سجادة صلاتها، تلك السجادة التي هجرتها منذ زمن فعادت إليها نادمة تائبة، كانت مصيبتها كبيرة وتعرف أنها

تأخرت في التخلص من الطفل ، لم تكن لها صديقة مخلصه تساعدها فقد خسرت جميع صديقاتها من أجل غانم، لقد باعت الجميع من أجله وعندما احتاجت إليه باعها بسهولة وتركها تواجه مصيرها وحدها.

مر شهر آخر على عذابها، هزلت إلى أن صار الجميع يسألها إن كانت تعاني من مرض ما، وكيف تخبرهم عن تلك الذلة التي تتأكل كرامتها وتنمو بين أحشائها دون توقف؟

في نهاية الشهر السابع بدأت تحس بالآم غريبة فجذعت ماذا لو ولدت قبل أوانها؟ عليها أن تتصرف، حان الوقت لأن تشارك بسرها مع شخص ما، لكن من يكون هذا الشخص؟

لم تجد أمامها سوى الخادمة، تلك الخادمة القديمة التي خدمت جدها وجدتها بإخلاص، ستطلب منها أن تخدمها هي أيضاً خدمة لن تنساها طوال العمر، تسللت ليلاً إلى غرفة الخادمة التي كانت تستعد للنوم عندما فوجئت بها تدخل إليها باكية، سألتها بحنان: أريج؟ ماذا حصل؟

نظرت إليها طويلاً قبل أن ترفع قميصها الفضفاض لترى الخادمة بطنها المنتفخ، ضربت الخادمة على صدرها جزعة وهي تسأل: أين أبوه؟ بكت أريج أكثر وهي تقول: لقد هرب!

ظلت تبكي واقفة وهي تحس بجدية وضعها، إنها حامل، ستأتي بطفل لا أب له إلى هذه الدنيا، طفل غير شرعي، طفل أنكره والده وهرب منه.

لمست الخادمة بطنها وقالت بحزن: في أي شهر أنت؟ قالت وهي تنتحب: سأدخل الشهر الثامن قريباً، أنا خائفة، أرجوك ساعديني.. انحنى أريج وقبلت يدها مستجدية رحمتها، بدت الخادمة يائسة من وضعها حزينة من أجلها ظلت واجمة لفترة وهي تفكر وأريج تبكي وتبكي، وأخيراً قالت: سأساعدك، لا تخافي.. سأصرف.. ولن يعرف أحد.

لم تسألها كيف ستصرف، فقد انزاح عنها عبء ثقيل بعد أن وجدت من تستأمنه على سرها، ليست وحدها الآن، صحيح أنها ستخوض التجربة القاسية،

لكنها لن تكون وحيدة على الأقل عند اللحظة الحاسمة.

مرت أيام من الخوف، واقترب موعد المخاض، صارت غرفة الخادمة جاهزة لاستقبال الطفل الذي سيأتي في أي لحظة، لم تعد أريج تخرج من البيت، ولم تعد الخادمة تفارقها ولحسن الحظ كانت عطلة الربيع قد بدأت ولم تعد مضطرة للتغيب عن المدرسة.

وفي ليلة لن تنساها فوجئت بتلك الآلام المتقطعة تجتاحها، لقد حان الوقت، قالت للخادمة وهي تبكي، صعدتا إلى غرفة الخادمة المنزوية في الطابق العلوي بصمت وجلستا معاً بانتظار النهاية..

ازداد الألم، دست الخادمة فوطة مبللة في فم أريج لتكتم بها صرخات ألمها كي لا يُفتضح أمرها، كانت أريج تشعر بالذعر وكأنها ستشل، خفق قلبها بشدة حتى كادت تشعر به يخرج من بين ضلوعها كلما زادت عليها حدة الطلق، هطل المطر في الخارج، كانت زخات المطر تطرق النافذة بقوة وكأنها تبكي عليها، تبكي على فتاة السابعة عشرة التي فرطت بنفسها ولم تحسب لهذا اليوم حساباً.. احتملت ألم الولادة بجلد وكل خلاياها متحفزة لطرد ذلك المخلوق من بطنها، تريد أن تتحرر منه ومن كل ما يتعلق بغانم الذي دعت عليه مراراً طوال فترة مخاضها، وأخيراً وبعد ساعات من المعاناة المؤلمة وُلد طفلها، أحست بانزلاقه وسمعت صوته الباكي وكأنه يعلن عن قدومه متحجباً على حظه في هذه الحياة..

همست الخادمة: إنه ولد..

نظرت إليه مجهدة بين يدي الخادمة التي حاولت أن تكتم صوت بكائه وهي تهدده وتغطي جسده بفوطة دافئة، انهمرت دموعها، لقد عذبتها هذا الولد كثيراً، وستعذبه هي طويلاً أيضاً، فقد أتت به إلى هذه الدنيا نتيجة استهتارها وفسقها، كيف سيعيش ولد مثله؟

انتبهت إلى الخادمة وهي تهتم بالخروج من الغرفة، صاحت بها: ماذا ستفعلين به؟

قالت: سأتخلص منه!

جزعت: تريدن قتله؟ إياك أن تؤذيه!!

قالت بنبرة مطمئنة: لن أقتله، سأتركه في مكان ما ليلتقطه أحد ويتصرف به.. اهدهي وابقى في مكانك إلى أن أعود، لدينا عمل كثير لنقوم به بعد هذه الليلة المتعبة.

ترددت أريج، نادتها: انتظري، أريد أن أراه!

نظرت إليها الخادمة بقلق، ودون أن تنفوه بكلمة ناولتها ولدها..

انهمرت دموعه ساخنة على خد أريج بالطائرة، لا تزال عاجزة عن منع دموعها من النزول كلما تذكرت تلك اللحظة، اللحظة التي احتضنت فيها ولدها بين ذراعيها، أحست وقتها أنها تريده أكثر من أي شيء في هذا العالم، لاحظت أطراف شعره المحمر الذي يشبه شعرها، لاحظت استدارة وجهه وذقنه التي ورثها منها، لم يكن يبكي وقتها، لكنها هي من بكت، قبلته على جبينه قبلة تعلم أنها الأولى والأخيرة، شدته الخادمة من بين ذراعيها وقالت بصرامة: يجب أن نتخلص منه بسرعة قبل أن يشعر بوجوده أحد!

خرجت الخادمة من الغرفة بسرعة دون أن تمنحها لحظة وداع مناسبة، لكن هناك وداع مناسب لأم تتخلى عن رضيعها بعد لحظات من ولادته؟

بقيت وحدها تنظر إلى سقف الغرفة، كانت تبكي بصمت، تبكي ندماً على زلتها التي لا تُغتفر، تبكي ألماً على طفل عليها أن تنسى وجوده وأن تمنع ذكراه من التسلسل لقلبها، عليها أن تجمد هذا القلب، أن تعصر دماءه وماءه، أن تحوله إلى حجر!

لم تدرك كم من الوقت قد مر عندما دخلت الخادمة إليها بيدين خاليتين، سألتها بلهفة: ما الذي فعلته به؟

قالت الخادمة: لا تقلقي، تركته بجوار الجمعية التعاونية، هناك امرأة لمحتني ونادتني ولحسن الحظ تمكنت من الهرب منها قبل أن تمسك بي، لا بد أنها رأت الولد، لا تخافي، سيكون بخير..

بدأت الخادمة على الفور بتنظيف الغرفة، وأغمضت أريج عينها بإعياء، تمنّت الموت وقتها، تمنّت أن لا تفتح عينها ثانية، لقد ولدت وتخلصت من عارها، لكن هذا العار صار يسكنها، ولم تكن متأكدة إن كانت تستطيع أن تتخطاه أو تداويه..

قضت اليومين التاليين في سريرها متعبة، اهتمت الخادمة بتغذيتها، كانت تلح عليها أن تأكل كي لا تمرض وتضطر للذهاب إلى المستشفى فيفتضح أمرها، لم تكن تشعر بطعم ما تضعه في جوفها، فجوفها قد امتلأ بمرارة عذابها، ولم يعد هناك ما تستطعمه من هذه الحياة...

في اليوم الثالث من ولادتها تحجر صدرها، لقد تجمع فيه حليب رضيعها وصار يؤلمها، أحست بالحمى تقتحم جسدها بلا رحمة، لجأت للخادمة فأحضرت لها ورقاً من الملفوف الطازج البارد، غلفت به صدرها لتعالج تحجره وامتلاءه، طمأنتها أن حليبها سيجف قريباً فاحتملت ألمها بألم أكبر وأعمق..

في اليوم السادس من ولادتها أتت الخادمة لتناديها، جدتها تريدها، لديها ضيفة من الجيران، وتريدها أن تجالسها معها، قامت متثاقلة، تجر ساقها جرأً، دخلت الغرفة، سلمت على صديقة جدتها العجوز التي علقت على شحوب وجهها: كفاكِ نحافة، كل البنات لا يأكلن جيداً هذه الأيام، تبدين وكأنكِ مريضة! اكتفت بابتسامة باهتة استطاعت بصعوبة رسمها على شفيتها رداً على الجارة المسنة، همست لنفسها: آه لو أنها تعرف بما حدث لي، لكانت فضحتني على الملأ!

بقيت صامتة وهي تكاد لا تلتقط من حديثهما شيئاً، إلى أن قالت الجارة مخاطبة جدتها: ألم تسمعي بالذي حصل مع جوهرة؟

سألتهما الجدة التي تعرف جوهرة تمام المعرفة: ماذا حصل معها؟ صرحت الجارة: وجدت طفلاً رضيعاً مرمياً تحت المطر بجوار الحاويات المخصصة للقمامة عند الجمعية التعاونية، يقولون أنها رأّت خادمة ترمي به هناك لكنها لم تتمكن من اللحاق بها بسبب ظلمة الليل وشدة المطر، كانت

عائدة من عرس أختها ليلتها.

انتبهت أريج، شعرت أن دقات قلبها قد تسارعت بشدة لدرجة أنها أحست أنها كادت تلهث، وضعت يدها على صدرها لتهدأ من روع نفسها وهي تتشاغل عن النظر إلى وجه العجوز الثرثارة التي قالت: لا بد أن تلك الخادمة كانت حاملاً به وتخلصت منه كي لا ينكشف أمرها، استغفر الله العظيم من كل ذنبٍ عظيم..

قالت جدتها: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عسى أن يحفظ الله بناتنا جميعاً من الشرور ويسدد خطاهن ويستر عليهن..
خفق قلب أريج أكثر وأكثر لدرجة أنها خالته سيتوقف عن الحياة ليريحها، لكن استمر بالخفقان وهي تسمع الجارة تردف قائلة: يقال أن جوهرة قد جنت بالطفل، وأنها مصرة على تبنيه، يقولون أنها أرضعته ولا زالت تحاول اقناع دار الأيتام بإعطائه لها لتربيته..

قالت الجدة: جوهرة امرأة طيبة، أنا أحبها كثيراً، لم تقم بزيارتي منذ زمن، سننال أجر عظيم إن احتفظت بذلك الطفل المسكين!

وهكذا عرفت أريج أن جوهرة قد وجدت ولدها، وبعد أن تتبععت أخبارها، عرفت لاحقاً أنها تمكنت فعلاً من احتضانه، كانت سعيدة لأن ولدها صار بين يدي امرأة مثل جوهرة لكنها كانت حزينة لأنها صارت تعرف مكانه وتعرف أنه يعيش في نفس الحي الذي تعيش فيه بل وعلى مقربة منها أيضاً..

بدأت الدراسة وأنهت أريج سنتها الثانوية الأخيرة بنجاح، لم تعرف شيئاً عن غانم المسعودي، لم تتابع أخباره ولم تحاول الاتصال به، فكيفها ما نالها منه من أذى، لكنها كانت واثقة دائماً أن الله سينتقم لها منه ولو بعد حين، لم تنس قط أن تدعي عليه في كل ليلة قبل نومها، كان دعاءها عليه عادة لم تنقطع منذ ولدت طفلها وتخلت عنه، فهي لن تسامحه أبداً، وستكون خصمه أمام الله يوم لا يتفع مال ولا بنون..

كانت محطة عاجزة وبلا مستقبل، كانت وحيدة في مصيبة تتأكل نفسها

وروحها، كانت حائرة مدمرة، ولا تعرف كيف تجبر كسر نفسها.

فكرت أن تهرب مثلما هرب غانم منها، عليها أن تهرب من ابنها، من ماضيها، من عذابها وبؤسها ستدرس في الخارج، نسبتها معقولة، يمكنها أن تدرس على حساب الحكومة وتنال بعثة دراسية في مكان بعيد، لن يرفض والدها، فأمرها لا يهمه، إنها حزينة لأنها ستترك جدتها وحيدة وهي في عز حاجتها إليها، لكنها مضطرة، لا حل أمامها سوى السفر، عليها أن تهرب مهما كان الثمن..

زفرت أريج على مقعدها في الطائرة وهي تتذكر، لقد حصلت على البعثة التي أرادتها بسهولة، لم يرفض والدها سفرها، ولم تهتم أمها لأمرها، حزنت جدتها لرحيلها، لكنها دعت لها بالتوفيق من أجل مستقبلها، لم تكن الجدة تعلم أن حفيدتها لم يعد لها أي مستقبل في الكويت، وأن سفرها هو الحل الوحيد الذي قد يمكنها من عيش حياتها مجدداً بعيداً عن كل ما قاسته على يدي ذلك الذئب البشري الذي نالها.

تذكرت يوم سفرها للدراسة بالخارج، كانت توضح أغراضها وهي تعلم أنها لن تعود، كانت ترغب بالهجرة، لا تستطيع أن تعود، لا يمكنها أن تعود، عندما ركبت سيارة والدها ليقبلها إلى المطار، مرت ببيت جوهرة، أرسلت إلى والدها وداعاً صامتاً من قلبها، دعت له أن يكون بخير، وأن يسخر الله له جوهرة لتحبه وتحميه وتمنحه ما عجزت هي عن منحه له.. تمنت لو أنها تستطيع أن تراه ولو من بعيد لكنها كانت أكثر جنباً من أن تحاول، عليها أن تهرب وكفى، وترك الماضي وراء ظهرها.

وسافرت، ودرست، تفوقت، تعرفت على صديقات كثير من الأجانب، كانت حسنة السلوك بعيدة عن كل الرجال، صارت تخاف من كل رجل يحاول التودد إليها، إنها تعرف الكثير عنهم، تعرف جيداً كيف يكذبون، كيف يمثلون الحب ثم يرحلون..

لم تنسَ قط تجربتها المريرة، ولم تنسَ قط صغيرها البعيد، كانت تتذكره كلما رأت أمّاً تحمل ولدها، وكلما لمست لعبة لطفل، وكلما رأت ما يخص رضيع

صغير، لم تنسَ قط خصلات شعره المحمرة كشرها وذقنه الصغير كذقتها.. كانت تحسب أيام عمره، وتقرأ عن التطورات التي يمر بها الطفل في سنه، اشترت بعض الكتب عن مراحل نمو الطفل، كانت تريد أن تعرف ما يمر به على الأقل، أكانت تحبه؟ لا تعرف إن كان ما تحسه نحو ذلك البعيد حباً، لكنها تعرف أنه جزء منها، دمه دمها ولحمه لحمها، تعرف أن بينها وبينه رابط أقوى من أي شيء، وتعرف أنها ستكون محرومة منه طوال عمرها وسيكون محروماً منها طوال عمره الذي تصر على حساب أيامه.

كانت تتصل أحياناً بجدهتها لتطمئن عليها، لقد أحضر لها والدها ممرضة لتهتم بها مع الخادمة، لم تكن جدتها تأتي على ذكر جوهرة، تمت هي أن تسألها لكنها تخاف أن تثير ريبة جدتها فلم تتجرأ حتى على النطق باسمها.

لم تعد في العطل إلى الكويت بقيت غالباً وحيدة في الشقة الصغيرة التي استأجرتها بمكان قريب من جامعها، حتى عندما كانت جدتها ترجوها أن تأتي لزيارتها كانت ترفض العودة رغم شوقها لحضنها الدافئ ولرائحتها الطيبة.

تخاف أن تعود، ولن تعود، ففي غربتها أمان لها، إنها تحمي نفسها من الماضي، ستبقى هنا وستعيش هنا، وعندما تتخرج ستعمل هنا لتحصل على الإقامة اللازمة لبقائها.

ومرت الأيام، عرفت أن بقاءها وحدها أمر صعب، فهي لا تزال صغيرة في العمر، ستكون مطعماً للكثيرين، عليها أن تجد رجلاً يصونها، رجلاً لن يسألها عن ماضيها ولا يهمله وضعها.

عليها أن تجد لها زوجاً أجنبياً، في تلك الفترة ساقته الأقدار لتعمل بدوام جزئي بعد الجامعة في مكتب إداري، كانت تحتاج للمال رغم أنها تستلم راتباً خاصاً بالبعثة، لكن ذلك الراتب كان كل ما لديها، فلا أحد من والديها يسأل عنها أو يمددها حتى بمساعدة مالية صغيرة لتعينها على الحياة، أرادت شراء سيارة ولم تكن تملك ثمنها، فقررت أن تعمل لتعيل نفسها ولتتمكن من شراء سيارة مستعملة صغيرة لتنقلاتها.

وفي ذلك المكتب تعرفت على ويليام، إنه يكبرها بعشر سنوات، شاب وسيم يرتدي بدلة رسمية أنيقة، شعره أشقر فاتح وعينه زرقاوان بلون البحر، كانت تلاحظ إعجابها بها ومحاولاته لاستمالتها، فكرت بأنه قد يكون الرجل المناسب ليستر عليها، يمكنه أن يشهر إسلامه من أجلها ويتزوجها فتعيش معه في بلده، كان زواجه منها فرصة لها، ستكون في ذمة رجل يحميها من الذئاب وسيخفف من وحدتها القاسية في غربتها التي لن تنتهي.

عرفت عنه أنه يعيش وحيداً، ويعمل في هذا المكتب منذ أربع سنوات، أخبرها أنه وحيد والديه اللذان يعيشان في ولاية أخرى بالقرب من الريف. كان دمث الخلق، لطيف الحديث، اعتاد أن يطري جمالها ويظهر إعجابها بصفاء بشرتها التي تبدو كبشرة الأطفال من شدة نعومتها.. وقتها تذكرت كم كان غانم يتغنى بجمال بشرتها فأحست أنها على وشك أن تتقيأ عصاره معدتها. أخبرته كاذبة أنها من عائلة متحررة وأخبرته أنها خاضت عدة علاقات سابقة ولم تجد الرجل الذي تحبه، لم تخبره قط عن قصة حملها وتخليها عن طفلها، أرادت أن تحتفظ باحترامه لها وبنظرة النظيفة إليها، لمحت له أنها تريد البقاء في أمريكا ولا تريد العودة إلى بلدها، أحس بانجذاب كبير نحوها، فهي جميلة جداً، وتبدو طيبة أيضاً، لم يكن يعرف أنها تحمل في داخلها أوجاعاً تملأ العالم، وخيبات لا سبيل لمحوها من ذاكرتها.

عندما أنهت دراستها الجامعية كانت علاقتها بوليام قد تطورت، صار يحبها ويلح عليها بالزواج، لا تنكر أنها كانت تستلطفه، لكنها لم تعد قادرة على أن تحب من جديد، لقد دمرها حبها الأول ولم يترك لها قلباً صالحاً للحب، ورغم ذلك قررت أن تحاول، عليها أن تحقق أمنيتها السابقة بتكوين أسرة تخصها.. عليها أن تنسى، يجب أن تنسى!

اتصلت بأبيها، أخبرته عن موعد حفل تخرجها، رجته أن يأتي، ولأنه لم يرها منذ سفرها ويعرف كم هو مقصر في حقها، أتى من أجلها، عرفته على ويليام، وأخبرته أنها تريد الزواج منه والعيش معه في بلده وأنها لن تعود إلى الكويت.

لم يجد أباهما سبباً ليرفض زواجهما، فالرجل موافق على أن يغير دينه من أجلها، وبما أنها لا تهتم أحداً في الكويت ولن يلحظ غيابها أحد باستثناء جدتها، فما المانع أن تتزوج ممن تريد وأن تعيش في المكان الذي يعجبها!

و تزوجت ويليام، وانتقلت إلى شقته بعد الزواج، وأصبحت تعمل معه في نفس المكتب بدوام كامل، عابتها جدتها في الهاتف لأنها اختارت الزواج من رجل أجنبي، كانت حزينة لأنها هجرت بلدها وبأنها ستعيش طوال عمرها بعيدة عن أرضها.

غير ويليام اسمه بعد إسلامه لكنها ظلت تناديه باسمه القديم، أرادت أن تحافظ على راحتته، فقد قدم لها كل ما كانت تبحث عنه، لقد قدم لها الستر والصحبة والمنزل، وعليها أن تقدم له الراحة في المقابل، فهي لا تستطيع أن تقدم لها مشاعر لا تمتلكها، فقلبها ميت ذبيح بين ضلوعها، تعرف أنها لن تستطيع أن تقدم له السعادة التي يحلم بها، فهي كومة من التعاسة المتنقلة إنها امرأة مقتولة تعيش بجسد بلا روح، لكن يمكنها على الأقل أن تريحه، أن تعيش معه في سلام وهدوء دون أن تفتعل معه المشاكل، ستحرص على أن لا تزعجه أو تؤذيه بأي شكل، يكفيها أنه أنقذها من وحدتها.

أخبرته منذ بداية زواجهما أنها لا تريد أن تنجب، كان قرارها قاطعاً، احترم رغبتها، فهو لم يكن مستعجلاً.. ظن أن هذا القرار سيتغير مع الوقت، لم يكن يتوقع أنها لا تريد الإنجاب أبداً..

في السنوات الأولى من زواجهما لاحظ ويليام أنها حزينة، وأن هناك ما يجعلها تسرح حتى في حضوره لدرجة أنه يضطر لمناداتها مراراً قبل أن تجيبه وتنتبه إلى وجوده، عرف أن هناك ما يشغل بالها، لكنه لم يستطع أن يعرف سرها، كانت لطيفة معه كصديقة قديمة، تعامله باحترام وتقدير، لم تقيد حرته أبداً، لم تسأله أبداً عن مكانه عندما يتركها ويخرج وحده، تركت له مساحة كبيرة من الخصوصية، أحس أنهما مجرد زميلا سكن لا زوجان، لم يشعر أنها تحبه لكنه كان يعرف أنها محتاجة لوجوده، والاحتياج في العلاقة أهم من الحب، فالحب

قد يغيره الزمن، لكن الاحتياج يجعل المرء أسيراً في قبضة الطرف الآخر، لم تكن أريج تشعر أنها أسيرته هو، إنها أسيرة ماضيها، ووجوده يبعد عنها قتمة الماضي، ويشعرها ببعض الأمان الذي سلبه الدهر منها منذ عرفت غانم.

كانت تكره حتى اسمه، تذكر تفاصيله فتشمئز من نفسها، تلوم نفسها على انحذارها وجريها خلف وعوده وكذبه، تكرهه كما لم تكره أحداً في حياتها، لم تستطع أن تسامحه أبداً فقد دمرها تماماً، لقد قضى عليها وعلى إنسانيتها، لقد أهدر كرامتها، وعندما يفقد الشخص كرامته يفقد قيمته أمام نفسه قبل الآخرين، لكنها رغم كل شيء كانت متيقنة من أنه سيتساوى بها في يوم من الأيام، فهي تؤمن بالعدل الإلهي إيماناً مطلقاً، وكان هذا الإيمان هو السبب الوحيد الذي أبقاها على قيد الحياة حتى الآن رغم كل ما جرى لها.

إنها أفضل من غانم، صحيح أنها خاطئة مثله، لكنها ثابتة وأثبتت وأحرق الندم فؤادها، تعرف أن عليها أن تتخطى ما حدث، لكن لجريمتها تبعة عظيمة، ذلك الولد القابع في منزل جوهرة، ولدها، كيف يمكنها أن تنسى أن لها ولداً حياً يرزق؟ ولد يؤكد وجوده فعلتها، ولد تتمنى أن تراه وفي نفس الوقت تخاف من فكرة وجوده!

حاول ويليام بعد عدة سنوات من زواجهما إقناعها بالإنجاب، طلب منها أن ينجب طفلاً واحداً على الأقل، طفل يُدخل الفرحة على هذا البيت الصامت، لكنها رفضت بإصرار، لن تخوض تجربة الحمل ثانية، لن تحتمل أن تعيش تلك التجربة مرة أخرى، لا تريد أن تتذكر، لن تصمد، تخاف من انهيارها.

في ذلك الوقت جاءها اتصال غير متوقع من خادمة جدتها، اتصلت لتخبرها أنها سترحل إلى بلدها، وأنها حصلت على رقمها من الجدة لتسلم عليها، لاتعرف لم أحست وقتها بنبرة تهديد في صوتها، أحست أن الخادمة تريد منها ثمن سكوتها، صحيح أنها لم تطلب منها شيئاً بشكل صريح، لكن اتصالها بها كان ذو مغزى لم تغفل عنه.

طلبت من الخادمة أن ترسل لها رقم حسابها في بلدها، ومنذ ذلك الوقت إلى

اليوم لازالت تودع فيه مبلغاً يوازي راتبها في الكويت.

قامت أريج مترنحة من مقعدها في الطائرة، توجهت إلى حمام الطائرة الضيق، دخلت وأفلتت بابه وراءها، نظرت إلى وجهها بضيق، ورغم أنها كانت تضع بعض المساحيق إلا أنها غسلت وجهها بالماء متجاهلة زيتتها البسيطة التي أتلفها الماء.

عادت إلى مقعدها وطلبت كوباً من القهوة من المضيفة، وبعد أن شربت قهوتها، عادت إلى ذكرياتها..

لم تسر الأمور على ما يرام مع ويليام لاحقاً، لقد اكتشفت أنه يخونها مع زميلة لهما في المكتب، كان ذلك الاكتشاف صدمة كبيرة لها، لم تكن تريد أن تتخلى عنه، وبنفس الوقت لم تكن تحتمل فكرة غدره بها.

ساعت علاقتها به جداً في تلك الأيام، صارا يتشاجران باستمرار، كانت تواجهه بخيائته فيتهمها بإهماله، يصرخ في وجهها بأنها لا تحبه بدليل أنها لا تريد أن تنجب له طفلاً، لم يفهم أبداً سبب رفضها للإنجاب، كان يراها لطيفة مع أطفال الآخرين، فلم لا تريد طفلاً يخصها؟ إلا إن كانت لا تريد أن ترتبط به ارتباطاً وثيقاً بأن تنجب منه ولداً يربطهما معاً للأبد، هكذا فسر ويليام الأمر لنفسه.

خرج زوجها من المنزل بعد أحد شجاراتهم وبات في منزل أحد أصدقائه، ظل في منزل صديقه لاسبوع كامل، تعذبت هي لأنه تركها، أحست أنها امرأة تعجز عن الاحتفاظ بأي رجل معها، أحست أنها مجرد امرأة غبية يهجرها الرجال الذين يمرون في حياتها بسهولة!

ذهبت إلى منزل صديقه لتستجديه أن يعود، وعداها أن يعود وأن يقطع علاقته بصديقه أيضاً إن وافقت على إنجاب طفل منه.

ورضخت له، لكنها لم تحمل، كانت عضلات جسدها تتشنج بالكامل كلما فكرت بالحمل، وكان جسدها يرفض حملها أيضاً، أخذها إلى أحد الأطباء الذي كتب لها بعض المقويات والعلاجات، أوهمته أنها تأخذها وتلتزم بمواعيدها، لكنها كانت ترمي بها في سلة المهملات من وراء ظهره، وأخيراً قرر ويليام أن

يتخلى عن فكرة الإنجاب برمتها بعد أن اضطرت لمراجعة طبيب نفسي من شدة الضغط الذي تعرضت له من قبله بسبب هذا الموضوع.

عندما راجعت الطبيب النفسي للمرة الأولى لم تستطع أن تبوح له بسرها، كانت خائفة منه، خاصة وأن زوجها هو من راجعه أولاً ليشرح له حالتها..

حاول الطبيب أن يحصل على ثقتها دون جدوى، كانت متحفظة معه، أخبرته أنها لا تريد أن تتحمل مسئولية طفل تربيته، تخاف من المسئولية، ولا تريد أن تنجب أبداً..

أعطاها الطبيب مضاداً للاكتئاب فأحست ببعض التحسن لفترة، لكنها عادت وانتكست بعدها بشدة، ورغم أنها تعودت بعد ذلك على زيارة الأطباء النفسيين الذين جربوا معها عدة أدوية مختلفة إلا أنها لم تبح أبداً لأي منهم بسر ماضيها الذي لم تتعاف منه قط.

لقد دفعت ثمن ماضيها غالياً، لم تهناً أبداً، ولم تعرف معنى السعادة يوماً.. وما بين مد وجزر في علاقتها بزوجها مرت السنوات بهما معاً.. لم يتركها ويليام، لم تسمح له بأن يفعل، ولأنه يحبها، لم يستطع أن يتخلص منها رغم أنه لم يكن سعيداً تماماً معها.

مرت ثلاثة وعشرون عاماً بالتمام والكمال منذ تركت الكويت، وعندما وصلها خبر وفاة جدتها بكت بشدة..

كانت الوحيدة التي أحببتها، ولأنها قصرت في حقها كثيراً قررت أن تعود بعد كل هذا الغياب لتحضر عزاءها...

تعرف في داخلها أن حضور العزاء ليس السبب الوحيد لعودتها، فجدتها رحلت وانتهى الأمر ولن تستطيع توديعها حتى وإن عادت، لقد فات الأوان، لكنها أوجدت لنفسها سبباً لتعود أخيراً لتراه، تريد أن ترى ولدها حتى ولو من بعيد... تريد أن ترى ذلك الجزء منها، الجزء الذي بقي يعيش في قلبها رغم أنها رمت به بعيداً عنها منذ وقت طويل، الجزء الذي لم تستطع أن تتحرر من حقيقة وجوده رغم كل هذه السنين.

(62)

إلى متى؟

دخلت ورد منزل خالتها جوهرة، كانت غاضبة، مرت عدة شهور منذ قرر أيوب أن يجافيتها تعرف سبب تصرفاته معها، لكنها مستاءة من أنه مصر على موقفه منها، لم تكن لتتنازل عنه أبداً، وفي ذلك اليوم قررت أن تكلم خالتها بهذا الموضوع بصراحة.

جلست جوهرة مع ورد واستمعت لها، كانت تبتسم وهي تنظر إليها أثناء حديثها عن أيوب تعرف كم تحبه لكنها في ذلك اليوم تيقنت من حجم هذا الحب وجديته، فورد تنفسه، كانت سعيدة من أجل أيوب، وفي نفس الوقت حزينة من أجل ماجدة، فلا شيء أحب إلى قلب جوهرة من أن تراهما معاً في بيت واحد، وأن ترى أحفادها من ورد وأيوب، لكنها تعرف أن طريق زواجهما سيكون وعراً ورغم ذلك وعدت ورد بأنها ستحدث مع أيوب وستدخل بينهما. قالت ورد قبل أن تقوم لترحل: أخبريه أن ما يفعله معي لن يغير من مشاعري نحوه شيئاً، بل على العكس، أخبريه أنني أكثر عناداً منه، وأنني لن أتزوج من غيره مهما فعل بي!

ربت جوهرة على كتفها مطمئنة وهي تقول: لا تقلقي حبيبتي، سأحدث معه، وسأحدث مع أمك، عليها أن تتقبل هذا الحب وأن تباركه، لا ذنب لأيوب بأي شيء، إنه ولد صالح وسيكون زوجاً لا مثيل له، إنه ولدي وأنا أكثر من يعرفه. خرجت ورد فارتدت جوهرة عباءتها لتذهب إلى منزل جاريتها المرحومة نزيهة، فاليوم هو اليوم الثاني من أيام العزاء، كانت تحبها كثيراً، وتذكر مجلسها الطيب وحسن أخلاقها، إن رحيلها خسارة كبيرة لكل من يعرفها. كان الجو صحوماً في عصر ذلك اليوم، وعندما خرجت من البيت لمست

نسמת الهواء العليلة وجنيتها، سارت إلى منزل نزيهة، ولاحظت السيارات الكثيرة حول المنزل بحزن، فالكل يحب هذه المرأة التي لم تؤذ أي أحد في حياتها، دعت لها بالرحمة وهي تدخل، فالتقت بجارة أخرى، همست لها الجارة: لقد وصلت حفيدتها إلى الكويت، يمكنك تعزيتها، إنها تجلس في أول مقعد على اليمين بجوار زوجة أبيها.

ردت جوهرة: صحيح؟ الحمدلله أنها عادت لتحضر عزاء جدتها، لقد هاجرت منذ زمن وتزوجت من رجل أجنبي، جدتها المسكينة كانت تتحرق شوقاً لرؤيتها.. رحمك الله يا ماما نزيهة..

دخلت جوهرة إلى صالة المنزل، وبمجرد أن لمحتها أريج عرفتها، لا تزال تتذكر ملامحها جيداً رغم كل هذه السنوات، صحيح أنها تغيرت بفعل التقدم في السن لكنها تعرفت عليها بمجرد دخولها.

اقتربت جوهرة من أريج، فوقفت تلك الأخيرة لها، كانت يدها ترتعش عندما صافحتها جوهرة التي قبلتها وهي تقول: عظم الله أجرك حبيبي أريج، لقد مرت سنوات طويلة منذ رأيتك آخر مرة.. كنت أتمنى لو أننا التقينا في ظروف أفضل. قالت أريج بصوت مرتعش: صحيح، أذكر أن جدتي كانت تحبك كثيراً..

ردت جوهرة: وأنا أيضاً كنت أحبها كثيراً، أتعرفين، كانت مشتاقة لرؤيتك بشدة، لبيتك عدت قبل وفاتها، رحمها الله.. إنها امرأة لن تتكرر... همست بضعف: رحمها الله وأسكنها فسيح جناته..

تحركت جوهرة لتسلم على بقية النساء وعيني أريج لا تستطيعان أن تبتعدا عنها، جلست جوهرة وبين يديها جزء من القرآن الكريم لتقرؤه، كانت أريج تراقبها خلسة، وهي تسأل نفسها: ترى كيف يعيش ولدي معها؟

كان الفضول يكاد يقتلها، عليها أن تجد طريقة ما لتزور جوهرة في بيتها، تريد أن تعرف كيف يعيش ولدها، تريد أن تراه، يجب أن تراه، لن تعود إلى غربتها هذه المرة إلا بعد أن تراه.

هروب وتأجيل

كانت عذاري غاضبة وهي تسير بجوار شهاب بالمشى وهي تقول: لقد أخرجتني بشدة أمام أهلي، أكاد لا أصدق أنك وضعتني في هذا الموقف! كيف تعتذر عن القدوم مع أمك قبل الموعد بنصف ساعة فقط؟ ولم؟ من أجل وفاة جارتكم! لا أعتقد أن هذا سبب كافٍ لهذا التصرف المهين!

كان شهاب يقدر ما تمر به، لقد وافقت أمه بعد عناء على أن تتقدم لخطبتها من أجله، لقد خاض الكثير من الشجارات مع أمه وأبيه من أجلها، وعندما وافقا على رؤيتها مبدئياً وجدت أمه في موت جارتهم حجة كي تلغي الموعد بمجرد أن سمعت بالخبر، والأسوأ أن والده وافقها على هذا التصرف فوجد نفسه مضطراً للاعتذار من عذاري عن الحضور قبل الموعد المحدد لقدمهم بنصف ساعة!

كانت عذاري قد استعدت لحضوره مع أهلها، اشترت ثوباً جميلاً وسرحت شعرها بطريقة مميزة كما قامت بالكثير من الترتيبات في المنزل لاستقباله مع أمه، لم تتوقع أنهما سيخلفان موعدهما بذلك التوقيت المتأخر، قالت أمها أنها توقع عدم قدومهما فهي تعرف كمية الحقد التي تحملها عائلة أبيها نحوهم، في حين صرحت أختها أنها هي أيضاً توقعت هذا الاعتذار المهين في اللحظة الأخيرة مما يدل على عدم موافقة أهل العريس المنتظر على أختها المصونة! حاول شهاب امتصاص غضب حبيته وبصعوبة شديدة استطاع اقناعها بأن تأتي للقاءه في المشى، أحس أنها محقة في غضبها، فالموقف الذي تسببت به أمه كان محرراً له ولها.

قال شهاب مسترضياً: جارتنا تلك مقربة جداً من أمي، الكل يحبها في حيننا،

لم يكن من اللائق أن تخطب لي أُمي بعد سماعها بخبر وفاتها، حاولي أن تقدري موقفها.

زفرت عذارى، وقفز كمبو بينهما مداعباً، لقد اعتاد على شهاب، وصار متعلق به، كما كانت صاحبه..

مد شهاب يده وشد خصلة من شعرها مداعباً: إلى متى ستبقيين غاضبة؟ أبعدت يده عنها وهي تقول: إلى أن تفي بوعدك لي وترد اعتباري أمام أهلي. قال بصدق: لقد انتهى العزاء بالأمس، ولا عذر الآن لأُمي، سأتكلم معها الليلة وأطلب منها الاتصال بأمك لتحديد موعد جديد..

قالت بحدة: أتمنى أن لا يموت أحد من جيرانكم أيضاً في يوم الموعد الجديد..

ضحك وهو يدعو: أتمنى أن يطيل الله في عمر جميع جيراننا وأن يرتعوا جميعاً بالصحة والعافية والرخاء..

صمتت عذارى وظلت تسير بجواره غاضبة، لكزها بكوعه وهو يقول: هيا، ابتسمي من أجلي، لا أحب أن أراك هكذا، سأفي بوعدتي، وستزوج، ثقي بي.. ستزوج حتى لو كان هذا الزواج رغماً عن أهلي.

نظرت إليه، كانت مستعدة للزواج به حتى من غير موافقة أهله، ما شأنها بهم؟ المهم أن يكون لها وأن تعيش حياتها بقربه، إنها تحبه، تحبه بصدق، صارت تعرف أن شهاب اقتحم قلبها، إنها تتلهف على لقائه وتحفظ كل كلمة يقولها لها، تشعر بقلبها يهفو إليه كلما نظرت نحوه، لم تكن تظن أنها ستستطيع أن تحب من جديد وبهذه السرعة، لكن شهاب استطاع أن يحقق المستحيل وأن يقتحم قلبها بشخصيته المرححة وحنانه الجارف عليها.

قالت له: أتعرف.. أنا مستعدة للزواج بك من دون موافقة أهلك! ضحك: إنهم موافقون، لا تقلقي، سأحدث مع أُمي الليلة، وسأطلب منها أن تكلم أمك ثانية..

عاد شهاب ليلتها إلى البيت والتصميم مرتسم على وجهه، كانت جوهرة

تجهز غرفة فضة التي صارت في شهرها التاسع، وكان أيوب يجلس معها في الغرفة يتحدثان عن موضوع ورد عندما دخل عليهما مقاطعاً حديثهما.

قال شهاب: أمي، أريد أن أكلّمك في موضوع مهم.

قام أيوب من مكانه فقالت جوهرة: تكلم، لا أحد غريب هنا، إنه أخاك.

لم يعلق شهاب على كلامها وقال: الموضوع يخص عذارى، أريدك أن تتصلي بأمرها غداً وتحديدي معها موعداً آخراً لخطبتها.

زفرت بضيق: لا يزال الوقت مبكراً..

قال بإصرار: تهربك من الموضوع لن يغير شيئاً، لن أقبل بأي عذر هذه المرة، وعلى فكرة إن لم تأتي معي سأزوج من عذارى من دون حضورك، ليكن هذا واضحاً!

شهقت جوهرة، أحست بطعنة نافذة إلى قلبها عندما قال لها ولدها هذا الكلام، أيحب هذه الفتاة ويهمه أمرها أكثر منها؟ معقول أن يتزوج دون موافقتها ودون حضورها!

أحس أيوب بما تمر به جوهرة، وعندما خرج شهاب قال لها مواسياً: لا تغضبي منه ولا تنزعجي.

قالت باستنكار: ألم تسمع ما قاله للتو؟

قال بهدوء: إنه يحبها، يحبها بصدق، قفي معه وسانديه كي لا تخسريه يا أمي.

سكتت جوهرة، إن أيوب على حق، وما يقوله عين الصواب، عليها أن تساند ولدها، وما دام يحب هذه الفتاة حقاً عليها أن تقف في صفه من أجل سعادته وراحته ففي النهاية هذه حياته الخاصة ومن حقه أن يختار من يريد لتكون شريكة حياته بغض النظر عن رأيها الشخصي بها، ثم إنها لا تعرفها، ومن يدري، قد تكون فتاة صالحة طيبة، وقد تحبها هي أيضاً في يوم من الأيام، تعرف أن ولدها صعب المراس وما دامت الفتاة ستحتمله وتحبه كما يحبها، عليها أن ترضخ للأمر الواقع وتزوجه منها.

في صباح اليوم التالي اتصلت جوهرة بأم عذاري واعتذرت منها بلطف على إلغاء الموعد السابق، وحددت لها موعداً جديداً في مساء اليوم التالي.

أخبرت شهاب بأمر اتصالها فجن فرحاً، أخذ يقبل رأسها ويراقصها بطريقة ضاحكة، ضحكت معه رغم تلك الغصة التي كانت تشعر بها لأنه هددها بالزواج من غير رضاها، لم ترد أن تعاتبه أو تفسد فرحته، المهم أن تراه سعيداً، تريد أن ترى جميع أولادها سعداء فتلك هي الأمنية الكبرى لكل أم.

في مساء اليوم التالي ارتدت جوهرة ثوباً أنيقاً، وبمجرد أن ركبت بجوار شهاب ليذهبا إلى الموعد، رن هاتف جوهرة، كانت فضة هي التي تتصل لتخبرها أنها تحس بالآلام المخاض وأنها في طريقها إلى المستشفى لتلد مولودها الأول!

(64)

غيرة

جلست ياسمين في غرفتها في منزل أهلها وهي تشعر بانقباض رهيب في صدرها لدرجة أنها أحست بالاختناق..

كانت ترتدي ثوباً منزلياً قصيراً بلا أكمام وقد تركت شعرها الأشقر متموجاً على كتفيها، كانت جميلة أكثر من أي وقت مضى، فقد تغيرت حياتها كلياً.. لقد طلقت من خالد، وعادت إلى منزل أهلها ورغم أن أمها لا تزال غاضبة منها وبالكاد تتحدث إليها، إلا أنها سعيدة لأنها لم تبق زوجة لرجل لا تحبه ولا تطيقه إرضاء لأمها وأهلها.

أمر آخر استجد في حياتها، لقد أحبت، أحبت حباً كبيراً عميقاً لدرجة أن حبها لضاري قد تلاشى تماماً وكأنه لم يكن، لقد أحبت حباً جديداً، حباً لم تتوقع أن تشعر بمثله في يوم من الأيام.. لقد أحبت ووليد!

نعم، وليد المحامي الذي حصلت على حريتها بسببه، وليد الوسيم ذو الشخصية الأسرة، وليد الذي تشعر أنه يملك سحراً لا يقاوم.

تذكر كيف كان يتصل بها ليطمئن عليها بعد طلاقها، وتذكر كيف كانت تتصل به لتسأل عنه بين حين وآخر، تذكر تلك المكالمة التي طال فيها الحديث بينهما فوجدا نفسيهما ينجران في حديث طويل شيق لدرجة أنهما لم يحسا بمرور الساعات لشدة انسجامهما معاً.

تذكر زيارتها المفاجئة له بمكتبه وهي ترتدي أجمل أثوابها، وتذكر انبهاره بجمالها وإطراءه لأناقتها وذوقها.

تعرف أنه ينتظر طفله الأول من فضة، لكنها لم تستطع أن تكبح جماح مشاعرها الجارفة نحوه، ما ذنبها إن كان متزوجاً؟ وما ذنبها إن كانت تعرف

زوجته وابنة خالتها؟

لقد كرهت ورد، صارت متباعدة عنها، تلك المتعجرفة المغرورة التي تظن أن الكون طوع بنانها، إنها تغار منها منذ أعجب بها ضاري ورغم أنه لم يعد يهمها الآن إلا أنها لم تستطع أن تتخلص من غيرتها منها، ووجدت في هذه الغيرة سبباً لتقنع نفسها بالابتعاد عنها رغم أنها في قرارة نفسها تعرف جيداً أنها خانت ورد التي أحضرتها إلى وليد بنفسها ولم تكن تتوقع أبداً أنها ستقع في غرامه.

عرفت أن فضة قد رزقت بولد هذا الصباح، أخبرها وليد بنفسه بالخبر، ورغم أنها حاولت أن تسيطر على نبرة صوتها التي تغيرت إلا أن وليد أحس بما تشعر به فهمس لها: قدوم الطفل لن يغير من مشاعري شيئاً، فأنا أحبك، اطمئني. تعرف أنه يحبها، إنه مفتون بها، لكن فضة الآن أم ولده، ستكون لها مكانة مهمة في حياته، وغالباً لن يفكر بتخليها إن تزوج منها هي.

كانت تلمح له عن الزواج، وأظهر هو استعداد لهذه الخطوة، أخبرها أنه يستطيع أن يؤمن لها مسكناً مستقلاً، في حين تبقى فضة وولدها مع أمه في البيت.

تعرف أن أهلها لن يرفضوا زواجها، لم يعد أي منهم يملك سلطة عليها، لقد تمردت وتحررت وحصلت على الطلاق رغماً عنهم، ولن يتمكنوا من الوقوف في طريقها إن أرادت الزواج من وليد.

كانت تفكر بوليد طوال الوقت، سيكونان سعيدان معاً، يمكنها أن تدفعه لتطبيق فضة لاحقاً، فعندما يتزوجها سيتعلق بها أكثر، وقتها يمكنها أن تضغط عليه، لا تطيق فكرة أن تشاركها امرأة أخرى في رجلها، لم تكن تركبتها النفسية تؤهلها لتحمل وضع كهذا فهي غيورة جداً بطبعها.

لم تعمل ياسمين بعد طلاقها، فهي كسولة مدللة، اقترح وليد عليها أن تتدرب في مكتبه، ستكون فرصة رائعة ليراها كل يوم، ولن يحس أحد بما بينهما، فهي محامية، ولن يشك أحد في المكتب بأمرها.

فرحت هي بالفكرة، وعندما بدأت تعمل في مكتب وليد أحبته أكثر، إنه يملك هيبة لا يستهان بها، وكأن لديه هالة من الواجهة تشع من حوله، كان يخلع قلبها بوسامته، ويُشعرها حضوره أنها تحبه أكثر من أي شخص في الدنيا. حرص على معاملتها برسمية أمام موظفي المكتب، لم يكن بيتسم لها حتى، لكنه عندما يجتمع بها في مكتبه وحدهما كان يغمرها بأجمل كلمات الحب والغزل.

كانت تقضي وقتاً طويلاً لتتزين قبل أن تذهب للمكتب، ارتدت في كل يوم ثياباً مختلفة عن اليوم الذي قبله، أرادت أن تبهره بحسنها وأناقتها، تعرف أنه يحب الأناقة والكمال في الشكل، وفيما يخص شكلها كانت تقيم نفسها على أنها فتاة كاملة المواصفات!

قامت من مقعدها ونظرت إلى نفسها بالمرآة، لمحت بشرتها البيضاء الناعمة كبشرة طفل، وعينيها الخضراوان بلون الفيروز، ابتسمت لانعكاس صورتها في المرآة، ضحكت وهي تقلد القصة الشهيرة: يا مرآتي يا مرآتي من هي أجمل امرأة في الوجود؟

ضحكت أكثر وهي ترد على نفسها بنبرة أخرى: أنتِ ولا أحد غيرك! كانت مغرورة بنفسها، واثقة جداً بما لديها من حسن، إنها امرأة تعرف قيمة نفسها، وتعرف أن جمالها أهم ما تملك في معركتها مع فضة، ففضة امرأة عادية، بل أقل من عادية في نظرها، ولو كان زوجاً مقتنعاً بها ما كان لينظر إلى غيرها أساساً، هكذا كانت تؤكد لنفسها، تعرف أنها بهذا الجمال يمكنها أن تكسب وليد وأن تسيطر على مشاعره، عليها فقط أن تحسن توظيفه جيداً وأن تتعامل بذكاء في كل ما يخص هذه العلاقة التي لن تسمح لها بالانتهاء إلا لصالحها.

(65)

أم جديدة

انجرف وليد وراء ياسمين، انجرف أمام جمالها الفاتن وأناقته الملفتة، إنها من صنف مختلف عن صنف زوجته، كانت أكثر انفتاحاً وأكثر تبعاً للموضة، كانت أنثى بحق، في حين أحس أن فضة أصبحت تشبه أمه نوعاً ما!

كان يلاحظ جسدها المنتفخ بسبب الحمل بانزعاج، فهو يكره السمنة، لم يكن يقدر ما تمر به من تغييرات من أجل أن تنجب طفلاً له، لم يكن يعرف كم أصبحت ثقيلة الحركة بهذا البطن الكبير الذي يسكنه ولده القادم، لم يكن يشعر بها وهي تتقلب في فراشها عاجزة عن النوم بسبب آلام ساقها، لم يكن يحس بأنها لا تستطيع التنفس كلما استلقت لتحاول النوم فتقضي ليلها تتقلب في فراشها متعبة.

عرفت فضة أن المولود القادم ذكراً، وفرح هو بالخبر، لكنه صار متباعداً عنها، كان يقارن بينها وبين ياسمين دائماً، يتذكر رشاقة الأخيرة وخصرها النحيل فيتحسر على فضة التي أصبحت أقرب إلى كرة منها إلى امرأة!

لم تشعر فضة بتباعده عنها فقد كانت مشغولة بالتحضير للطفل القادم، كانت سعيدة بأمومتها، هادئة في تقبل التغييرات والخطوط التي ظهرت على جسدها، تعرف أن ما تمر به فترة مؤقتة، وأنها ستحرص على استعادة رشاقته بعد الولادة، كانت سعيدة بتلك المشاعر التي تفيض بداخلها كلما ركلها جينها أو تكور في أحشائها، وكانت سعيدة باهتمام أمها وأم زوجها بقدم حفيدهما الأول، كانتا تشتريان له الكثير من الملابس والحاجيات، الوحيدة التي لم تفرح لها هي جنان التي كانت تتعمد كلما رأتها أن تلمح لها عن وزنها الزائد وشكلها الذي أصبح يظهرها بأكبر من عمرها.

عندما فاجأتها آلام المخاض خافت كثيراً، شعرت أن لحظة حاسمة من حياتها قد حانت، اللحظة التي ستصبح فيها أمًا، ما أجمل أن يكون لها ولد، كان ذلك حلمها منذ صغرها، أن تتزوج من رجل تحبه وتكون معه عائلة، لقد تحققت أغلب أحلامها!

أحست بالحاجة إلى أمها في ذلك اليوم أكثر من أي وقت مضى، وعندما اختبرت آلام الوضع أحست بتقدير وإجلال لكل أم تتحمل كل هذا الألم من أجل أن تنجب أبناءها.

عندما رأت أمها بجانبها اطمأن قلبها، كانت جوهرة تبكي طوال الوقت فأشفقت عليها كثيراً فهي تكره أن ترى دموعها، أحست أنها تتعذب من أجلها ورغم أنها هي التي كانت تعاني تمت لو استطاعت التخفيف من معاناة أمها. عندما خرج طفلها إلى الحياة قربته الممرضة من وجهها لتراه، كان صغيراً جداً، أصغر بكثير مما توقعت، لم تدقق بملامحه من شدة الإعياء، لكن تلك اللحظة كانت أجمل لحظة في حياتها كلها دون شك.

حمل وليد ولده بحرص، بدا سعيداً لأنه صار أباً، أخبرته أمه أن الولد يشبهه وهي تبكي فرحة، فقد كانت تتمنى أن ترى أولاداً أولادها منذ زمن وقد حقق الله لها هذه الأمنية.

جاء أحمد إلى المستشفى، كان مرتبكاً، لقد أصبح جداً، وبمجرد أن رأى الطفل الرضيع وقع في حبه، أحس أنه أغلى شيء في عالمه، عرف أن هذا الصغير سيقاسم فضاء مكانتها في قلبه، فلا أعز من الولد إلا ولد الولد.

في وسط كل تلك المشاعر الجميلة، اتصل وليد خلصة ياسمين ليبشرها بأنه أصبح أباً، لم يحتمل أن لا تشاركه فرحته تلك لقد نسي أن خبراً كهذا سيثير غيرتها، لكنه طمأنها بكلامه عن قوة ارتباطها بها، وبمجرد أن أنهى المكالمة تمنى لو أنها كانت هي من ولدت له هذا الطفل بدلاً من فضة!

يعرف أنه يظلم فضة فيما يفعل، لكن قلبه لم يعد ملكه، كان يظن أنه يحبها، لكن ياسمين بددت هذا الظن وأكدت له العكس، إنه يحترمها كزوجة مخلصة

رائعة لم تقصر أبداً في حقه، لكنه لم يعرف الحب الحقيقي إلا مع ياسمين التي احتلت تفكيره وقلبه فصار يحلم باليوم الذي يتزوجها فيه. كان قادر مادياً على أن يتزوج ثانية، لكنه يعرف أن هذا القرار لن يكون وقعه هيناً على زوجته الأولى، خاصة وأنه لا يملك أسباباً مقنعة ليقدم على هذه الخطوة، وإن صارحها بتغير مشاعره نحوها سيحطم كبرياءها وهي لا تستحق منه كل هذا التعنت.

عندما نُقلت فضة إلى غرفتها الخاصة، اقترب منها وليد وقبل رأسها، أحس بالشفقة عليها فقد بدت له في قمة الإعياء، التقطت يده وقربتها من شفيتها الجافتين، قبلتها بحب، وقالت: أهلاً بوالد ابني..
ابتسم لها وقال: حمدالله على سلامتك يا أم يوسف..
لقد قرر أن يسميه يوسف تيمناً باسم أبيه الراحل.

ابتسمت فضة، إنها تحب هذا الاسم، وسعيدة جداً بأنها صارت أم يوسف. أتى أيوب في نفس وقت حضور شهاب صدفة فدخلوا الغرفة معاً، فرحت جوهرة لرؤيتهما معاً، فابتسمت لهما برضا وهي تدعو الله في سرها أن لا يفرق بين شملهما أبداً.

بدا أيوب سعيداً جداً بالصغير الذي أحضرته الممرضة إلى الغرفة، حملة بين ذراعيه بحذر وهو يمتدح تفاصيله..
قالت له جوهرة: مبروك، لقد أصبحت خالاً..

ابتسم لها، تريد أن تجبر بخاطره الكسير، كم هي طيبة.
بدا شهاب منزعجاً، فقد تسبب هذا الطفل بتخريب مواعده الثاني مع أهل عذارى، كانت غاضبة منه، ولا يستطيع لومها على غضبها، لقد أخلف وعده لها مرتين، وأخرجها مجدداً أمام أهلها، كانت في موقف لا تحسد عليه عندما اتصل بها قبل الموعد بقليل ليخبرها أن أخته ستلد وأن أمه لن تتمكن من الحضور لخطبتها اليوم أيضاً، ما هذا النحس! صرخت وقتها وبكت!
نادته جوهرة وهي تراقب ملامح وجهه المتجهمة: شهاب، احمل ابن

أختك..

قال وهو يصد عن الطفل: لا أحب الأطفال في هذا العمر..
ضحك أيوب وهو يقول: قل أنك تخاف أن تحمله..
تجاهل أيوب ولم يرد عليه..

قالت فضة: احمله من أجلي يا شهاب، أحب أن أرى ولدي بين يديك يا أخي.. كما رأيته بين يدي أخي أيوب.

شدت على كلمة أخي وكأنها تؤكد لأيوب مكانته في قلبها، نظر إليها بامتنان لا حد له، لقد كانت دائماً أختاً حانية عليه، يثق أنه لو كانت له أخت من لحمه ودمه لما كانت أحسن عليه من فضة الرقيقة.

رن هاتف وليد، إنها ياسمين، تجاهل اتصالها، وصلت له رسالة منها: أريد أن أراك اليوم!

أحس وليد أنها ستجن، يستطيع أن يتنبأ بما تمر به، لقد أصبح يحس بها حتى وهي بعيدة عنه، إنها أنثى ثائرة، فحبيبها قد رزق بولد من امرأة غيرها، كان الله في عونها، همس لنفسه!

كان ينظر إلى الأمور بميزان غير عادل، إنه ميزان الهوى، فبدلاً من أن يحس بالذنب تجاه زوجته التي يخونها بلا مبرر، زوجته التي أنجبت له ولداً للتو، كان يحس بالذنب تجاه تلك المرأة الأخرى، المرأة الدخيلة على حياته، المرأة التي لا صفة لها، والتي تحاول أخذه من بيته وامراته وطفله تحت مسمى الحب!

عندما رن هاتفه من جديد بإلحاح اضطر أن يستأذن من الجميع ليرد، خرج من الغرفة مسرعاً، كانت ياسمين على وشك الانهيار، صرخت بمجرد أن رد عليها: يبدو أن المولود قد أنساك كل شيء!

ضحك: مستحيل، أنت لا يمكن نسيانك!

قالت كطفلة مدللة حمقاء لا تطيق الصبر لتحصل على دمية تعجبها: أريد أن أراك الآن، وحالاً!

قال برجاء: ياسمين، أهل زوجتي هنا الآن، كل العائلة مجتمعة، لا أستطيع أن

أراك في هذا الوقت، قدرتي موقفي، سيكون وضعي مريباً إن تركتهم وخرجت، سيظنون بي الظنون!

قالت بإصرار: لا يهمني ما يظنون، أخبرهم أن أحد الموكلين يريدك في أمر هام.. تحجج بأي شيء وتعال لرؤيتي..

لم يصمد وليد أمام إلحاحها، كانت تتصرف بطريقة غير منطقية، لكنه كان يحبها، إنه سعيد بغيرتها الحمقاء، ويشعر بالزهو لأنها فتاة مثلها تتهافت عليه بهذه الطريقة المكشوفة.

دخل إلى الغرفة وتعذر من الجميع، أخبرهم أن لديه اجتماع طارئ مع أحد الموكلين بخصوص قضية مهمة..

ودع فضة بابتسامة مصطنعة وهو يوصيها مجاملاً: اتصلي بي إن احتجت لشيء، أراك غداً..

ابتسمت له بحب وهي تقول: حفظك الله ورعاك..

خرج مسرعاً فكاد يصطدم بأخته التي أتت بوجهها المتجهم، باركت له ورد عليها على عجل وانطلق، انطلق وراء الأخرى، وترك زوجته الغافلة غارقة في فرحتها.

(66)

لقاء ومواجهة

أتت الممرضة لتأخذ الطفل إلى غرفة الأطفال بعد رحيل وليد، وبعد عدة دقائق دخلت ماجدة مع ورد، قبلت ماجدة جوهرة وقالت لها مداعبة: لقد كبرت، صرت جدة!

ضحكت جوهرة وهي تقول: هذه سنة الحياة، أتمنى أن تري أبناء ورد وتصبحي جدة مثلي..

كانت ورد تنظر إلى أيوب الذي حاول أن يتشاغل عن نظراتها بالعبث بهاتفه النقال، قبلت ماجدة فضة وهي تبارك لها، وفعلت ورد مثلها، وفي تلك اللحظة خرج أيوب من الغرفة،

لم يكن يطيق رؤية ماجدة، لم يعد يحتمل حتى سماع صوتها، احتار إلى أين يذهب، فاتجه إلى جناح الأطفال، نظر عبر الزجاج إلى ولد فضة، كان الولد نائماً كملاك صغير، فكر، أيمن لفضة أن تتخلى عن هذا الملاك وترمي به بالشارع كما فعلت به أمه؟

انزعج من هذا الخاطر، تألم، فكبت ألمه، فمثله يعرف جيداً كيف يكبت مشاعره من طول ما فعل..

ظل يحدق بالطفل متمنياً له حياة سعيدة، تمنى له كل الخير في هذا العالم، تمنى أن يحظى بأسرة متماسكة وبحب لا ينتهي، كم هو محظوظ لأن لديه أم مثل فضة، أم لن تتخلى عنه تحت أي ظرف، واثق هو من أنها ستكون أمّاً عظيمة كما كانت دائماً ابنة وأختاً عظيمة.

لم ينتبه لاقتراب ورد منه وهو غارق في أفكاره، وقفت ورد بجواره صامته، أحس بوجودها فجأة فجفل، قالت وهي تنظر إلى الطفل أيضاً كما يفعل: أتمنى

أن يرزقنا الله بولد مثله!

فوجيء بأمنيتهما، ألن تستوعب أنهما لن يتزوجا؟

قالت: مهما فعلت لن أتركك، ومهما هجرتني لن أنساك..

لم يجد رداً على كلماتها، يعرف أنها تتعذب بسببه، لكن عذابه أكبر من عذابها، لا أحد يمكنه أن يتخيل حجم عذابه في بعدها.

عادت لتقول: أنت حققت لأمي ما تريد، ونسيت كل الحب الكبير الذي بيننا، تريد أن تحطم هذا الحب وتخفقه وترمي بي لرجل آخر باسم التضحية، تظن أنني سأسعد مع غيرك؟ أنت تعرف أن هذا مستحيل..

رد بحزن: علينا أن نضحى أحياناً من أجل مصلحة من نحبهم..

قالت: وماذا إن كانت هذه التضحية ستقتلهم؟ ما أدرك أنت أين مصلحتي؟ أخبرني يا أيوب، أعتقد حقاً أنني أستطيع أن أعيش مع غيرك؟ أعتقد فعلاً أنني قادرة على نسيانك؟ أعتقد أنني لا أعرف مصلحتي؟ لست غبية فأنا أعرف وضعك جيداً، وراضية به تماماً، أنا واعية ومدركة لكل ما تفكر به أمي، لا يهمني أي شيء سوى أن نتزوج، وأن نكون أسرة تخلصنا، أسرة نكون أنا وأنت أساسها ويكون أولادنا امتدادها، أسرة ذات أساس مبني على الحب والتفاني والإخلاص، ما شأننا بالآخرين مادمننا سعداء معاً؟ ألا يستحق حبنا أن يعيش؟ ألا نستحق أن نسعد معاً أنا وأنت؟؟ أخبرني ألا تحبني كما أحبك!

كانت كلماتها صادقة، وقد لاقت صدى في نفسه، لم يكابر؟

إنه يحبها، ويعلم أنها تحبه، ربما كان فراقهما خطأ! ربما كان زواجه منها في مصلحتها فعلاً، لن تجد رجل يحبها بقدر ما يحبها هو، ولن يكون هناك أي رجل في هذه الدنيا سيهتم بأن يسعدها بقدره هو.

إن الشهور التي أمضاها بعيداً عنها كانت أسوأ أيام حياته، صار يائساً تعيساً وها هي أمامه هزيلة تعيسة مثله، لم يعذبها؟ لم لا يثق بها وبنفسه، لم عليه أن ينصاع لأوامر ماجدة؟ تلك المتعجرفة الأنانية التي تريد أن تسيرهما على مزاجها!

أحس بالغضب من نفسه لأنه عذب ورد، إنها أقوى منه، ففي حين تمسكت هي به رغم كل الضغوط تخلى هو عنها عند أول مواجهة.
كانت ورد تغمض عينيها، أحست أنها تنزف وجعاً، أحست أن قلبها قد ذُبح بصمته، لا تطيق أن تعيش بعيدة عنه، ولا تعرف كيف هو السبيل إلى قلبه لتحطم عناده وتعيده إليها.

التفت إليها، فشعر بحبه الكبير لها يتفجر في صدره، لم يعد يطيق فراقها، سيستسلم، فلا حياة له بدونها، ولن يتركها تتعذب أكثر..
مد يده.. واحتضن يدها المتدلّية بجوارها، فتحت عينيها ونظرت له بدهشة، نظر إليها بحب وقال بصدق وكأن يشد صوته من أعماق أعماق نفسه: أنا آسف! سامحيني!

و دون أن تتكلم احتضنت أصابعه بين أصابعها، ودموعها تنهمر على خديها، دموع الفرح الذي لم يخالجها منذ قسى عليها..

((عندما تحتضن أصابعي أصابعك أشعر أنني ملكت العالم، وأن كنوز الدنيا وما فيها صارت طوع بناني)).

(67)

طفل محبوب

تغير المنزل بوجود فضة وابنها فيه، فقد انتقلت إلى بيت أهلها بعد الولادة.. كان يوسف الصغير هادئاً كثير النوم، لم يكن كسائر الأطفال في عمره، كان طفلاً هيناً كأمه عندما كانت رضيعه، هكذا صرحت جوهرة: صحيح أنه يشبه أباه، لكنه يملك هدوء أمه.

كان أحمد سعيد جداً بالحفيد الأول، لم يعد يخرج من البيت، وكان بالكاد يفارق الطفل الذي يصر أن يحمله بين ذراعيه حتى وهو نائم، حاولت جوهرة أن تفهمه أن عليه أن يترك الطفل ينام في سريره كي لا يتعود على أن يكون محمولاً طوال الوقت فيتعب أمه لاحقاً، لكن أحمد كان يصعب عليه أن يرى الطفل دون أن يحمله.

أحست فضة بفرحة لا تضاهي وهي ترى أن طفلها قد صار محط اهتمام العائلة، حتى شهاب كان يمر لملاعبته أثناء دخوله أو خروجه من المنزل.. أما أيوب فكان مسخراً من أجل متطلباتها التي لا تنتهي ويحرص كل الحرص على أن لا تحتاج شيئاً.

عندما زار وليد فضة في منزل أهلها، ظل يحدق في طفله طويلاً، اقتربت فضة منه وحاولت احتضانه، فوجدت منه صداً، نظرت إليه متسائلة فقال: عليك أن تستعيدي رشاقتك!

جرحها تعليقه، فقد ولدت للتو، ومن الطبيعي أن تحتاج لبعض الوقت لتعود كما كانت، كانت ملاحظته التي وجهها لها قاسية وفي غير محلها، أحست بالخجل منه لأنه صدها، كانت تحب أن تضمه إلى قلبها، فهو زوجها ووالد ابنها ويفترض أن يصبح الرابط الذي يجمعهما معاً أقوى بعد انجابها فلم يعاملها بهذا الجفاء ويجرح مشاعرهما عامداً بتلمحيه المجحف بحقها؟

منذ تلك الحادثة لم تتجراً على الاقتراب منه ثانية، كما أصبحت تقلل من أكلها بشكل ملحوظ مما أثار استياء أمها التي تصر على أن تتغذى جيداً في هذه الفترة الحرجة، فالطفل يحتاج اهتماماً عظيماً كما أنها تقوم بإرضاعه، أخبرت أمها أنها قد تضطر إلى استخدام الحليب الصناعي إن صار حليبها غير كاف للطفل، فهي تريد أن تستعيد قوامها بسرعة قبل أن تعود إلى بيتها.

كان وليد قاسياً معها، يحادثها كأنها مربية لابنه، لم تحظ منه بأية لمسة حانية، ولم تسمع منه أي كلمة حلوة، فكل ما يقوله لها نصائح عن طريقة اهتمامها بولده وتعليقات جارحة عن وزنها الذي زاد وقوامها الذي اختلف!

كانت منزوعة منه بشدة لكنها حاولت أن تبدأ بممارسة الرياضة بشكل بسيط، وبختها أمها كثيراً عندما دخلت عليها الغرفة فجأة فوجدتها تقوم ببعض التمارين الرياضية، أخبرتها أن الوقت لا يزال مبكراً جداً للبدء بأمر كهذه، لم تعرف أمها أنها تسمع تعليقات تحرجها من زوجها، لم تكن تحب أن تتكلم عن زوجها أمام أي أحد، فكل ما يحدث بين الزوجين عليه أن يبقى بينهما، هكذا كانت تؤمن فضة.

أتت ورد لزيارة فضة أكثر من مرة، وكان أيوب دائماً بانتظارها، لقد عادت علاقتهما كما كانت، ولم تعرف ماجدة بعد بهذه العودة، صارا يخافان على جبهما من ماجدة، لا يريدانها أن تعرف فتحاول تفريقهما من جديد، فكلاهما لا غنى له عن الآخر.

في مساء أحد الأيام رن هاتف المنزل، فرد أيوب على الاتصال، كانت جوهرة تحمل الرضيع وتهدهده في صالة المنزل في حين كانت فضة نائمة في

غرفتها.

قال أيوب لجوهرة: هناك سيدة تريدك على الخط!

سألته وهي تهمس كي لا تيقظ الطفل: لا أستطيع أن أتكلم الآن فالطفل نائم،
سألها عن اسمها وسأعود الاتصال بها بعد قليل..

رفع أيوب سماعة الهاتف وهو يسأل: أُمي مشغولة الآن، عفواً من معي كي
تتصل بك لاحقاً؟

أتاه صوتها وهي تقول: معك أريج خلدان، حفيدة المرحومة نزيهة، أخبرها
أنني أريد أن أزورها لأبارك لها على ولادة ابنتها.. سأعطيك رقم هاتفي، أخبرها
أنني بانتظار اتصالها..

أمسك أيوب هاتفه النقال ليسجل رقمها فيه وهو يقول: حسناً، ماهو رقم
هاتفك لأعطيه لها؟

أعطته أريج رقمها، سجله أيوب في هاتفه النقال، لم يكن ليخطر في باله أبداً
أن هذا الرقم هو رقم أمه التي كان ينتظرها من زمن طويل.

(68)

لا أريدك!

كان شهاب يعرف أنها غاضبة منه، تلقى جملتها تلك بصبر: لا أريدك! قالتها له عشر مرات على الأقل في خمس دقائق وهي تسير مع كمبو في الممشى وتحاول أن تسبقه في خطواتها الصغيرة..

لم تكن ترد على مكالماته مؤخراً فقام بانتظارها في الممشى، كان واثقاً من أنها ستأتي ومتأكداً من أنها ستكون غاضبة منه..

كانت تبدو مضحكة في غضبها، لم تكن تبدو جادة بالنسبة له، فكلمة لا أريدك التي ترميه بها كانت أشبه بمزحة، فهو يعرف جيداً أنها لو لم تكن تريده حقاً لما كانت غاضبة منه كل هذا الغضب ولما أتت إلى الممشى وهي متيقنة من وجوده.

مشى وراءها بسهولة بخطواته المتسعة بساقيه الطويلتين وهو يمازحها: عذاري، توفقي، لا أستطيع اللحاق بك، أنت سريعة جداً.. ارحميني.. كادت أن تضحك وهي تسمعه، تعرف أنه يسخر منها، لكنها كانت مجروحة بسبب تخلفه عن الحضور إلى منزل أهلها مرتين متتاليتين..

تعرف أنه غير مسئول عن هذه الظروف وأنه صادق برغبته بالتقدم لخطبتها، لكن صورتها أمام أهلها غدت مهزوزة لدرجة أن أمها أخبرتها أنها لن توافق على استقبالهم في حال طلبوا منها موعداً جديداً!

مديده أخيراً وشدها من كتفها لتلتفت له، صارت بمواجهته تماماً، نظر إلى عينيها وقال: أنا آسف، أعرف أنني أخرجتك..

نظرت إليه، زفرت، متى ستتزوج منه وترتاح؟ تريد أن تستقر، أن تعيش معه أجمل أيام حياتها.. إلى متى سيظل موضوع خطبتها مؤجلاً؟

فهم تساؤلها من عينيها، لقد صار يفهمها دون أن تنطق بحرف، قال بحنان:
قريباً، أعدك أننا سنتزوج قريباً..

قالت وهي تعاود السير بجواره: شهاب.. عدني أنك لن تتخلى عني أبداً
مهما حصل..

قال بحرارة: أعدك.. لن أتخلى عنك أبداً مهما حصل، سنتزوج قريباً بل قريباً
جداً جداً، أنا أعدك..

ابتسمت بهدوء، وسرت الطمأنينة في قلبها الصغير..
وسارت بجواره إلى آخر الطريق..

((أنت زرعت في قلبي الصغير ذلك الخوف من أن تتركني..
لم أعد أستطيع العيش من دونك فقد صرت نأسرني..
أحبك وما عدت أحتمل بعدك عني فمتى تجبرني؟
بقربك، بأن أكون زوجتك، أرجوك لا تخذلني..))

(69)

بلا نوم

تقلبت أريج في فراشها في الفندق، لم تستطع البقاء في منزل جدتها بعد انتهاء العزاء، فذلك البيت يذكرها بأسوأ أيام حياتها، لم تكن تطيق أن ترى غرفتها القديمة، ولم تكن تحتمل فكرة أن الغرفة التي أنجبت فيها ولدها موجودة في هذا البيت أيضاً.

هناك توجد كل الغرف التي عاشت فيها أسوأ كوايس عمرها، خرجت بعد العزاء من البيت إلى هذا الفندق الفخم الذي تركت فيه جميع أغراضها، لم تقض الكثير من الوقت مع أهلها، أحست أنها غريبة عنهم، لم تشعر بالألفة بينهم، لقد هجرتهم منذ سنوات، ولم تعد تحس بأي انتماء إليهم.

مؤلم أن يشعر المرء بالغربة وهو بين أهله، ومؤلم أكثر أن ينسى وجود والديه وهما على قيد الحياة، لم تفكر بزيارة أمها ولا حتى بالاتصال بها لتخبرها أنها في الكويت، لا تشعر بالرغبة برؤيتها، لا تحتاج لرؤيتها، لم يعد في حياتها وقت للمجاملات.

تعرف أنها خاطرت عندما اتصلت بجوهرة لتطلب زيارتها بحجة المباركة لقدوم مولود فضة تُرى من يكون الشاب الذي رد عليها في الهاتف؟ أهو ابن جوهرة أم ابنا هي؟

استرجعت في ذاكرتها المنهكة اتصال جوهرة بها وترحيبها بقدومها، وتحديدها لموعد لهذه الزيارة بعد يومين.

لا تعرف أريج ما الذي ستفعله بالضبط خلال هذه الزيارة، كل ما تعرفه أنها تريد الاقتراب من ولدها، تريد أن تراه، ولو من بعيد، لم تكن تنوي إخباره شيئاً، لا تستطيع أن تفضح نفسها بعد كل هذه السنوات، لكن هناك صوت ما في

رأسها يخبرها أن عليها أن لا تذهب وأن تعود من حيث أتت، تساءلت.. تعود لمن؟ للألم؟ للعذاب؟ لويليام الذي تورط بوجودها بحياته فحرمته حتى من أن يكون أباً؟ تعود لأدويتها النفسية التي تصيها النعاس وتشعرها أنها تنظر للحياة وكأنها تعيش تحت الماء؟ معزولة هي عن العالم بتعاستها، بعالمها الداخلي الذي يأبى أن يرحل عنها، بأفكارها التي لا تتوقف عن مهاجمتها، بحزنها الذي ينتصر عليها في كل كرة، بأساها الذي صار جزءاً لا يتجزأ منها.

تذكرت بأن وويليام لم يسأل عنها منذ غادرت إلى الكويت، لم يرقم حتى بالاطمئنان عليها، ربما يكون سعيداً برحيلها، لقد قدم لها الكثير في حين لم تقدم له هي أي شيء ذا قيمة..

كان بيتها كثيراً مثلها وروحه مطفأة كروحها، لا تعتقد أنها امرأة قد يفتردها أحد إن غابت عنه فحضورها يساوي غيابها، لم تقلق على وويليام؟ ستعود إليه قطعاً وتعرف حق المعرفة أنه سيكون بانتظارها، لكنها لن تعود كما كانت هذه المرة، سترى ولدها وتلقيه وإلا فإنها لن تترك أرض هذا البلد!

لن تعود قبل أن تراه، تريد أن تواجه فعلتها، أن ترى ذلك الطفل الذي أنجبته وتخلت عنه تريد أن تطمئن أنه بخير، وأنه لم يتحطم بسببها، وأنه يستطيع اكتمال حياته حتى وهو لا يعرفها، تريد أن ترتاح من إحساسها العميق بالذنب، تريد أن تتحرر، ولن تتحرر إلا عندما تراه وتقيم وضعه، عليها ترتاح، وترمي بالماضي وراء ظهرها، ومن يدري، قد تنجب لويليام، كثير من النساء أنجبين في سنهما، يمكنها أن تمنحه ولداً إن تحررت من عقدها تجاه ولدها، يومين فقط وتنفك عقدها، ستذهب إلى منزل جوهرة وستطلب منها أن تعرفها على ولديها، لترى فلذة كبدها، ذلك الطفل الذي لم تنسه أبداً منذ غادر رحمها وسكن قلبها.

(70)

تعارف

بدت عذاري شديدة القلق وهي تتحرك في صالة منزلهم جيئة وذهاباً بلا توقف، قامت أختها عهود واقفة وهي تقول: لقد أصبتني بالصداع وأنت تتحركين هكذا! سأذهب إلى غرفتي!

نظرت إليها عذاري برجاء وهي تقول: أرجوك لا تذهبي، أكاد لا أطيق نفسي! أخاف أن يلغوا موعدهم معنا هذه المرة أيضاً، لن أحتمل ذلك!

قالت أمهما التي بدت في أتم زينتها وكأنها هي العروس لا ابنتها: أنا التي لن أحتمل ذلك، إن ألغوا الموعد هذه المرة أيضاً لن أقوم باستقبالهم مهما فعلوا! أحست عذاري باليأس، أرادت الاتصال بشهاب لتطمئن أنه وأمّه في طريقهما إلى منزل أهلها لكنها خجلت أن تتصل به، قد تكون أمه بجواره، من غير اللائق أن تبدو ملهوفة عليه هكذا أمامها!

كانت عذاري تبدو جميلة رغم القلق المرتسم على وجهها، بدت كدمية صغيرة بوجهها المستدير وعينيها الجميلتين وجسدها الصغير، ارتدت ثوباً بلون الفضة، ثوب قصير يكشف عن ركبتيها ويظهر تفاصيل قوامها المتسق، ورغم الكعب العالي الذي ترتديه تعرف أنها لن تصل إلى طول شهاب ولن تتوافق معه أبداً مهما ارتدت تحت قدميها.

مرت الدقائق ببطء قاتل، وأخيراً سمعن صوت سيارة ما تقف خارج البيت، تحفزت حواس عذاري، وكادت أن تبكي فرحاً عندما دق جرس الباب..

نظرت من النافذة غير مصدقة فقد كان شهاب يقف مع أمه أمام مدخل بيتهم، قفزت فرحة وهي تقول: الحمد لله، لقد أتيا!

نظرت إليها أمها بلا حماس ونادت الخادمة لتخرج لفتح الباب..

وقفت عذاري بجوار أختها بانتظار دخولهما، لم ترد أن تبقى في غرفتها وأن يتم استدعاؤها لاحقاً كما هي العادة في مثل هذه المناسبات، كانت تخجل من أن تدخل لتعابنها أم زوجها وتقيم جمالها كالبضاعة، أرادت أن تستقبل أم زوجها بنفسها وأن تجنب نفسها حرج دخولها بتلك الطريقة القديمة المبتذلة برأيها.

دخلت جوهرة للمنزل مع شهاب، بدا شهاب وسيماً أكثر من العادة بوجهه الحليق ودشداشته المرتبة، كانت رائحة الطيب تفوح من ثيابه، وسعاده بعذاري مرتسمة على وجهه..

بدت جوهرة جامدة الملامح، لم تكن تريد أن تصاهر هذه العائلة، حتى زوجها لم يكن يريد ذلك، لكنها رضخا من أجل ولدهما الذي لم يترك لهما الخيار إلا ليرضخا لما يريد.

صافحت أم عذاري جوهرة، كانت تبدو مختلفة عنها، جوهرة بجمالها الطبيعي ولباسها المتناسب مع عمرها وشعرها الداكن الذي جمعته خلف رأسها، في حين بدت أم عذاري منتفخة الوجه والشفاه بفعل إبر التجميل التي شوهدت الكثيرات، كان شعرها مصبوغ باللون الأشقر والخصل الثلجية الفاتحة، وبدت من كثرة المساحيق والألوان في وجهها أشبه بمهرج في سيرك.
قالت عهدود: أهلاً وسهلاً، أنا عهدود، وهذه أختي عذاري..

ابتسم شهاب لعذاري ابتسامة مشجعة، في حين نظرت جوهرة مباشرة إلى ثوبها القصير باستنكار، أحست عذاري بالخجل من ثوبها، فشدهته تلقائياً عليه يطول قليلاً فيُعجب أم حبيبها المستنكرة!

جلست عذاري بجوار أمها وأختها في حين جلس شهاب بجوار جوهرة، كان التوتري يسود الجو حولهم، بدا التنافر واضحاً بين العائلتين، وارتبكت عذاري وقد أحست بالخطر يحرق بها، يجب عليها أن تنال استحسان جوهرة بأي شكل، لكن جوهرة التي كانت تلاحظ ملابس أمها الضيقة وثوب أختها الصارخ بعينين منزعتين، كان من الواضح صعوبة الحصول على أي استحسان يخصهم منها!

قالت أم عذاري بتهكم: وأخيراً أتيتم ولم تخلفوا موعدكم معنا.. بصراحة ما كنت لأوافق على استقبالكم لو أنكم لم تأتوا اليوم!

كان تعليقها عدائياً مما أثار استياء جوهرة، فقالت: لم يكن الأمر بيدنا ففي المرة الأولى توفيت جارتنا وهي عزيزة جداً على قلوبنا رحمها الله، وفي المرة الثانية أحست ابنتي الوحيدة بالآلام المخاض، ومن غير المعقول أن آتي لزيارتكم وابنتي في أمس الحاجة إلي أليس كذلك؟

قالت عهود لتخفف من التوتر حولهم: معك حق يا خالتي.. وحمدلله على سلامة ابنتك.. ماذا أنجبت؟

قالت جوهرة بصوت بارد: أنجبت ولدًا، يوسف..

قالت عذاري بلطف: ماشاء الله، حفظه الله وأبقاه لكم.

ردت جوهرة: شكرًا..

كانت الفتاة جميلة في نظرها، لكنها قصيرة جداً بالنسبة إلى ولدها، إن حجمها لا يتناسب مع حجمه، وثوبها القصير لا يعجبها البتة، ألا تخجل هذه البنت من نفسها؟ لكن كيف تخجل وأما ترتدي ثياباً أسوأ من ثيابها!

تأملت جوهرة بيتهم، إنه بيت ذو طابع مختلف عن بيتها، إنه بيت على الطراز الحديث ولا يشبه بيتهم التقليدي البسيط، جاء رجل يرتدي زياً مزركشاً لتقديم الشاي، لمحته جوهرة باشمئزاز، كيف يوظفون رجلاً لخدمتهم والمنزل مليء بالبينات! لم يعجبها هذا الأمر أبداً.

لاحظ شهاب نظرات أمه، فقرر أن يتدخل لإنقاذ عذاري فقال: أختكم الكبرى تعيش بالخارج؟

قالت الأم بسرعة وكأنها لا تريد أن تسهب بالحديث عن ابنتها تلك: نعم، متزوجة وتعيش بالخارج مع زوجها.

صمت شهاب، فقد أحس بعدم رغبة الأم بالخوض في هذا الحديث بالذات..

وفجأة انطلق كمبو نحو الصالة وهي ينبح ويقفز على قطع الأثاث ليصل

إلى عذاري التي استقبلته بين ذراعيها، وقفت جوهرة صارخة: ما هذا!!!
ضحكت عهدود: هذا كمبو، كلب عذاري، لا تخافي يا خالتي إنه أليف جداً،
لا يعض!

امتعضت جوهرة وهي تقول: كلب في وسط البيت! ألا تقلقون من النجاسة!
ضحكت أم عذاري وهي تقول: أي نجاسة! لا أفهم شيئاً، الكلب صديق
الإنسان، فالكلاب أوفى من الناس هذه الأيام، صدقيني.

بدأت جوهرة منزعة بشكل لا يوصف لوجود الكلب داخل البيت، كانت
تنظر له بين ذراعي كنتها المنتظرة باشمئزاز، وعندما لاحظت عذاري نظراتها
قررت أن تأخذه بعيداً عن المكان عليها تهدأ..

كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ في تلك الليلة، رفضت جوهرة أن
تأكل أي شيء من ما قدم لها، كانت صارمة فيما يخص وجود حيوانات أليفة
في البيت وتهتم كثيراً بما يخص النظافة، لم يكن وجود كلب في بيتها مسموحاً،
فكرت بأنها ستشترط على شهاب بأن تتخلص فتاته من كلبها في حال قررا
السكن عندها في البيت.. لن تساهل أبداً في هذا الموضوع ولن ترضخ له أبداً
هذه المرة مهما فعل!

دارت أحاديث متقطعة بينهم، لم يتمكن شهاب من كسر ذلك الجمود الذي
أصاب أمه، كان واضحاً أنها لم تُعجب بعذاري وبيبتها، وبالمقابل كانت أمها
عدائية، لم تحاول على الإطلاق أن تكسب ود جوهرة أو حتى احتوائها.

انتهت الزيارة أخيراً وفي السيارة كانت جوهرة مستاءة للغاية من اختيار
شهاب لعذاري، لم تتحدث في موضوع الخطبة أبداً مع أم عذاري ولم تلمح
له، وعندما عاتبها شهاب على ذلك أخبرته أن هذا اللقاء للتعارف فقط وطلبت
منه أن يعيد النظر في اختياره.

في بيت عذاري كان الوضع مشابهاً، وصفت أمها جوهرة بالمتخلفة، وبأنها
لا زالت تعيش في العصور الوسطى، رمتها بكل وصف يعبر عن التخلف

والتزمت، لم تحبها أبداً ولم تكن متحمسة من زواج ابنتها من ولد هذه المرأة المتطلبة.

أحست عذراي بخيبة كبيرة عندما دخلت إلى غرفتها بعد تلك الأمسية الفاشلة بجميع المقاييس، استلقت في سريرها حزينة فأحس بها كمبو الذي قفز بجوارها وصار يلاطف وجهها بأنفه، احتضنته إلى صدرها وأخذت تفكر، هل ستتزوج شهاب فعلاً أم أن أمه سترفض هذا الزواج؟ ويضيع منها الشاب الذي أحبه كثيراً فأعطاها الأمل من جديد في هذه الحياة؟

((صعب علي أن أفكر بالحرمان منك، من غياب وجودك في حياتي، لا يمكنني أن أتصور يوماً أعيشه من غير صوتك، ذلك الصوت الذي صار عشقي ومرادي، وجودك ملاً قلبي بالأمل، وجودك أتى كالفجر بعد ليل أسود طويل خلت أنه لن ينتهي، وجودك أشبه بماء عذب سكب على تربة فتتها العطش، وجودك صار هاجسي، سعادتني، وأغلى شيء في حياتي)).

(71)

ما الأمر؟

جلست فضة أمام وليد وهي تتأمل وجهه..
 طلبت منه أمها القدوم للبقاء معها لحين عودتها مع شهاب..
 كان وليد يحمل ابنه النائم ويتأمل ملامحه الصغيرة بحب، لكنه لم ينظر نحو
 فضة ولا حتى نظرة واحدة في حين لم تفارق عيناها ملامحه..
 سألته وهو يضع الطفل في مخدعه: وليد.. انظر إلي.. لم لا تنظر إلي وجهي؟
 غطى الطفل برفق والتفت لها: أنا؟؟ ها أنا ذا أنظر إليك!
 قالت: اجلس، أريد أن نتحدث..

جلس أمامها بجمود، بحثت في وجهه عن حبه لها فلم ترى فيه إلا الصد،
 لم يكن هذا وليد الذي أحبها وخطبها، لم يكن هذا هو زوجها الذي عاشت معه
 أجمل لحظات عمرها، هناك شيء لا تفهمه، شيء لا تريد أن تفهمه..
 قالت بهدوء: لقد تغيرت، ما الذي حدث؟ أخبرني؟
 قال: لم أتغير، أنا كما أنا، أنت التي تغيرت..

قالت بصبر: تقصد مسألة وزني؟ أنا أتبع نظاماً غذائياً صارماً الآن، اطمئن
 سأعود نحيفة كما كنت إن كان هذا ما ينفرك مني!
 قال وقد أحس كم جرحها: أنا آسف، لم أكن أريد أن أجرحك، لكنني لا
 أحب أن تهملني نفسك..

قالت بحلم: أفهمك، وأنا أيضاً لا أحب أن أكون هكذا، لكنها فترة مؤقتة
 وسأعود كما كنت كما أخبرتك للتو، الأمر لا يستدعي منك كل هذه القسوة!
 قال بتعجب: قسوة!

قالت: نعم، تعاملني بقسوة! أعترف، لم تضميني إليك منذ ولادتي! الأمر

غريب جداً، ما الذي يحصل معك؟ أخبرني..

نظر إلى عينيها، كانت تتألم، ولم تكن تستحق أن تتألم، إنها امرأة رائعة لا مثل لها، إنه أحق، لكن قلبه ليس بيده، كم هو ضعيف أمام ياسمين، إنه عاجز عن تركها، فهو يعشقها، لا حلية له في ذلك..

قالت بقلق: أهنك امرأة أخرى في حياتك؟

كانت ذكية، توقعت الأمر من تصرفاته، لا يتغير الرجل هكذا إلا إن اقتحمت أخرى حياته..

نظر إليها، كانت حديثة الولادة، لم يرد أن يصدماها في هذا الوقت، يعرف أنها فترة حرجة بالنسبة لها لكنه لا يستطيع أن يكذب عليها، فالأمر أوضح من أن يخفيه..

أبعد عينيه عن عينيها ونظر إلى يديه، قالت وقلبا يخفق: منذ متى؟
لم يرد عليها، مدت يدها ورفعت رأسه إليها وقالت برقة: وليد.. ألم تعد تحبني؟

كان الأمر مؤلماً، قال لها: ستظلين زوجتي وأم ولدي..

فهمت أنه صار يُحب غيرها، ياللعجب! أغير الرجال نساءهم كما يغيرون ملابسهم؟ أيمن لأحد ما أن يستبدل شخصاً يحبه بشخص آخر بسهولة؟ أم أن وليد لم يحبها فعلاً كما ادعى!

سألته: ستتزوج؟

قال بشجاعة: بصراحة، نعم، أريد الزواج منها..

سألته وقلبا يحترق: من هي؟

نظر إليها: لن أخبرك الآن..

سألته: لماذا؟

لم يفهم سؤالها، كررت: لماذا يا وليد؟ بم قصرت معك؟ لم تتزوج علي!!

قال بوقاحة: لم تقصري معي في شيء، أنتِ كاملة، أنا الناقص هنا..

كان كلامه صحيحاً، لكن ألمها كان يزيد ويزيد وصارت النار تحرق فؤادها

الذي صار كالهشيم،

قالت: وليد، ما الذي تنويه بشأني؟

قال: ستبقين معززة مكرمة في مكانك في البيت مع أمي، وسأخذ سكناً ثانياً للأخرى، سأحرص على أن أعدل بينكما..

قالت ودموعها تجري على خدها: «ولن تعدلوا..»

صمت.. فهو يعرف أنه لن يعدل فعلاً.. لا أحد يمكنه أن يعدل.. الله أنبأنا بذلك..

سألته: أيمن أن تقسم قلبك إلى جزأين؟ أيقبل القلب أن يُقسم؟

قال وهو يشفق عليها: لا تصعبي علي الأمور أكثر..

قالت وهي تبكي وتتنحب: أهذا قرارك النهائي؟

قال بتعنت: نعم، أنا حقاً آسف..

قام ليرحل بعدما قتلها وفتت قلبها وداسه بقدميه..

نادته وهي تمسح دموعها: وليد..

التفت نحوها متسائلاً..

قالت بحزم: أنا أخيرك، إما أن تعود لي، وإما أن تتزوج منها وتتركني..

قال لها: الشرع حلل لي الزواج..

قالت بقوة: وحلل لي الطلاق.. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولا ضرر

ولا ضرار، القرار لك أنت، إما أنا وإما هي.. وأنا بانتظار قرارك..

(72)

بين أخ وأخت

(أمي، لا أعرف لم أصبحت عاجزاً عن الكتابة إليك؟ فكلما أمسكت الدفتر والقلم لأفعل وجدت الكلمات تنساب مني وترحل!
 أمي، لا أعرف لم ينتابني شعور غريب هذه الأيام، شعور لا أستطيع وصفه،
 إنني أشعر بالنهاية! لا تسأليني أي نهاية أعني! أهني نهاية مشكلتي مع ورد التي
 عدت إليها؟ أم نهاية عمري ربما؟ أو نهاية حيرتي وألمي أو..)
 ترك أيوب القلم، ما يفعله حماقة، ما هذا الذي يكتبه، استغفر الله في سره،
 سمع صوت جوهرة العالي خارج غرفته فخرج مسرعاً..

نزل إلى الطابق السفلي فوجد جوهرة وشهاب ووالده يتناقشون، لاحظ
 احتقان وجهها وهي تقول: ستندم إن تزوجت فتاة نشأت في ذلك البيت، الفتاة
 لا تناسبك إطلاقاً، ألم تر شكل أمها؟ ألم تدقق بملابسها!!
 قال شهاب: لا تهمني أمها في شيء، أنا أحب عذارى ولن أتخلى عنها..
 صرخت جوهرة: ما الذي تحبه فيها؟ الفتاة متحررة، لديها كلب، ومطلقة،
 ملابسها فاضحة، وأمها مريبة، سمعة أبيها سيئة، كل شيء يخصهم سيء ومريب.
 قال أحمد: عليك أن تفكر جيداً بما تقوله أمك لأنها على حق، لا تجعل حبك
 لها يعميك عن الحقيقة..

أشفق أيوب على شهاب، بدا له محارباً بلا أسلحة، ففي حين كان والداه
 يستخدمون المنطق والعقل كان هو يستخدم العاطفة والقلب..
 تذكر ورد ودفاعها عنه، فالمحب لا يرى عيوب حبيبته، ولا يقبل بأن ينبهه
 إليها أحد..

ما أصعب أن يرفض أهلك من تحب، قد تكون لهم أسبابهم، وقد يكونوا

على حق، لكن رفضهم يحولك إلى خصم لهم رغم أنهم أقرب الناس إليك، فتقع في براثن الحيرة بينهم وبين من يريده قلبك.

لاحظ أيوب غياب فضة عنهم، انسحب ليطمئن عليها، توجه إلى غرفتها، فتح الباب برفق ليطل عليها فقد ظن أنها نائمة، وبمجرد أن رآها استولى عليه الجزع.

كانت فضة غارقة وسط دموعها، اقترب منها أيوب: ما الأمر؟ يوسف بخير؟ أموات برأسها نحو الطفل النائم بسلام، اقترب منها، وضع يده على خدها ومسح دموعها الغالية على قلبه، هزها حنانه عليها فبكت أكثر، قالت: لا أريد أن تحس أُمي بشيء، يجب أن أغسل وجهي قبل أن تأتي..

أوقفها: لا تقلقي أُمي مشغولة الآن بموضوع شهاب وخطيبته التي لا تعجبها، ألا تسمعين صوت نقاشهم؟ المهم الآن أنت، ما بكِ حبيبتي؟ نظرت إليه، سألت نفسها، أتخبره؟

يمكنها أن تستأمنه على سرها، إنها تثق به، ياه كم تحب طيبة قلبه ونقاؤه.. انهارت باكية على صدره، إنه أخاها، على الأقل من الرضاعة، ورفيق عمرها ودربها، لن تجد أقرب منه لتشاركه سرها..

وحكت له، كان وجهه يتغضن بألمه عليها، فضة الحبيبة، فضة الغالية، فضة التي لا تشبهها أي فتاة أخرى تتعذب هكذا؟ يرخص بها زوجها؟ يريد أن يتزوج عليها؟ أن يحرق قلبها بنار الغيرة التي لا ترحم ودون أسباب واضحة! ما الذي يريده أي رجل أفضل من زوجة مثلها؟ ياله من غبي!

هدأ من روعها وقبلها على جبينها، سألتها إن كانت تريد منه أن يتكلم مع زوجها، أخبرته أنه لا تريده أن يتدخل، فهي بانتظار قراره، إما هي وإما تلك الأخرى..

لا تريد أن تتعذب كلما رآته يذهب إلى غيرها، لا تريد أن تعيش مع نصف رجل، لا تريد أن تتشارك من تحب مع امرأة أخرى، لا تستطيع ذلك، والطلاق متاح لها.. لا يوجد ما يجبرها على الاحتمال، حتى قلبها لن يجبرها، ستكون

أقوى من قلبها، على قلبها أن ينصاع لها، عليها أن تنسحب من أجل صحتها ونفسها، لن يعدل وليد أبدأ، إن كان قد بدأ بظلمها من الآن فما الذي سيحل بها عندما يتزوج من غيرها؟ يريد أن يتركها مع أمه ليهنأ بحياته مع الثانية، يريد لها مربية لولده مرافقة لأمه، يريد لها زوجة على الرف تنتظر تعطفه عليها كلما وجد ما يتفضل به عليها من عاطفته ووقته، لن تقبل بهذا الوضع أبداً.. لن تحتل.. إنها أضعف من أن تحتل، لا تملك القوة الكافية لذلك.

أحست ببعض الراحة عندما حكّت لأيوب، رأت تعاطفه معها في عينيه فلا أصعب من حال امرأة ترى زوجها الذي تحب يعشق غيرها، لا يوجد أنفذ من هذه الطعنة للقلب، ولا أشد إيلاماً من شعور مماثل.

تمنى أيوب لو كان يستطيع أن يفعل أي شيء من أجلها، تمنى لو كان الأمر بيده، لو كان زوجها يعرف قيمتها حقاً لما أبكها ولا أدمى فؤادها أبداً، تستحق كل شيء جميل، تستحق السعادة والراحة، أي رجل هذا الذي يكافيء زوجته بضرة بعد ولادتها بأيام؟ ما هذه القسوة! ما هذا التسعف؟ كان الأجدربه مراعاتها في هذه الأيام الحرجة، كيف سترضع طفلها وفي قلبها كل هذا الحزن والقهر؟ عندما دخلت جوهرة لتطمئن على ابنتها شهقت بمجرد أن رأت وجهها الباكي: ماذا حدث؟

نظرت فضة إلى أيوب وكأنها تستنجد به فقال: تقول أنها متعبة، تعرفين أنها لا تنام جيداً هذه الأيام ولا تخرج من البيت.. صممت جوهرة وهي تنظر إلى ابنتها بتعاطف، لقد ظنت أنها تمر بكآبة ما بعد الولادة.. وهو أمر تمر به الكثير من النساء.

خطرت له فكرة مفاجأة فقال: ما رأيكم أن نأخذ فضة ونشتري عشاءً لنا من أحد المطاعم لنأكله في السيارة؟ عليها أن ترفه عن نفسها قليلاً.. وافقته جوهرة، ورغم تردد فضة إلا أنها قررت أن تذهب معهم، فطفلها نائم وقد أضرعته قبل فترة وجيزة، لا مانع من أن يبقى مع الخادمة لبعض الوقت.. عندما خرجت فضة في تلك الليلة أحست بساقيها ترتعشان، لم تكن في حالة

جيدة، كانت مرهقة من السهر مع الطفل، محطمة القلب مما قاله لها زوجها، متعبة من التفكير، أحست وكأنها ستقع فسندها أيوب وقد أحس بترنح خطواتها، نظرت إليه بامتنان، ما أطيبه من أخ، همس لها: انسي كل شيء، امنحي بعض الوقت لنفسك..

أخذها مع جوهرة بسيارته إلى أحد المطاعم على البحر، اشترى لهما العشاء وأوقف السيارة أمام الشاطيء، فتح النوافذ فمر تيار من الهواء خلالها، داعب النسيم خدي فضة فشعرت بشعور طيب، أحست وكأن الحياة تريد أن تطيب خاطرها وكأنها تربت على خديها النديين مواسية، تقبلت ذلك الشعور باستسلام، من يدري أين الخير فيما يحدث لها؟ إن كان الخير في فراقها لزوجها فليكن، أدركت وقتها أنها تعرف قراره مسبقاً، صارت متأكدة أنه لن يختارها، تنهدت، أكلت دون أن تحس بطعم ما تضعه في فمها.. سرحت، لم تغير زوجها؟ ألم يعد يحبها؟ أين ذهبت لحظاتها الجميلة؟ لم ماتت تلك اللحظات في قلبه رغم أنها لا تزال حية في قلبها وكأنها قد حدثت للتو؟ أيمنك ألا يكون وليد قد أحبها؟ مستحيل أنه لم يفعل، إذن كيف أحب غيرها؟

لاحظ أيوب انشغالها بأفكارها فأخذ يتحدث معها عن أمور أخرى ليشغلها عن نفسها، قالت جوهرة: علينا أن نعود، أخاف على يوسف، لا يزال صغيراً جداً لتعتني به الخادمة..

وافقتها فضة، وعندما عادوا إلى البيت جرت جوهرة مسرعة لتطمئن على حفيدها،

التفتت فضة إلى أيوب، وقبل أن يعي رفعت يده وقبلتها، اختبأت في صدره العريض وهي تهمس: شكراً يا أخي.. كم أنا محظوظة بك..

ابتسم لها وطوقها بين ذراعيه بقوة وقال: لا تخافي، أنا معك وسأكون دائماً إلى جانبك، إن كان وليد لا يعرف قيمتك فنحن كلنا نعرفها، لن نتركك، لست وحدك فاطمئني.

ابتسمت له.. وقد أحست بالطمأنينة تغطي على حزنها..

(73)

هدنة

جلست ورد مع ماجدة على مائدة العشاء صامتة، صارت ورد تخاف منها، إنها تخاف منها على أيوب، لا تريدها أن تعرف أنهما تصالحا، لا تريدها أن تفعل أي شيء قد يُبعد أيوب عنها، لذا تظاهرت دائماً بأنها حزينة، ولم تبين لأمها تبدل حالها.

كانت ماجدة تراقبها على الدوام، لازالت تحاول إقناعها بالزواج، تقدم لها قبل عدة أيام شاب جيد، وكعادتها رفضت أن تراه.. تعرف أن ضاري لا يزال يريد ابنتها، فأمه لازالت تتصل بها بين فترة وأخرى، ورغم كل الأعذار الواهية التي اختلقها كي لا ترد عليها بطريقة واضحة كانت أمه صبورة معها.

لا بد أن لهذا العناد نهاية، همست ماجدة لنفسها، فمن غير المعقول أن تبقى ابنتها بلا زواج بسبب أيوب!

قالت ماجدة فجأة: أألزمت مصرّة على رفض الشاب الذي تقدم لك مؤخراً؟ قالت ورد بحذر: أمي، لا أريد الزواج الآن، لازلت غير مستعدة لهذه الخطوة..

لاحظت ماجدة أنها لم تغضب كعادتها، قالت وهي تراقبها بتمعن: تقصدين أنك ستتزوجين بعد أن تعملين؟

ردت ورد لتهدأ من شكوكها وتبعد شرها عنها وعن حبيبها: ربما، أريد أن أعمل في الوظيفة التي رشحت لها، وأن استقر في عملي، وبعدها سأفكر بالزواج.

استبشرت ماجدة خيراً وقد أحست بسعادة لا حدود لها وهي تقول: صحيح يا ابنتي؟

ردت ورد بمكر: صحيح، لكن لا تضغطي علي، امنحيني الوقت الكافي لأتقبل فكرة زواجي من رجل غير أيوب..
سألتها ماجدة: هل أنت جادة؟

أكدت ورد كاذبة: مادام لا يريدني ويعاملني بكل هذا الجفاء، فليكن، الحياة لن تقف بسبب رجل واحد، ليوافقه الله مادام هذا قراره..
ظهرت الراحة على وجه ماجدة، لقد بدأت ابتتها تفكر بطريقة صحيحة أخيراً، إنها لا تريد من هذه الدنيا أكثر من أن تطمئن عليها، ما أسعدها اليوم!
أنهت ورد عشاءها، صعدت إلى غرفتها، أغلقت الباب خلفها ضاحكة، اتصلت بأيوب لتخبره بما قالته لأمها..
ضحك أيوب معها، حادثته لبعض الوقت..

وعندما انتهت محادثتهما، جلست تسرح شعرها أمام مرآتها، نظرت إلى وجهها المتورد بلون مشاعرهما، ابتسمت وهي تهمس لنفسها: ما أجمل الحب!

((وكلما نظرت إلى نفسي بالمرآة، رأيت انعكاس صورتك في جوف عيناى)).

(74)

زيارة

وقفت جوهرة في المطبخ وهي ترتب أدوات الضيافة، فموعتها مع أريج قد اقترب، كانت قد ارتدت ملابسها وطلبت من فضة أن تستعد للقاء الضيفة القادمة، ورغم أن فضة لم تبد لها على ما يرام إلا أنها لم تعترض وبدأت تستعد لهذه الزيارة.

دخل شهاب المطبخ ووقف أمام أمه قائلاً: أريدك أن تتصلي بأم عذراي وتحددتي معها موعد عقد القران!

زفرت جوهرة بضيق وهي تقول: نذهب إليهم بالأمس فنتصل اليوم لنحدد موعد عقد القران! ما تقوله مخالف للأصول!

رد بحدة: وما هي الأصول بنظرك؟ أن نذهب لمنزلهم ولا نتكلم في موضوع الخطبة؟ لم يكن الأمر لائقاً..

ردت وهي تحاول أن لا تفقد أعصابها: لقد ذهبنا للتعارف ليس إلا.. كان شهاب مُصرّاً على أن تتصل أمه لتحديد موعد الزواج، لا داعي للشكليات، فهو يعرف الفتاة ومقتنع بها، إنه يحبها وهما متفقان على كل شيء، أخبرته أمه أنها لن توافق على دخول الكلب إلى البيت فأخبرها أن عذاري ستترك كلبها في منزل أهلها من أجله!

كانت جوهرة شديدة الاستياء من هذا النسب الذي فرضه ولدها عليهم، أحست أن هذا الزواج غلطة كبيرة لكنها لم تكن تعرف كيف تقنع ولدها بعدم ارتكاب هذه الغلطة.

قالت جوهرة: دعنا نؤجل الموضوع لحين أن نقوم بتعديل المنزل وتجهيزه لسكنكما!

قال: لدي غرفتي وهي كبيرة واسعة، ولدينا غرفة المكتب بجوارها، إن أخليت لنا غرفة المكتب أستطيع أن أستخدم الغرفتين والحمام الذي بينهما، سيكون بمثابة جناح صغير لي ولزوجتي، لن نحتاج لمساحة أكبر، سأرُكِّب باباً... و...

أخذ يشرح لها وهي تكاد لا تسمعه عن المخططات التي يفكر فيها والتعديلات التي يريد القيام بها، لا تعرف كيف تقنعه أن الزواج أمر مصيري ومهم وليس مجرد أمراً هيناً كما يظن...

لم تكن تحب أن تستضيف تلك العذارى في بيتها كساكنة فيه، أحست بعدم رغبتها بوجودها أمام ناظرها طوال الوقت، لكن كيف تطلب من ولدها الخروج من البيت وإيجاد سكن مستقل؟ كيف تجعله يتحمل دفع إيجار شهري للسكن وهي تعرف أن راتبه بالكاد يكفيه؟

قالت أخيراً وهي تحاول التخلص منه: شهاب، الوقت غير مناسب للحديث في موضوع زواجك، جارتنا ستأتي للمباركة لفضة، اذهب الآن وعندما تعود في المساء أعدك أن ننهي هذا الموضوع.

نظر إليها وكأنه يريد التأكد من أنها ستوافق على ما يريد، فنظرت إليه بحنان وقالت: لا تقلق، تهمني سعادتك، تعرف كم أحبكم جميعاً، اذهب الآن ودعنا نكمل حديثنا لاحقاً، أرجوك!

في ذلك الوقت كان أيوب قد خرج من المنزل لشراء بعض احتياجاته، وكان أحمد قد خرج لزيارة صديق له يرقد في المستشفى.

وفي ذلك الوقت أيضاً كانت أريج قد وصلت بسيارة متسأجرة يقودها سائق خاص إلى منزل جوهرة، نزلت أريج وهي تحس أنها تخطو فوق السحاب، تناولت الكثير من المهدئات البارحة لعجزها عن النوم، وتناولت جرعة مضاعفة من أقراص دوائها هذا الصباح لتهديء من روعها من أجل هذه الزيارة الصعبة عليها.

وقفت وهي تحس بصعوبة لتوازن جسدها، فالدوخة التي تحس بها كانت

تُشعرها بأنها على وشك الوقوع في أي لحظة، ورغم أنها بدت بأحسن صورة من الخارج، إلا أنها كانت في أسوأ حالاتها من الداخل.

كانت ترتدي تنورة ضيقة بيضاء اللون مع قميص حريري بلون الليمون، تركت شعرها منسدلاً على كتفيتها بتموجاته الطبيعية الجميلة، وارتدت حذاء بلا كعب كي تحافظ على ما بقي من توازنها المفقود، وقفت أمام المنزل ويبد مرتعشة ضغطت على جرس الباب..

فتحت لها الخادمة ودعتها للدخول، أحست برهبة عظيمة تستولي عليها، كانت تخطو إلى عالم ولدها، إلى عالم لا تعرفه، وتتأهب لرؤية شخص عاش بعيداً عنها بجسده وفي نفس الوقت قريباً منها بروحه.. قريباً كقرب دقات قلبها التي تكاد تسمعها من شدة خفقانها في تلك اللحظة..

دخلت المنزل، كانت رائحة الطيب منتشرة فيه، ظهرت لها جوهرة مرحبة، قبلتها وهي تقول: أهلاً وسهلاً بالغالية حفيدة الغالية، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته.

ردت أريج بصوت مرتعش: شكراً لك، آمين.

نسيت أريج في غمرة انشغالها بأفكارها أن جدتها قد توفيت حديثاً، لم يكن من اللائق أن تأتي إلى منزل جوهرة وهي ترتدي ملابساً ملونة، ليتها ارتدت ثوباً أسوداً، أو اختارت رداءً داكناً على الأقل!

بمجرد أن جلست جوهرة ظهر شهاب أمامها وهو يتأهب للخروج من المنزل، خفق قلب أريج بشدة أكثر فقد خالته ولدها، لكنها عندما تأملته عرفت أنه من المستحيل أن يكون هو قالت جوهرة لتعرفها به: هذا ولدي شهاب، شهاب هذه أريج حفيدة المرحومة ماما نزيهة.

قال شهاب برسمية: أهلاً وسهلاً، عن إذنكم.

خرج شهاب وتنهدت أريج، تُرى هل ستعرف على ولدها اليوم كما تأمل أم لا؟

سألته جوهرة لفتح معها مجالاً للحديث: أخبريني، كيف هي حياتك في

الخارج؟ سمعت أنك متزوجة من رجل أمريكي.

قالت أريج: نعم.. صحيح.. تزوجت من ويليام منذ سنوات طويلة.

قالت جوهرة: لديكما أبناء؟

قالت بسرعة: لا، لم ننجب.

صمتت جوهرة، لم تكن العلاقة بينهما تسمح لها بطرح الأسئلة، لم تشأ أن تُخرجها أو تتدخل في شؤونها الخاصة فهي بالكاد تعرفها، تذكرها فقط عندما كانت مراهقة صغيرة، فهي ليست من جيلها ولا من عمرها.

سألته أريج وكان السؤال قد انطلق رغماً عنها: كم ولد لديك؟

أحست أن خلاياها متحفزة وهي تنتظر إجابة جوهرة التي قالت غافلة عما يدور في رأس ضيفتها: لدي ثلاثة أولاد، فضة، شهاب، وأيوب..

خفق قلب أريج أكثر: حفظهم الله لك.

ابتسمت جوهرة: شكراً حبيبتي، الأولاد نعمة كبيرة، أتمنى أن يرزقك الله

بطفل.

سكتت أريج، لقد رزقها الله بطفل حقاً، لكنه طفل من نوع خاص، طفل رمت به بعيداً، وأخذته هذه المرأة تفضلاً منها وشفقة.

لم تكن جوهرة تحس بالشفقة فقط على أيوب بل كانت تُكِنُّ له حباً عظيماً، كانت تحبه أكثر من ولديها الحقيقيين، لكن أريج لم تكن تعرف ذلك بطبيعة الحال.

جاءت فضة وهي تحمل ولدها لتسلم على أريج، قامت أريج وهي تحس أن الدنيا تدور بها وقبلت فضة، لمست خذ الطفل وهي تقول مجاملة دون أن تستطيع استيعاب ملامحه: ما أجمله..

دار حديث متقطع بينهن، لم تكن هناك مواضيع مشتركة تجمعهن، حكّت جوهرة بعض الحكايات عن جدتها المرحومة وأخذت تثنى على أخلاقها وروحها الجميلة، في حين كانت أريج متوترة وهي تفكر إن كانت ستلتقي

بولدها أم لا..

بعد مرور ساعة من الزمن، أحست أريج بأنها يجب أن ترحل، لم يعد هناك ما يُقال في هذه الزيارة الغربية، لقد نسيت حتى أن تحضر هدية للمولود الصغير! قامت أريج مستأذنة بالرحيل، لاحظت جوهرة وقتها أنها تترنح قليلاً فأشفقت عليها، فكرت في سرها: لا بد أن صدمتها بوفاة جدتها التي ربتها قد أثرت عليها، لذلك تبدو غير طبيعية بعض الشيء.

باللحظة التي وقفت فيها أريج، فُتح باب المنزل ودخل أيوب فجفلت.. نظرت إليه وهي تشعر بالدموع تتجمع في مآقيها، إنه ولدها، لا يمكنه أن يكون غير ذلك، إنها ترى ملامحها على نسخة ذكورية منها.. شعره الكستنائي الذي اختلط فيه لون النحاس بالعسل، عينيه، نظراته، لون بشرته، إنه هو، ما أجمله، كم هو طويل، كم هو وسيم.

نظر أيوب إليها دون أن يشعر بأي شيء نحوها، قالت جوهرة مخاطبة لها: هذا أيوب، ولدي..

رنت في أذنها كلمة ولدي بصورة مضخمة وكأن عشرات النساء يصرخن بهذه الكلمة..

رد أيوب بصوته الأجلش: أهلاً وسهلاً تشرفنا.. كادت أن تشهق، إن صوته ذكرها بصوت تعرفه جيداً، صوت لم تنسى أبداً نبراته، صوت تحفظه عن ظهر قلب بل وتستطيع تمييزه من بين كل أصوات العالم..

كان صوته يشبه صوت أبيه.. غانم المسعودي..

أحست أنها تتهاوى، نظرت إلى أيوب بنظرات زائغة، ودون أن تعي وجدت نفسها تفقد الوعي وتقع على الأرض عند قدميه.

(75)

قرار جائر

جلس وليد أمام أمه، يعرف أن ما سيقوله سيكون له وقع ثقيل عليها، لكنه رأى أن من الصواب أن تسمع الخبر منه قبل أن تسمعه من فضة. كانت أمه مستغربة من الجدية المرتسمة على وجهه عندما طلب أن يتحدث معها بموضوع خاص، فجلست أمامه بانتظار أن يبدأ حديثه.. تنحج وقال: بصراحة، الموضوع يخصني أنا وفضة.. نظرت إليه مستغربة: أتريد فضة أن تسكننا خارج المنزل؟ كان هذا الاحتمال هو أول ما خطر على بال الأم الطيبة التي كانت تخاف دائماً من أن يخرج ولدها مع عائلته من المنزل فتعيش فيه وحدها، لقد باحت بأسوأ مخاوفها، لم تكن تتخيل أن ما ستسمعه من ولدها بعد لحظات سيكون أسوأ بكثير!

قال وليد: لا، الأمر ليس بهذه الصورة، أمي، تعرفين أنني رجل، وقد أعطاني الشرع الحق بالزواج بأكثر من واحدة، هناك امرأة أخرى غير فضة في حياتي، وأنا أريد أن أتزوجها..

شهقت الأم: ماذا تقول؟ لم تريد أن تتزوج على فضة؟ بم قصرت معك زوجتك المسكينة؟؟

قال بجفاء: لم تقصر بشيء، الموضوع متعلق بي، أنا أريد الزواج، الأمر حق لي ومن حقي أن أستخدم هذا الحق وقتما أشاء.

قالت الأم: يا ولدي لقد أعطاك الشرع هذا الحق، لكنه حذر من مغبة الظلم، والظلم ظلمات، والرجل لا يمكنه أن يعدل بين النساء، هناك أسباب لهذا التشريع، وزوجتك امرأة صالحة، لم تقصر معك في شيء، وقد أنجبت

لك ولدأ للتو، أهذا جزاؤها على إحسانها لك؟
صرخ وولد: أنا لا أريد فعل الحرام، أنا أريد الزواج على سنة الله ورسوله،
من حقي أن أتزوج، لقد اتخذت قراري وأخبرت فضة به!
ضربت أمه على صدرها وقالت: أخبرتتها؟ أخبرتتها وقد ولدت حديثاً، أي
قلب لك يا وولد؟

قال بفسوة: ستكون بخير، لن تموت إن تزوجت عليها، لكنها خيرتني بينها
وبين الأخرى أخبرتني أنها تريد أن أطلقها إن تزوجت من غيرها.
قالت أمه غاضبة: هي إنسانة ذات مشاعر وأحاسيس، لا يمكنك أن تجبرها
على احتمال وضع متعب كهذا، ستندم يا وولد إن طلقت فضة، ستندم كثيراً لأنها
امرأة نادرة لا مثيل لها، وولد، أريدك أن تفكر بعقلك، فضة امرأة رائعة وهي
الآن أم لولدك، كيف تتركها وولدك لا يزال رضيعاً؟ تريد أن تحرم ولدك منك
وهو في هذه السن؟ تريد أن تحرمني من حفيدي الذي عشت طوال عمري في
انتظاره؟ ما ذنبي أنا؟ ألم تفكر بي؟ ما الذي حصل لك!!

كان مغيباً بحب ياسمين لدرجة أنه لم يعد يستوعب أحداً غيرها ولم يعد
يفكر بأي شخص سواها..

خرج من المنزل غاضباً وهو يقول: إذا أصرت فضة على الطلاق ستحصل
عليه، وإن أرادت البقاء على ذمتي فعليها أن تقبل بالأمر الواقع، القرار لها،
أبلغها بكلامي.. فهي التي تريد تشتيت العائلة لا أنا.

لم تصدق أمه ما سمعته، لم يكن هذا ولدها العاقل الذي تعرفه، ولدها الذي
كان سعيداً بزوجه ويحسد نفسه على وجودها في حياته والآن لم يعد يهتم
بأمرها!

ارتدت الأم عباؤها واتصلت بالسائق ليأخذها إلى فضة..

وصلت إلى منزل جوهرة وهي تكاد لا ترى طريقها، في الداخل.. كانت
فضة تجلس مع ولدها الصغير وحدهما مع الخادمة بعد أن اضطرت أمها إلى
مرافقة أريج إلى المستشفى مع أيوب بعد وقوعها مغشياً عليها فجأة.. لقد

أثارت الجزع في قلوبهم عندما رؤوها تتهاوى على الأرض بلا مقدمات، كم هي غريبة تلك المرأة فكرت فضة، لم تكن تبدو طبيعية، كانت متوترة، ونظراتها غامضة وغير مريحة.

سمعت فضة جرس الباب يدق، وسمعت الخادمة وهي تخرج لتفتحه، وخلال لحظات دخلت أم وليد عليها، وبمجرد أن رأتها وبلا مقدمات انهمرت دموعها، نظرت إليها أم زوجها بحنان، اقتربت منها وضمتهما إلى صدرها فأجهشت فضة بالبكاء وولدها لا يزال في حجرها، قبلت الأم رأسها وبكت معها، كانت تحبها كابنة لها، لم تجد منها أي سلوك مشين ولم تسمع منها ما يضايقها قط، كانت أشبه بالملاك، وخسارتها خسارة جسيمة بلا شك.

ظلت الأم تنصحها، قالت لها أن الرجال يمرون أحياناً ببعض النزوات النسائية في حياتهم، عليها أن تصبر وتتحمل من أجل ابنها، طلبت منها العودة إلى بيتها، ربما يشعر وليد بالندم إن رآها في المنزل وقد يتعلق قلبه بابنه الصغير فيعدل عن الزواج بأخرى.

حكّت لها عن عشرات النساء اللاتي تعرفهن واللاتي مررن بتجارب مشابهة لكنهن تصرفن بحكمة، أخبرتها أنه سيندم وسيعود إليها في نهاية المطاف، وقد يجعله زواجه من غيرها يعرف قيمتها، طلبت منها أن تتركه يخوض التجربة، سيعرف وقتها الفرق بينها وبين غيرها..

كانت فضة مجروحة الفؤاد، حزينه القلب، لم يقدر زوجها وضعها أبداً لم يهتم بمشاعرها، كانت تحبه بشدة، عاشا معاً لحظات هائلة، لم تتوقع منه أن يغدر بها يوماً، لم تتوقع أن يجرحها ويفضل امرأة أخرى عليها..

نقلت لها الأم كلام وليد، وطلبت منها التريث قبل أن تتخذ قرارها، طلبت منها أن تصبر من أجل ولدها، عليها أن تحافظ على بيتها، وأن لا تستسلم وتترك زوجها الذي تحبه يضيع منها بهذه السهولة.

صارحتها فضة أنها لم تخبر أمها بعد بما حدث، فارتاحت الأم لذلك، قالت لها: فكري جيداً وأنا أثق برجاحة عقلك، تصرفي بحكمة، ولا تتركي تلك



المرأة تنتصر عليك.

صمتت فضة، وقد تشتت تفكيرها، ولم تعد تعرف كيف تتصرف..

«عندما تجرحنا قسوتهم نخاف أن يكسرنا حناننا أمامهم»

(76)

في المستشفى

نظر أيوب إلى جوهرة التي كانت تجلس بجوار أريج النائمة على سرير في المستشفى وقد عُرسَتْ في ذراعها إبرة المغذي الموصول بجهاز بجوارها. أتى الطبيب، فقامت جوهرة للتحدث معه خارج الغرفة الصغيرة الخاصة بالطواريء، قال الطبيب: لديها هبوط حاد في ضغط الدم، وتحليل دمها يظهر بوضوح أنها تتناول عدة أنواع من الأدوية الخاصة..

سألته جوهرة: ماذا تعني بالأدوية الخاصة يا دكتور؟

قال الطبيب: أقصد أنها تتناول أدوية نفسية، الأمر واضح من مؤشراتنا الحيوية ومن تحليل دمها.. أتعرفينها جيداً؟

قالت جوهرة: معرفتي بها سطحية جداً، إنها من الجيران، وهي في زيارة مؤقتة للكويت، فهي تعيش في الخارج.

قال بحرفية: على العموم وضعها مطمئن، ستتحسن مع المغذي والأدوية التي أعطيت لها عليها أن تراجع طبيبها النفسي في أسرع وقت ممكن بعد أن تعود إلى مكان عيشها، وإن أرادت يمكنني أن أرشح لها طبيباً ممتازاً هنا في الكويت.

شكرته جوهرة، كان أيوب بجوارها وهو يسمع كلام الطبيب، بدت له تلك المرأة مسكينة جداً، كانت أشبه بالميتة عندما شدها بمساعدة جوهرة إلى سيارته، خاف أن تكون قد ماتت فعلاً، لم يكن يحب أن يحدث لها مكروه وهي في بيتهم، لكن يبدو أنها مجرد امرأة تعاني من مرض نفسي أو ما شابه كما لمح الطبيب.

قال أيوب لجوهرة: ماذا نفعل الآن؟

قالت جوهرة: يمكنك أن تذهب إلى البيت.. سأبقى معها، عليها أن تكون تحت الملاحظة لعدة ساعات، سأتصل بك بعدها لتأخذنا..

قال بتعاطف: هل أنت متأكدة من أنك تريدين البقاء معها؟

قالت بصوت حازم: المسكينة وقعت في بيتنا، وأقل ما يمكنني تقديمه إليها هو مرافقتها في ظرف كهذا، إنها وحيدة كما ترى، لن أتركها إلا بعد أن تعود إلى بيتها.

وافقها أيوب قائلاً: معك حق يا أمي.. إذن سأذهب، اتصلي بي في حال احتجت لأي شيء.

ودعته وعادت لتجلس بجوار أريج النائمة، كانت شاحبة، ولون وجهها يشبه لون ملاءة السرير، فكرت جوهرة، ما الذي جعل هذه المسكينة تمرض؟ لم تأخذ هذه الأدوية؟ لا بد أن ظروف حياتها صعبة، إنها لا تعرف الكثير عن حياتها، لكنها تعرف أن نزيهة هي التي تكفلت بها بعد طلاق والديها وزواج كل منهما.

بعد مرور بعض الوقت فتحت أريج عينيها، رمشت عدة مرات قبل أن تعي مكانها، عرفت على الفور أنها في المستشفى، قامت جوهرة وقالت لها بحنان: حمدالله على السلامة..

سألته بصوت جاف: ما الذي حدث لي؟

قالت جوهرة: وقعت مغشياً عليك في بيتنا، لقد خفنا عليك كثيراً، لكنك بخير والحمدلله.

سألته أريج: منذ متى وأنا هنا؟

ردت جوهرة: منذ عدة ساعات، كان ضغطك منخفضاً بشدة، لكن أمورك الآن أفضل، أنت تحت الملاحظة وقد تخرجين بعد قليل، لا تقلقي، سأظل معك إلى أن أوصلك لمنزلك.

هزت أريج رأسها بامتنان، أغمضت عينيها، ولاحظت جوهرة أن دموعها بدأت تنساب بصمت على خديها.

اقتربت منها جوهرة وربت على رأسها وهي تقول: حبيبتى أريج، لا أريد التدخل بحياتك لكن يبدو أنك تعانين من مشكلة ما، إن أردت أن تحكي أي شيء لي فثقي أنني سأسمعك، وسيكون كل ما تقولينه في أمان معي وستكون أسرارك أمانة في عنقي إلى يوم الدين..

أحست أريج أن هذه هي اللحظة التي انتظرتها طوال عمرها، لحظة بوحها بذلك السر الذي يكاد يزهق روحها من طول ما احتفظت به في صدرها، عليها أن تحكي لجوهرة عن سرها عليها أن تطلب منها مساعدتها، يجب أن تسألها كيف تتصرف مع ولدها، أيوب، لن تنسى ملامحه قط، لقد صارت تعرفه وتذكر جيداً نبرة صوته التي جعلتها تفقد وعيها.

جلست جوهرة بجوارها بصمت، لم تكن تريد أن تضغط عليها، فرأت أن تلتزم الهدوء لحين تتمالك تلك المسكينة نفسها.

مرت بضع دقائق، وأخيراً قالت أريج وهي لا تزال تغمض عينيها: لدي سر خطير حملته كالوزر الثقيل طيلة عمري، وقد ضقت بحمله وحدي.. انتبهت لها جوهرة، خفق قلبها بشفقة وهي تقول: إن أردت يمكنني أن أحفظ سرك..

قالت أريج بسرعة وكأنها تخاف أن تغير رأيها إن تباطأت: عندما كنت مراهقة، ارتكبت غلطة فظيعة، خدعني شاب وغرر بي، صدقت أنه يحبني وسيتزوجني، لكنه كان كاذباً جباناً!

أحست جوهرة بالشفقة عليها، تنهدت وهي تقول: لكنك الآن متزوجة والحمدلله، لم تفكرين بالماضي؟ لم لا تطرحينه وراء ظهرك وتفوضي أمر ذلك الجبان إلى الله ليحكم في أمره؟

قالت أريج وهي لا تقوى على فتح عينيها ودموعها قد بدأت تنهمر بغزارة: اكتشفت أنني حامل، كانت المصيبة أكبر من قدرتي على الاستيعاب، وعندما أخبرته، أنكر أنه والد طفلي وطلب مني أن أتصرف، وبعدها هرب ولم أستطع الوصول إليه بتاتاً..

سكنت جوهرة، يالتلك المصيبة..

لم تستطع الكلام، ظلت بانتظار أن تتحدث أريج من تلقاء نفسها التي كانت تعترف لها بأمر عظيم فلم تشأ أن تقاطعها..

سكنت أريج لبرهة ثم قالت وهي تتحب: لم أستطع التخلص من حملي، كنت صغيرة جاهلة فأخبرت خادمتنا المخلصة بمصيبي، وهي التي ساعدتني لألد..

ساد الصمت بين المرأتين، كانت أريج تبكي في حين كانت جوهرة غافلة عن المفاجأة التي توشك أن تصدمها صدمة عمرها..

عادت أريج لتقول أخيراً: أنجبت ولدي في ليلة ممطرة، أخذته الخادمة ورمت به خارجاً ليلتقطه أحد ما ويتولى أمره..

فتحت أريج عينيها فوجدت جوهرة تنظر إليها بدهشة شديدة، كان سؤالها يطل من عينيها ففهمته أريج على الفور، أومأت برأسها وهي تقول من بين دموعها: نعم يا جوهرة، إنه ولدي، أنا أم أيوب!

زيارة لطيفة

كانت فضة تجلس مع أيوب في صالة المنزل وتحكي له عن ما نصحتها به أم زوجها، كان أيوب حائراً مثلها ولم يعرف بم نصحتها فمن ناحية يكره أن تكون لأخته ضرة تتعذب بسببها وهي لا تزال في أول سنوات زواجها ومن ناحية أخرى لم يكن يريد لبيتها أن يُهدم خاصة وأن لها ولدًا رضيعاً لا يزال لا يعرف أباه ولم يرتو بعد من حنانه.

دخل أحمد المنزل، وعندما سأل عن جوهرة أخبراه عن ما حصل للجارة الزائرة، اتصل ليطمئن على زوجته فلم ترد، قال إنه جائع ويريد تناول العشاء، همت فضة بالقيام إلى المطبخ لتحضر عشاء أبيها فإذا بجرس الباب يدق. فتحت فضة الباب فإذا بورد تقف عنده وهي تحمل أكياس كثيرة من أحد المطاعم، صاحت ورد ضاحكة: مفاجأة..

ابتسم أيوب من قلبه، رحبت بها فضة وكذلك فعل أحمد، دخلت ورد وهي تقول: أمي مدعوة إلى حفلة اليوم، أحسست بالملل وأنا بالبيت وحدي فقررت أن أشتري العشاء وأتي عندكم، ما رأيكم بهذه المفاجأة؟ نظرت إلى أيوب مباشرة وكأنها تسأله، ضحك أحمد وهو يرى نظراتها لولده، فقال: مفاجأة جميلة، كنت أقول أنني جائع للتو..

قالت ورد: لنأكل إذن يا عمي..

سألت ورد عن جوهرة وعرفت أنها ستتأخر، ساعدتها فضة بترتيب الطعام على المائدة، بدت الطاولة عامرة بما لذ وطاب من الأطعمة، كان الأكل وافراً، وجلس الأربعة يأكلون بشهية جيدة..

كانت ورد تجلس بجوار أيوب، كم تحس بالسعادة عندما تكون إلى جواره،

كانت تراقبه خلسة وهو يأكل وتشعر بالغبطة لأنه أحب الأطباق التي أحضرتها.
قال لها مشاكساً: طبخك لذيذ..

ضحكت وهي ترد عليه: أستطيع أن أطبخ من جميع مطابخ العالم، عليك فقط أن تخبرني بما تريد وتشتهي وخلال ساعة على الأكثر ستجده أمام عينيك..
ضحك أحمد وسأل فضة: أتبخين لوليد أم أن أمه هي التي تطبخ له؟
أحست فضة بالألم لأنه ذكرها بوليد، صارت سيرته تؤلمها وذكره يحرك ذلك الجرح النازف في قلبها، قالت بهدوء: أحياناً أطبخ أنا وأحياناً تطبخ أمه.
نظر إليها أيوب وكأنه يشجعها، أحس في تلك اللحظة بأن الطلاق لن يكون سهلاً على أخته فالمرأة عندما تتزوج يصبح لها بيت آخر وتصبح مجرد ضيفة في منزل أهلها، صحيح أن هذا المنزل مفتوح دائماً لها، لكنها قطعاً ستكون أسعد في بيتها ومملكتها الخاصة بها.

استأذن أحمد للصعود إلى غرفته بعد العشاء، وانسحبت فضة عندما سمعت صوت بكاء صغيرها فذهبت لترعاه، بقيت ورد مع أيوب فقامت لتساعد الخادمة بتنظيف سفرة الطعام،

كانت تتصرف وكأنها في بيتها، فالبيت الذي يسكنه أحب شخص إلى قلبها بيتها بلا شك،

ليتها تتزوجه وتنعم بحياتها بقربه، فكرت وهي تلاحظ نظراته الحانية إليها.
جلسا متباعدين وكل شيء فيهما متقارب، قالت له: أتعرف، لقد عادت لي الحياة عندما عدنا كما كنا..

قال بصدق: أنا آسف على كل شيء..

ابتسمت له: أسامحك، بشرط أن لا تكرر فعلتك أبداً..

ضحك وهو يقلد صوتها: لن أكررها أبداً أبداً..

كانت جميلة كعادتها متألقة كوردة حقيقية، فكّر كم يليق بها اسمها.

قالت له: أتعرف، أتمنى لو أن أمي تسافر لآتي وأعيش في منزلكم وأراك طوال الوقت.

ضحك وهو يقول: لن تخاطر أمك بتركك وحدك هنا، ستحرص على أخذك معها إن سافرت إنها تخاف عليك من وجودي.

قالت: إنها لا تدري أنك كل الأمان في حياتي...
وقبل أن يرد عليها، فُتح باب المنزل فرأى جوهرة وهي تدخل المنزل مع شهاب، قام واقفاً وقامت ورد واقفة أيضاً لتسلم على خالتها..

قال أيوب: أمي.. لم لم تتصلي بي لأفلك إلى البيت كما اتفقنا؟!
بدت جوهرة مشدوهة وفي حالة غير طبيعية، كانت تحديق في أيوب بدهشة دون أن ترد على سؤاله، نظرت إلى شعره، لتلك الخصلات بلون العسل، تأملت عينيه كأنها تراهما لأول مرة، دققت في لون بشرته، إنه ابنها بلا شك، ابن أريج، إنه نسخة رجولية منها، لم تكذب أريج، ولم عساها أن تكذب؟ لم تتهم نفسها وتفضحها إن لم تكن صادقة، أخبرتها أنها لا تريد شيئاً سوى أن يعرفها أيوب كما تعرفه!

انتبهت جوهرة على ورد وهي تقبلها وتسألها برقة: خالتي، هل أنتِ على ما يرام؟

نظرت إلى ورد وفكرت: ماذا سيكون رأيها لو عرفت بكل ما عرفته هي اليوم!

حركت جوهرة ساقها وكأنها تجرهما جراً، وصعدت الدرج دون أن تنطق بأي حرف، أثارت حالتها استغراب ورد وأيوب، سأل أيوب أخاه: ما بها؟
قال شهاب: لا أعرف، اتصلت بي لآخذها من المستشفى، ركبت وكانت جارتنا تلك معها، أوصلت تلك الجارة إلى أحد الفنادق وعدت مع أمي إلى البيت، لم تتكلم معي خلال الطريق كانت صامتة تماماً كما كانت قبل قليل أمامكما!

قالت ورد متعجبة: أمر غريب! ربما كانت متعبة، اتركوها تترتاح ولا تقوموا بإزعاجها اليوم.

نظرت إلى ساعتها وأردفت: علي أن أعود إلى البيت، فعلى السائق أن يذهب



ليقل أُمي بعد قليل..

أوما لها الشابان، وعندما خرجت لم يستطع أي منهما أن يخمن ما حدث
لجوهرة في ذلك اليوم الذي لا يُنسى..

صدمة حقيقية

لم تصدق ورد عينيها عندما نزلت من سيارة السائق وخطت باتجاه منزلها فوجدت ضاري أمامها فجأة، أحست بالخوف من وجوده في حديقة منزلها ليلاً، ابتعدت عنه قليلاً وقالت وهي تحاول أن تُخفي عنها خوفها منه: ماذا تريد!! هل جنت لتأتي إلى منزلي في هذا الوقت المتأخر؟

قال وهو يحدق بها: ورد، أعتقد أنني قد أثبت لك حسن نواياي، ما الذي تريدني أكثر من أنني تقدمت لخطبتك لتصدقي أنني أحبك فعلاً!

قالت وهي تشعر بالغضب يتملكها: ضاري، أنا لا أريد الزواج منك ولا من غيرك، أنا مرتبطة بشخص، ولن أتزوج غيره!

قال باستخفاف: عرفت من مصادري الخاصة كما أخبرتني ياسمين سابقاً أنك تفكرين بابن خالتك، لكنني مستغرب من الأمر، ألا تعرفين أنه لقيط؟ صرخت بوجهه: لا تتكلم عنه بسوء، لن أسمح لك.

قال بسخرية: أنا لا أتكلم عنه بسوء، أنا أقول الحقيقة التي يعرفها الجميع، تريدان الزواج من شخص مثله؟ ما ذنب أولادك في المستقبل؟

أحست أنها ترتعش غضباً وهي تقول: سيتشرفون به كما أتشرف به أنا، إنه شاب صالح ولا يهمني أنه مجهول النسب، يكفي أنني أعرفه جيداً، يكفي أنني أحبه، هل تسمع؟ أنا أحبه، ولن أتزوج غيره، ضاري من هذه اللحظة لا أريد أن أراك في طريقي، لا أريد أن أسمع اسمك ولا أريد لأملك أن تتصل بأمي، أنا سأتزوج أيوب، وإن لم أتزوجه فلن أتزوج طوال عمري حتى يجمعني الله به في الجنة، هل فهمت؟

تركته دون أن تسمع رده، خطت نحو بيتها وهي لا تزال ترتعش، وقع مفتاح

البيت من بين أصابعها مرتين قبل أن تستطع إدخاله في ثقب الباب من شدة انفعالها.

دخلت وأقفلت الباب وراءها، وبمجرد أن فعلت انهارت على الأرض باكية وهي تسند ظهرها عليه..

كانت تبكي لأنها ولأول مرة تسمع رأي الناس بحبيبها، رأي جائر لا يستند إلى شيء، ما ذنبه وما ذنب من مثله؟ إنهم بلا ذنب، إنها مجرد ضحايا، وهي لن تتخلى عن أيوب مهما حصل..

في الخارج ركب ضاري سيارته وهو يردد: مجنونة! لا بد أنها فتاة مجنونة لتفضل ذلك النكرة علي!

حرك سيارته فإذا بالمحرك لا يدور، كان يقف بجوار منزل ورد من الخارج، أحس بالارتباك، فمن غير المعقول أن يتعطل به هذا المحرك اللعين في هذا المكان بالذات!

نزل وفتح الغطاء الأمامي للسيارة، عاد وحاول تشغيل المحرك بلا فائدة، لم يعرف كيف يتصرف، فكر بالاتصال بأحد أصدقائه ليقله وقبل أن يفعل فكر بسيارته، كيف يتركها هنا عند بيت ورد، لا بد أنها ستثير ريبهم إن رأوها وسيستاءلون عن صاحبها!

فجأة رأى سيارة السائق تتجه إلى البيت وماجدة تجلس في المقعد الخلفي، نظرت ماجدة بفضول نحو ضاري، وعندما توقفت السيارة عند البيت لم تتردد بسؤاله عما يفعله بجوار بيتها في هذا الوقت..

نزل ضاري ليحادثها وهو محرج للغاية، لم يعرف كيف يجيب سؤالها عن هويته، قال بصوت خفيض وهو يتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه: أنا ضاري، ضاري المحمودي.

بدت الدهشة على وجه ماجدة فقالت: معقول! أنت ضاري! وما الذي تفعله هنا عند بيتنا في هذا الوقت المتأخر!

قال لها بارتباك: بصراحة كنت أريد التحدث مع ورد، أعرف أن تصرفي غير

لائق، وأنا أعتذر عنه بشدة، لكنني قابلتها عند باب المنزل وتكلمت معها قليلاً، وعندما أردت الرحيل فوجئت بسيارتي تتعطل ولم أستطع تحريكها من مكانها، أنا حقاً مُخرج مما حصل!

نظرت إليه ماجدة، كانت سعيدة لرؤيته يتسكع عند بيتهم، لا بد أنه يحب ورد بجنون وإلا ما كان ليضع نفسه في هذا الموقف المخرج.

قالت له بلين: تعرف أننا نعيش بلا رجل، يجب عليك أن تخاف على سمعتنا يا ولدي.

قال بصدق: أنا حقاً آسف، لن آتي إلى هنا بعد اليوم، أعدك.

أحست أنه يعني ما يقوله فسألته بقلق: ماذا تقصد؟

قال: صارحتني ورد أنها تحب ابن خالتها ولن تتزوج غيره، علي الانسحاب من حياتها فوراً، لا أريد أن أضايقها أكثر من ذلك، اعذريني سأتصل بصديقي ليقلني، وفي الغد سأرسل من يصلح السيارة، آسف جداً على كل هذا الازعاج! أحست ماجدة بأنها ستجن، إن ورد تتحايل عليها، لازالت على علاقة بأيوب وهي التي ظنت أن كل شيء بينهما قد انتهى، لقد أوهمتها بأنها قد تعقلت وتركته واقتنعت أنه لا يريد لها فإذا بها تخبر ضاري المحمودي بنفسها عن حبها له دون حياء وكأنها تتحدى العالم كله من أجله دون أن تأبه حتى بأُمها!

لم تكن تعرف أن ورد ماكرة، لم تتوقع منها كل هذا المكر، لكنها اكتشفت في تلك اللحظة أن ابنتها ممثلة بارعة، واكتشفت أيضاً مدى الخطر الذي يشكله هذا الأيوب على حياتها، إنها مستعدة لتحدي الجميع من أجله، زفرت ماجدة وقد ضاقت بما عرفت..

تركت ضاري دون أن تودعه، ودخلت المنزل وهي في أسوأ حالاتها، وعندما صعدت الدرج رأت ورد في الممر بجوار غرفتها، نظرت ورد إليها مبتسمة وهي تقول: مرحباً أُمي، كيف كان الحفل؟

نظرت إليها ماجدة بغضب ودون أن تعي ولأول مرة في حياتها رفعت يدها وصدفت ورد بكل قوتها على خدها...

(79)

مخططات

جلس وليد أمام ياسمين في أحد المطاعم، كان قد اتفق معها على أن يتناولوا غداءهما معاً في ذلك اليوم، لم يخف من أن يراه أحد معها فعن قريب ستصبح زوجته أمام كل الناس، كان عليه أن يتفق معها على بعض التفاصيل قبل أن يتقدم لخطبتها رسمياً من أهلها.

بدت ياسمين في غاية السعادة، كانت ترتدي ثوباً بلون الورد وقد صبغت شفيتها بلون مماثل يليق جداً بها ويظهر جمال بشرتها وعينيها.

في كل مرة كان وليد يتأملها فيها يدرك كم هي امرأة جميلة، إن جمالها غير مألوف، إنها جميلة كدمية، رقيقة كملاك، لكنها لم تكن ملاكاً على الإطلاق.

كانت تعرف أن وليد قد أخبر فضة بنيته بالزواج منها، لم تعرف فضة هويتها بعد، لكنها ستعرف قريباً على أية حال، كانت ياسمين تشعر بنشوة غريبة وهي تتخيل فضة وهي تسمع باسمها، وكانت تشعر بنشوة أعظم وانتصار أكبر عندما تتخيل عندما تعرف ورد أنها ستتزوج من وليد وتأخذه من ابنة خالتها!

لم تكن تستطيع أن تفسر هذا الشعور الذي تحسه، لكن شيئاً بداخلها كان يريد الانتقام من ورد التي سرقت قلب ضاري الذي لم يحبها هي، كانت تشعر أن زواجها من وليد سيعالج عقدها تلك، وسيرد لها اعتبارها أمام ورد التي لا تعرف شيئاً عن ما يدور بداخلها!

معتقد هي النفس الإنسانية، إنها تخلق أعظم الصراعات من مجرد تخيلات، أوهام قد لا تعكس الحقيقة، إن ما تصنعه النفس أكثر تعقيداً من ما يصنعه الواقع. لم تكن ياسمين ناضجة، ولم تكن تفكر بطريقة سوية، كانت مشوشة المشاعر، لكنها تعرف أنها تريد أن تتزوج وليد بالذات حتى لو كان في زواجها

منه دمار لبيته وأسرته.

قال وليد: بصراحة فضة خيرتني بينك وبينها، تقول أنها تريد الطلاق في حال تزوجت عليها.

برقت عيني ياسمين وهي تقول: أعرفت من أكون؟

قال: لا لم تعرف بعد، لكنها جادة على ما يبدو بطلبها الطلاق في حال تزوجت منك، لم أرها هكذا من قبل.

قالت بلا مبالاة: إذن طلقها، سيكون ذلك أفضل للجميع.

سألها وهو ينظر إلى عينيها كأنه يريد أن يقرأ ما تفكر فيه: ماذا تقصدين؟

قالت وهي تنظر إليه بجرأة: أقصد أنني سأكون أكثر سعادة إن كنت لي وحدي، الأفضل أن تطلقها وترتاح منها ومن واجباتك نحوها.

سألها وهو يفكر: وماذا عن الولد؟

سألته بأنانية: أي ولد!

تعجب: ولدي! يوسف!

ضحكت وهي تقول: لقد نسيت وجوده، ولدك رضيع ولا يفهم ما يدور حوله، وستراه بالطبع وتهتم به عندما يكبر.. وعندما يسألك في يوم ما لم طلقت أمه ستخبره وقتها أنها هي التي أصرت على الطلاق، من حقدك أن تتزوج يا وليد، تعرف ذلك جيداً.

خطر له سؤال لم يفكر فيه من قبل فسألها: أتقبلين أن أتزوج عليك في يوم من الأيام؟

بدت كمن لدغها عقرب فقالت وهي تنتفض في مكانها وتكاد تصرخ: طبعاً

لا!

رفع حاجبيه بدهشة: قلت لتوك أنه من حقي أن أتزوج!

قالت بغرور: وليد، من تكن له زوجة مثلي من غير المعقول أن يتزوج عليها،

انظر لي جيداً، أعتقد أن هناك امرأة أجمل مني؟

فاجأه جوابها، كانت مغرورة جداً، لم يلاحظ من قبل أنها بهذا الغرور

والتكبر، إنها تظن نفسها أفضل من فضة!

فضة.. فضة العادية الشكل الذهبية القلب والعالية الأخلاق، إن كان لن يجد أجمل من ياسمين فهو لن يجد أكرم من فضة.

عجباً، لم أحس فجأة أنه يستخسر أن يتركها؟ لقد كان غير مهتم بخسارتها، كان كل همه الزواج من ياسمين لكنه في تلك اللحظة أحس أن فضة تعني له الكثير!

أخبر ياسمين أن أمه متعاطفة مع فضة، وأنهما عندما يتزوجان سيكون من الأفضل لهما أن يسكنا خارج المنزل لحين تعاد أمه على وجود ياسمين في حياته.

كان يفكر بوضع أمه، كيف يتركها تعيش وحدها في البيت بعد أن يطلق فضة، أخبرته ياسمين أن الوضع سيكون مؤقت، وقد ينتقلان للعيش معها بعد فترة وجيزة من زواجهما وقد تتقبلها أمه بسرعة على عكس ما يعتقد، قالت له: لا تنسى أنك ولدها الوحيد، وسعادتك نهمها، لن تخسرك من أجل فضة، ففضة ليست ابنتها، تذكر ذلك!

كان لديها رد جاهز لكل ما يفكر فيه، أحس أن الأمور بسيطة من وجهة نظرها، سألتها إن كانت متأكدة من موافقة أهلها على الزواج به، لم تخبره أنها منذ طلاقها من خالد لم تعد تهتم برأي أهلها فيما تفعله، فلو كانت لا تزال مهتمة برأيهم لكانت إلى اليوم زوجة لرجل لا تطيقه ولا تحبه.

تغيرت ياسمين كثيراً، لم تعد تلك الفتاة المطيعة لأمرها والمغلوبة على أمرها، لم تعد تعتمد على أمها في كل شيء وترى الأمور من وجهة نظرها كما كانت سابقاً، لقد تمردت، وأدى تمرداها إلى خلق نسخة جديدة منها، نسخة مغرورة أنانية، لا تهتم إلا بنفسها ولا تطيع إلا رغباتها حتى لو أذت الآخرين أو دمرت حياتهم في سبيل حصولها على ما تريد.

انتهى ذلك اللقاء بين وليد وبينها، وقام ليمشي على البحر ويفكر بما هو مقدم عليه، يستطيع أن يتجاهل طلب فضة للطلاق، يستطيع أن يتركها معلقة

ومن يدري قد تتقبل الواقع في يوم من الأيام وترضخ له، لا يظن أن فضة ستلجأ للمحكمة لتطلب الطلاق، إنها أكثر وداعة من أن تفعل، لن تسلك طريق المحاكم معه، إنه متأكد فهو خير من يعرفها، ليست من هذا النوع من النساء، حتى لو كان في الأمر حق لها، فإنها من المستحيل أن تقاضيه، يكاد يجزم بذلك..

عاد إلى البيت فوجد أمه لا تزال متجهمه الملامح، لم تكن تحادثه، كانت غاضبة منه، ألقى السلام عليها فلم ترد عليه.

صعد إلى غرفته، تأمل صورة له مع فضة، كانت هذه الصورة يوم زواجهما، بدت فضة جميلة يومها، أجمل من المعتاد، تذكر لقاءه الأول بها، إعجابه بأخلاقها وحياتها، ألم يحبها حقاً؟ أم أن مشاعره قد تبدلت مع الوقت؟

ماذا عن ياسمين؟ يذكر أنه لم يكن معجباً بها على الإطلاق عندما التقاها لأول مرة، صحيح أنها فاتنة، وأنه لاحظ جمالها الأخاذ، لكنه لم يجد أن في طلبها للطلاق من زوجها السابق أي مبرر، لقد حاول أن يصلح بينها وبينه، يذكر ذلك جيداً، لكن مهلاً لم يتذكر هذه الأمور الآن؟!

أغمض عينيه حائراً، وصوت ما في صدره يخبره أنه سيظلم نفسه قبل أن يظلم فضة إن تخلى عنها وطلقها!

ألم ودموع

لم تخرج جوهرة من غرفتها في ذلك الصباح، بقيت في سريرها متدثرة بلحافها، كانت تتظاهر بالنوم أمام أحمد، وعندما خرج فتحت عينيها لتحدق في السقف وتفكر.

إن ما عرفته من أريج لم يكن متوقفاً، ظنت أنه من المستحيل أن تظهر أم أيوب في أحد الأيام، كان الأمر أشبه بمعجزة، فكرت.. هل من الأفضل لأيوب أن يعرف من هي أمه؟

تذكرت تلك الرسائل التي وجدتها في صندوقه صدفة، تلك الرسائل التي جرحت قلبها وأدمته لأنها اكتشفت أنه يتوق لمعرفة أمه الحقيقية، أيمنها أن تحرمه من حقه بمعرفة المرأة التي لم يتوقف عن مناجاتها والتي يكتب لها آملاً بأن يعرفها في يوم من الأيام؟

من حقه أن يعرف، يجب أن تخبره أن أمه عادت لتراه، حرام أن تخفي عنه هذا الخبر، قد لا يسامحها إن عرف أنها حرمتها من أمه التي أنجبته، لكن بم تفيد معرفته بها؟ لن تتمكن من الاعتراف به أو نسبه إلى أبيه، لن يتغير شيء في وضعه، أيمنه مثلاً أن يرفع قضية إثبات نسب إن عرف من أريج من يكون أباه؟ إنها لا تعرف في هذه الأمور، ولا تعرف ما سيقدر فعله إن عرف الحقيقة، لكن عليه أن يعرف، من حقه أن يعرف، ولأنها تحبه حباً جماً لن تخفي عنه الحقيقة التي يتوق لمعرفة.

لقد اجتذب أمه إلى حياته، اعتاد أن يكتب إليها، أمه التي اشترى لها الهدايا وأخفاها وحلم بيوم يجمعه بها، أمه صارت واقفاً لا حلاماً، وما دامت قد طلبت من جوهرة أن تمهد لها الطريق إليه، عليها أن تفعل ذلك إكراماً له هو قبل أي

لا تهمها أريج فهي بصعوبة تعرفها رغم أنها أشفقت عليها من حجم ذلك العذاب التي تحمله في قلبها، لكن أيوب يهملها، في الحقيقة هو أكثر من يهملها في هذه الدنيا، إنه تحبه، إنه ولدها، حتى لو لم تكن أنجبته من بطنها، لقد ربته في حضنها، أرضعتها حليبها، سهرت عليه عندما مرض، اهتمت بدراسته عندما كبر، حرصت أن تحميه من كل سوء يمكنها حمايتها منه، اهتمت بكل ما يخصه، إن أيوب هو رسالتها في الحياة، إنه سبب وجودها كما تؤمن وتعتقد، لقد خلقها الله من أجله، من أجل أن تنقذه وتحيه كل هذا الحب..

إنها تتعذب من أجله، سيعرف ويتيقن أنه ثمرة علاقة غير شرعية، سيتألم كثيراً، لكنه سيعرف من يكون والداه، ومن يدري، قد تكون هناك طريقة ما لإثبات نسبه لأبيه على الأقل.

بكت جوهرة كثيراً وحدها، وعندما طرقت فضة باب غرفتها تظاهرت بالنوم، اقتربت ابتتها منها ولمست جيبتها، وعندما اطمأنت أنها لا تعاني من الحمى تركتها وخرجت بهدوء.

فتحت جوهرة عينيها ثانية، تخيلت أيوب وبجواره أريج، ذلك الشبه الكبير بينهما، تألمت بشدة وهي تفكر، كيف ستبلغ أيوب بهذا الخبر؟ وكيف سيتقبل هو الحقيقة؟

أيمكنه أن يحب أريج أكثر منها؟ أدركت أن هذه الفكرة في قمة السطحية لكنها كانت تلح عليها بشدة لدرجة أزعجتها، أيمكنها أن تغار من أريج؟ أتريد أيوب لها وحدها؟ لا إنها ليست أنانية أبداً، ستخبره الحقيقة، لقد عادت أمه، وليحبها ويسامحها إن استطاع، ستفرح من أجله، وسيظل ولدها وحببها وأعز الناس على قلبها كما كان دائماً ومهما حدث.

(81)

صفحة

حدقت ورد بوجهها بمرآتها غير مصدقة وهي ترى آثار أصابع أمها المطبوعة على خدها الأملس بوضوح.

لا تزال لا تصدق ما حدث، أضربتها أمها فعلاً!

تمنت لو كان الأمر مجرد كابوس مزعج لم يحدث في الواقع، لكن تلك الآثار تؤكد لها أن ما حدث حقيقة، وعليها أن تستوعبها.

عرفت أمها أنها كانت تكذب عليها، عرفت أنها لا تزال على عهدا مع أيوب، لا تزال تريده وتنتظره، لا تزال تراه وتحادثه.

أخبرها ضاري بكل شيء، فلم تكذبه..

تلقت تلك الصفعة المدوية فلم تخف ولم تنكر..

وحتى لو ضربتها أمها ألف صفقة لم تكن لتتخلى عن أيوب.

كانت مجروحة، والأكثر كانت مصدومة، لم يضربها أحد قط في حياتها كلها، ولم تتوقع أن تضربها أمها أبداً خاصة وهي في هذه السن، إنها كبيرة، إنها محامية، فكيف تضربها أمها وتصفعها كما لو كانت طفلة أو صبيرة صغيرة!

لم تخرج من غرفتها منذ تلقت تلك الصفعة ولم تلتق بماجدة، أحست أن ما حدث نقطة تحول في علاقتها بها، عرفت أن أمها أقوى وأشد قسوة مما كانت تظن.

إنها امرأة تحاربها، تقف ضدها، وتستطيع إيذاؤها، لم تعد تنظر لأمها كأم، لقد صارت عدوتها، لم يكن معنى ذلك أنها كرهت أمها أو تمنى لها الشر لا،

إطلاقاً، لكنها عرفت أن أمها هي عدوة حقيقية لأيوب، عرفت ذلك أكثر من أي وقت مضى، ومن يعادي أيوب يكون عدو لها هي أيضاً، فهي وأيوب واحد.

فكرت أن تخبر أيوب بما حدث لكنها خافت، خافت أن يواجه أمها فتُسمعه ما لا يليق، خافت أن تصفحه كما صفعتها فهي لا رادع لها، خافت أن تحاول أن تسمم أفكاره كما سبق وفعلت وأن ترغمه على الإنسحاب من حياتها، لا تستطيع أن تعيش من غيره، لقد خاضت التجربة عندما هجرها وحاول إبعادها عنه، لقد ماتت وقتها رغم أنها ظلت على قيد الحياة، لا حياة لها بدونه، لا تستطيع أن تعيش من غيره.

إنه نبضها، إنه ذلك الدم في عروقها، إنه حبها، وذلك النور في عينيها، إنه حياتها، وذلك الأمل في أيامها، بدونه هي لا أحد، بدونه لن تزهر ولن تعرف معنى الفرح، بدونه يختفي كل شيء جميل بداخلها، بدونه تضيق، وتذبل، وتتلاشى كأنها لم تكن..

إنها تعرف جيداً أنها لن تستطيع أن تعيش بدونه..

((أتعرف ما أتمنى؟ أتمنى أن أرحل معك إلى مكان بعيد ليجمعنا القدر،
لنعيش سوياً بسلام بعيداً عن كل البشر)).

(82)

لقد عادت

عندما دخل شهاب على أمه ليعاود التحدث إليها في موضوع عذارى راعه وجهها الذابل وعينيها الغائرتين.

سألها عن ما حل بها، فنظرت إليه بحزن شديد وطلبت منه أن ينادي أيوب ليراها.

كان أحمد قد أخبرها أنه سيتأخر في العودة في ذلك اليوم، وكانت فضة مشغولة بطفلها خاصة وأن الخادمة كانت مريضة ولم تستطع النزول لمساعدتها ككل يوم. ذهب شهاب لينادي أيوب، كانت جوهرة قد تظاهرت أنها متوعدة لتبرر بقاءها في سريرها طوال ذلك النهار، كما تظاهرت بالنوم كلما ظل أحد عليها.

دخل إليها أيوب وسألها بقلق: أمي، أتريدين أن آخذك إلى المستشفى؟

كان شهاب يقف وراءه وهو ينظر إليها بقلق هو أيضاً.

قالت جوهرة مخاطبة شهاب: اتركنا وحدنا أرجوك، أريد أن أتحدث مع أيوب في أمر هام.

تضايق شهاب من تفضيلها لأيوب عليه حتى في مرضها وتعبها، فخرج من الغرفة وهو يشعر بالاستياء.

أحكم أيوب إغلاق الباب وجلس أمامها، فكر في داخله، لابد أنها عرفت بمشكلة فضة لذلك تبدو حزينة إلى هذا الحد، توقع أن تحدثه بهذا الموضوع ولم يكن يتوقع ما ستقوله له.

قالت جوهرة: تعرف كم أحبك صحيح؟

نظر إليها، إنه يعرف جيداً كم تحبه، إن حبها له هو أكثر ما يعرفه في هذا العالم، لقد تيقن من هذا الحب بنفسه، عاشه، ولمسه، ابتسم لها وقال: وأنت أيضاً تعرفين

كم أحبك صحيح؟

انهمرت دموعها، لقد ظنت أنها تعرف، لكن رسائلها تلك فاجأتها وهزت ثقتها في حبه لها لقد كان يريد أن يعرف أمه الحقيقية وسيعرفها الآن فكيف تثق في حبه لها؟

سألها بقلق: ما بك يا أمي؟ لم أنت حزينة هكذا، أخبريني؟

لم يرد أن يخبرها أنه يعرف بمشكلة فضة، خشي أن تعاتبه لأنه لم يخبرها، أراد التظاهر أمامها بأنه لا يعرف شيئاً، كما أنه لن يخون ثقة فضة التي ائتمنته على سرها. قالت جوهرة: أيوب، حصل أمر ما، أمر غير متوقع، إنه أشبه بمعجزة، لم أكن أتوقع لهذا الأمر أن يحدث لكنه حدث، حدث فعلاً، وعليك أن تعرف..

سكتت، لم تعرف كيف تمهد له، كيف تصدمه، كيف تكشف له حقيقته.. سألتها: لا أفهم ما تقصدين يا أمي.

كانت تتألم كلما نطق بتلك الكلمة.. أمي.. إن له أمماً أخرى، وهي تبحث عنه وتريده أن يعرفها.. ماذا سيناديها أيوب عندما يعرف من هي أمه يا ترى؟

قالت وهي تستعين بالله ليقوي قلبها: أيوب.. أتذكر أريج.. جارتنا التي وقعت في بيتنا وأخذناها معاً إلى المستشفى؟ قال بهدوء: ما بها؟

نظرت إليه، فتخيلت أريج أمامها، أغمضت عينيها، ثم تكلمت بشجاعة: أريج أخبرتني ببعض الأمور، أمور لم أكن أتوقع أن أسمعها في يوم من الأيام، لقد أخبرتني الحقيقة.

سألها وهو يكاد لا يفهم شيئاً من حديثها حتى ظن أنها محمومة تهذي: أي حقيقة؟

نظرت إليه وهي تعرف وقع ما ستقوله عليه: أخبرتني أريج أنها.. صمتت..

سألها بفضول: أنها ماذا؟

قالت ودموعها تنهمر من جديد: أنها أمك الحقيقية يا أيوب!

(83)

من هو؟

كانت أريج تجلس في غرفتها بالفندق، كانت الغرفة واسعة مريحة لكنها بدت بالنسبة لها كسجن ضيق بغيض تكاد تفقد فيه وعيها. لا تزال تذكر وعد جوهرة عندما قالت لها: سأخبره بوجودك، وسأتي به إليك.

إنها لم تتزحزح من هذه الغرفة منذ وعدتها جوهرة بذلك، لم تتجرأ بالاتصال بها لتسألها إن كانت قد تصرفت وأخبرت أيوب عنها أم لا، لكنها كانت تصدقها وتثق بأنها ستفي بوعداها وستجيء لها بولدها. كانت تنتظر، وكان ذلك الانتظار يكاد يقتلها ويزهق روحها، لكنها لم تجد له بديلاً..

عندما سمعت تلك الطرقات على باب غرفتها، توقعت أن تكون منظفة الغرف قد أتت لتقوم بعملها، قامت واقفة وفتحت الباب فشهقت، كان أيوب يقف أمامها بشحمه ولحمه ودون سابق إنذار.

كان محمر العينين، مهووش الشعر، فعرفت أن جوهرة وفت بوعداها وأخبرته عن مكانها، رأت في عينيه ألف سؤال، وعرفت أن اللحظة التي انتظرتها طوال السنوات الماضية قد حانت..

تحركت لتفسح له المجال ليدخل فدخل ذاهلاً وهو ينظر إليها مصدوماً، عندما أخبرته جوهرة أنها عادت من أجله لم يصدق أذنيه، ظن أنه يحلم، لكنها عندما أعطته عنوانها وأخبرتها أنها في انتظاره أحس بأن الحلم حقيقة مؤكدة، لم تخبره جوهرة الكثير، فالأفضل أن تخبره أمه بكل ما يريد معرفته، لا يعرف كيف خرج من البيت ولا كيف وصل إلى هنا، كل ما يعرفه أن أهم لحظة في

حياته كلها قد حانت، لحظة الحقيقة، اللحظة التي سيعرف فيها من هو، وكيف أتى، ومن هما والداه؟

نظرت إليه، إلى ذلك الرضيع الذي غدا شاباً، ونظر إليها، إلى تلك الأم التي يحمل ملامحها ولون شعرها، لم يشعر بأي عاطفة نحوها، إنه لا يعرفها بعد، ومشاعره نحوها مرتبكة مشتتة..

سألها: تقول أمي أنك..

امتلات عيناه بالدموع.. أردف: تقول أمي أنك.. أمي! أهذا صحيح؟

امتلات عينها بالدموع، قالت بصوت خفيض مختنق بدموعها: صحيح، أنا أمك يا أيوب، أنا أمك أنت..

سألها ودموعه تنهمر: كيف؟ أقصد.. لم تركتني؟ من أنت، أو بالأحرى من أنا؟ أخبريني كل شيء.. أريد أن أعرف الحقيقة أرجوك.. أريحي قلبي.. أنقذيني..

رق قلبها عليه، تعرف أنه تعذب طويلاً، تعرف أنه قاسى كثيراً، يجب عليها أن تخبره، إنها هنا لتخبره، ونطقت..

باحث، أخبرته، حكّت له حكايتها وحكايته، مراهقتها العفنة، تعاستها وذلها، حزنها وألمها، عذابها، ذلك الحمل الذي دمر حياتها، حكّت له عن الرجل الذي استباحها وأنكرها، الرجل الذي تركها وثمره غلظته تنمو في أحشائها، الرجل الرعديد الجبان الذي لم يتزوجها، ولم يخف الله فيها، الرجل الذي حطمها وسحقها وداس عليها بقدميه وأكمل حياته وكأنه لم يدمرها، أخبرته عن ولادتها له، عن الخادمة التي لا تزال تخاف أن تبتزها فترسل لها المال كل شهر لتشتري ثمن سكوتها.. أخبرته عن زواجها بويليام، عن عجزها من أن تنجب ولداً غيره، حكّت له عن مرضها، عن عشرات الأدوية التي تناولتها، عن الصحة التي فارقتها، عن أعصابها التي أحرقتها، أخبرته عن ندمها، عن عذابها، عن حزنها وألمها وتعاستها التي تأبى أن تفارقها، كانت تبكي مع كل حرف بألف دمعة، كانت تنزف دموعها، تغسل روحها باعترافاتها، وكان يبكي معها، لم يكن يبكي

من أجلها، كان يبكي من أجل نفسه، لقد عرف أنه ليس ولدأً شرعياً، عرف أن ما خاف منه طوال عمره صحيح عرف أنه يحمل لقباً مخيفاً لا يستطيع حتى أن يفكر فيه، مهما جمل الحقائق مهما قالت له وردته البريئة عرف الآن أن الحقيقة قبيحة، أشد قبحاً مما كان يتصور.

نظر إلى أريج، أمه، إنه لا يعرف هذه المرأة المحطمة، إنه لا يستطيع أن يشفق عليها، لمح ارتعاشة يديها وشفيتها، لمح ظل من كرامتها المهدورة وألمها القاسي وعذابها الدامي، احتار، أيمكنه أن يرحمها من عذاب ذنبها؟ أم يقوم بلومها لأنها لم تصن نفسها فأنت به إلى هذه الدنيا نتيجة استهتارها؟ أيمكنه محاسبتها؟ يبدو أنها قد حاسبت نفسها أكثر مما ينبغي، فالحال التي هي عليها تؤكد له أنها لن تحتل حسابها لها.

سمعها وهي تحكي، سمع كل كلمة نطقت بها، لم يتجرأ على لمسها، كانت مهارة تماماً عندما انتهت من حكايتها، لقد ظنت أنها عندما ستحكي له سترتاح، لكنها عندما حكّت دمرت ما بقي لها من نفسها.

لا يعرف كم ساعة قد مرت وهو في حضرتها، لم يعرف كم كلمة قد قيلت وهو يسمعها، لم يعرف كم دمعة من دموعها ودموعه قد انهمرت وهو أمامها، لم يعرف كيف يستوعب الحقيقة التي ذكرتها، لم يعد يعرف كيف سيكمل حياته بعد أن عرفها.

قام متهاكاً بعد أن عرف الحقيقة، يستند على حائط الغرفة وهو يشعر أنه فقد شيئاً عظيماً، لقد فقد الأمل بأن يكون ابن حلال، بأن يكون ثمرة زواج أياً كان نوعه، أحس أنه صار لقيطاً، يتيماً، مجهولاً، بأنه صار لا شيء ولا أحد... ولأول مرة أحس بالندم لأنه أتى إلى هنا، ليته لم يأت، ليته لم يكتب لهذه المرأة حرفاً واحداً، ليته اكتفى بجوهرة، ليته لم يتمن أن يعرفها، ليته لم يعرفها ولم يعرف الحقيقة منها..

اقرب من باب الغرفة، وقبل أن يخرج سألها: أريد أن أعرف منك شيء واحد بعد قبل أن أرحل!

نظرت إليه من بين اخر دموعها مستفسرة..

سألها بصوت محشرج: من هو أبي؟

حدقت به، عرفت أنها لن تراه من جديد، عرفت أن عليها أن تعود من حيث أتت، وأنها لن تقترب منه بعد الآن إلى الأبد، عرفت أنها أضعف من أن تطوقه بذراعيها، وأتعتس من أن تداوي جراح قلبه التي تسببت بها بعمل يديها، فكرت قليلاً في سؤاله..

حسنت أمرها وقالت وهي تنظر إليه للمرة الأخيرة: اسمه غانم المسعودي..

عرش في القلب

كانت جوهرة تجلس في صالة منزلها وهي ساهمة، كانت قلقة على أيوب و بانتظار عودته من عند أريج بفارغ الصبر..

لم تدرك كم من الوقت قد مر وهي جالسة مكانها عندما فوجئت بفضة وهي تخرج من غرفتها وهي ترتدي ثياب الخروج وطفلها بين ذراعيها.

سألتها جوهرة مستغربة: فضة، إلى أين؟

قالت فضة مبتسمة: قررت العودة إلى بيتي.

تعجبت جوهرة: الآن؟ في هذا الوقت؟ وقبل أن تتمي المدة المعروفة؟

قالت بهدوء: أريد أن أفاجيء وليد بعودتي، لقد تعودت على وجود يوسف وصرت أستطيع العناية به وحدي مع الخادمة، لا تقلقي علي يا أمي، أريد أن أعود إلى منزل زوجي، ستساعدني أمه أيضاً لا تقلقي أنا الآن بخير ولا داعي لأن أبقى هنا أكثر.

لم تعرف جوهرة ما تقوله، لم يكن تصرف فضة يعجبها، لكنها لم ترد أن تتدخل في حياتها الخاصة، أخبرتها فضة أنها اتصلت بأباها وطلبت منه أن يوصلها، وخلال دقائق صار الأب في الخارج ليوصلها إلى بيت زوجها.

قبلت فضة أمها بحرارة، وقبلت جوهرة حفيدها، أخبرتها أنها ستزورها في الغد لتطمئن عليهما، وأوصتها كثيراً بنفسها وبابنها.

خرجت فضة ويوسف نائم كالملاك بين ذراعيها وبقيت جوهرة وحدها وقد أحست ببعض الحزن لرحيل ابنتها بهذه الصورة المفاجئة، لم يعجبها أنها لم تخبر زوجها ليأتي لأخذها، لكنها لم ترد أن تزعجها خاصة وأنها لاحظت مدى سعادتها بقرارها بالعودة إلى بيتها فلم تشأ أن تفسد فرحتها بعبابها ونصائحها.

قررت جوهرة أن تحاول الاتصال بأيوب، لكنها وجدت هاتفه مغلق، أحست بالقلق عليه سمعت مفتاح الباب يدور فنظرت نحوه بلهفة، فظهر شهاب وهو يدخل المنزل فشعرت بالخيبة لأنها كانت تتوق لعودة أيوب.

قال شهاب: يبدو أنك لم تفرحي لرؤيتي، لا بد أنك بانتظار أيوب صحيح؟ أحست بالذنب فجأة وهي تنظر إليه، إنها لا تعطيه إلا القليل من عاطفتها، وتفضل أيوب فعلاً عليه كما يحس ويصرح في كل مناسبة.

قالت له وكأنها تسترضيه: كيف حال عذارى؟ تهلل وجهه لأنها ذكرت عذارى أخيراً: بخير.. ألن تتصلي بأهلها من أجل تحديد موعد زواجي بها؟

سألته بجديّة: هل أنت واثق أنك تريدها؟ قال بسرعة ولهفة: طبعاً..

ابتسمت له وهي تقول: إذن سأتصل بهم غداً إن شاء الله وأتفق مع أمها على التفاصيل.

لم يصدق شهاب نفسه وهو يسمعها تقول هذا الكلام، ضحك وهو يحتضنها: أخيراً، لا تعرفين كم أنا سعيد..

قالت له: أتمنى لكما السعادة، لكن تذكر، لن يدخل قلبها بيتي أبداً، مفهوم؟ ضحك وهو يقول: مفهوم، مفهوم، لن يدخل بيتك أبداً.. ياه كم أنا سعيد! ابتسمت له، إنها سعيدة من أجله، عليها أن تكون كذلك، مادام يريد هذه الفتاة بالذات ويحبها كل هذا الحب فلم تقف في طريقه وطريق سعادته؟ عليها أن تسانده فهو ولدها، عليها أن لا تنسى ذلك!

سيكون جميلاً أن يفرحوا بزواج شهاب، إنه حدث سعيد وإيجابي، عليها أن تتخطى شعورها السلبي تجاه عروسه، ومن يدري قد تكون فتاة صالحة وقد تحبها وتُعجب بها في يوم من الأيام.

لم يعد أيوب إلى المنزل في تلك الليلة باكراً، اتصل وأخبر جوهرة أنه متعب ويحتاج لقضاء بعض الوقت وحده، طلبت منه أن يعود إلى البيت، أخبرته أنها

ستخلد للنوم، ولن تنتظره، تعرف أنه لن يحتمل أن يتحدث مع أحد في هذا الوقت العصيب، وعدها أن يعود في الغد، سألته أين سيقضي ليلته فلم يرد فألحت عليه بالعودة إلى البيت، ولم تُنه المكالمة إلا عندما وعدها بالعودة.

صعدت إلى غرفتها وعندما عاد أحمد لم تخبره عن غياب أيوب.

ظلت مستيقظة في سريرها إلى أن سمعت صوت خطواته وهو يتجه إلى غرفته، فكرت بأن تذهب لتراه، لكنها قررت أن تتركه وحده، ستراه في الغد وتحدث معه كما تريد، المهم أنه عاد إلى منزلها، منزل أمه التي ربتته وأحبته وصنعت له عرشاً في وسط قلبها.

(85)

أهلاً وسهلاً

لم يصدق وليد عينيهِ عندما دخل غرفته ووجد فضة جالسة بانتظاره وهي في أتم زينتها،

كان يوسف الصغير نائماً في سريره الصغير الذي اشترته له فضة قبل ولادتها، بدا وديعاً كالملاك وسط الملاءات الزرقاء الجميلة والنظيفة التي جهزتها له فضة أيضاً قبل أن تلده.

قال وهو يبتسم لها: حمدلله على السلامة، لم أكن أعرف أنك ستعودين اليوم.

قالت وهي تبسّم له: قررت أن أعود إلى البيت، قررت أن أفاجئك.. أتعرف؟ لقد فرحت أمك كثيراً بهذه المفاجأة.

قال لها بامتنان: خيراً فعلت، هذا البيت بيتك أنتِ، أهلاً وسهلاً بكِ في بيتكِ يا أم يوسف.

قالت وهو تنظر له بشوق: شكراً لك، أتعرف، اشتقت للبيت كثيراً.

سألها: اشتقت للبيت فقط؟

ضحكت بخجل: اشتقت للبيت ولصاحب البيت..

أحس بالزهو وهو يرى خجلها وشوقها إليه، إنها تحبه، يعرف ذلك، وهو أيضاً يحبها!

ابتسم لها ابتسامة كبيرة، ودون أن يتكلم ضمها إلى صدره فاستكانت بين ذراعيه وأغمضت عينيها فأحس كم هو سعيد بعودتها، قبل جينها، وشدها من يدها واقترّب بها من مخدع طفلهما، نظراً إليه معاً، فهمس لها: الحمدلله، هذا الطفل نعمة كبيرة..



همست له بدلال: أحبه كثيراً لأنه يشبهك ..
مسح بيده على شعرها وغرس أصابعه بين خصلاته الناعمة الكثة، وفي تلك
اللحظة أحس كم هو مشتاق لها وسعيد بعودتها إلى بيتها ومكانها.

قلب يتغير

لم يعد كما كان، ولن يعود أبداً كما كان!
 هكذا صرحت جوهرة لنفسها وهي تجلس أمام أيوب..
 لقد تغير قلبه، هذا أقل ما يمكنه أن يقال لوصف حاله، كان حزيناً محطماً،
 ظلت تنظر إليه بصمت وهي لا تجد ما تقوله له، نظر إليها وقال: لم أكن أدرك
 كم أنا مدين لك إلا الآن!
 قالت بحرارة: أيوب، أنت ولدي فعلاً لا تنسى ذلك، أنت ولدي من الرضاعة
 على الأقل.

لم يغمض له جفن منذ سمع قصة أمه، منذ عرفها، منذ اكتشف حقيقته كاملة،
 ما الذي يمكنه أن يفعله بهذه الحقيقة؟ هل ارتاح باله عندما عرف من هو؟ لا
 وألف لا، لقد تعب أكثر وتشنت أكثر وأكثر، صار لكل شيء طعم مر بداخله،
 كل شيء اختلف وتغير، لم يعد أي شيء كما كان، أحس أنه كره ملامحه التي
 تحمل ملامح أمه، لم يكن يتخيل أنه يشبهها إلى هذا الحد، أهو غاضب منها؟
 أم مشفق عليها؟ إنه لا يدري، يحتاج لبعض الوقت ليستوعب وضعها، عليه أن
 يحاول أن يفهمها، لكن أيمكنه ذلك؟

نظر إلى جوهرة، إنها رائعة، لقد أنقذته، لكن ألم يكن من الأفضل أيضاً لو
 أنها لم تفعل؟ لو أنها لم تنقذه، لو أنها تركته يموت غرقاً تحت زخات المطر أو
 يموت كفريسة سهلة لقطط الليل الجائعة.

قالت له وهي تحاول أن تهون عليه: أيوب، ورد اتصلت بك أكثر من مرة،
 إنها قلقة عليك تقول أن هاتفك النقال مغلق من الأمس، هيا حبيبي، قم واغتسل
 وكل شيئاً ثم اتصل بها لتطمئنها عليك.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول بصوت قاطع كالسيف: أستطيع أن أطلب منك طلباً؟

قالت بصدق: لك روعي لو طلبتها..

قال بحزن: أريدك أن تخطبي لي!

ابتسمت له: تريد أن أحاول إقناع ماجدة؟

قال بأسى: لا، خالتي ماجدة كلامها صحيح، لم تُخطيء أبداً في أي شيء

قالته لي أو لك أو لورد، نحن من أخطأنا!

سألته مستنكرة: ماذا تقصد!

قال: أنا لا أصلح لورد، علي أن أضحي من أجلها، علي أن أبعدها عني، ولن

يبعدها عني سوى زواجي من غيرها، أريدك أن تبخني لي عن فتاة مثلي، فتاة

في مثل وضعي، ابخني عن أي فتاة مناسبة واخطبها لي بأسرع وقت ممكن..

أريد لورد أن تنساني، أن تتخطى حبها لي، أن تتزوج برجل من عائلة محترمة،

رجل يعرف الجميع نسبه وأهله، رجل وُلد في النور، ولم يولد في الظلام ليُرمى

مثلي..

كان قلبه يتمزق، وكذلك كان قلب جوهرة، عرفت أنها لن تستطيع تغيير رأيه

هذه المرة، في المرة السابقة عندما طلب منها أن تخطب له كان منزعجاً من

كلام ماجدة، فلم تأخذ طلبه بجدية، لكنه عندما طلب منها أن تخطب له هذه

المرة، كانت الحقيقة قد حطمت كبريائه وأطاحت بكل آماله بأن يكون قد ولد

نتيجة زواج أياً كان نوعه.

سألته جوهرة بقلق: ماذا أقول لورد عندما تسألني عنك؟

قال: أخبريها أنني مريض، وسأرد عليها عندما أتعافى.

صمتت جوهرة، قد يكون من الأنسب له أن يتزوج فعلاً، كم يؤلمها أن

يستسلم هكذا وينهزم بعد كل هذا الحب العظيم الذي عاشه مع ورد، يؤلمها

أنها لا تستطيع أن تغير من واقعه شيئاً، يؤلمها أن تراه يعاني هكذا دون أن

تستطيع التخفيف عنه.

بعد ثلاثة أيام عاد أيوب من عمله وأخبر الجميع أنه سيسافر لحضور دورة رشحته الوزارة لحضورها، لم يحدث ورد ولم تستطع أن تأتي لزيارته بسبب خصامها مع أمها وخوفها من حدوث المزيد من المشكلات معها إن عرفت بذهابها لرؤية أيوب من جديد بعد كل ما حصل.

أرسل إليها رسالة في صبيحة سفره بنية أن يبلغها أنه سيغيب أسبوعاً، لم يعرف لم أرسل لها تلك الرسالة، أليس من المفترض به أن يقاطعها؟ أحس أن عليه أن يترفق بها، لا يزال يتذكر كم عذبها، قدرها أن يعذبها، وقدره أن يتعذب بعذابها.

كتب لها وكأنه يودعها ويترك لها ذكرى طيبة تواسي بها نفسها من بعده:

يا صباحي المختلف يا قلبي المحب..

يا روحي الباقية بين سطور وورق..

يا بوحى العميق يا حزني الدفين..

يا كل شوق وحب يا كل سعد وفرح.

ردت عليه ورد بسرعة: أيوب، أين أنت؟ ما الذي يحدث معك؟
كتب لها: سأسافر اليوم في مهمة عمل لأسبوع، عندما أعود سنتحدث، كوني بخير، أنا آسف!

أغلق هاتفه النقال بسرعة بعد أن وصلتها رسالته، خاف أن تتصل به فيضعف أمام صوتها، لقد اتخذ قراره وعليه أن ينفذه.

قبل رأس جوهرة قبل أن يذهب إلى المطار، أكد عليها: لديك أسبوع كامل، جدي الفتاة المناسبة لي خلاله، وعندما أعود سأخطبها رسمياً، عديني أنك ستفعلي من أجلها.

سألته ودموعها تنهمر قهراً عليه: من أجل من؟

قال بآلم: من أجل ورد.. عديني يا أمي فأنا لا أصدق سوى وعودك أنتِ.

قالت وهي تضمه: أعدك يا أيوب، أعدك.

سافر أيوب وترك لجوهرة مهمة البحث عن عروس مناسبة له، كانت تفكر بأريج، لا بد أنها رحلت، لقد اختفت تماماً ولم تسمع أي شيء منها، لا بد أنها سافرت إلى زوجها وعادت إلى حياتها بعد أن أربكت حياة ولدها.

بدأت جوهرة تبحث عن فتاة مناسبة لأيوب...

وبعد أن سألت وتقصت، وجدتها.. وجدت جميلة..

(87)

جميلة

كانت أمها خادمة تعمل في عند أهل المنزل الذين قاموا بتبنيها لاحقاً، لم يعرفوا بأن خادمتهم حامل إلا عندما سمعوا صراخها ذات ليلة ففوجئوا أنها على وشك الولادة!

كانت صدمة عنيفة لكل من في البيت، ولأن أمها كانت خائفة مرعوبة، تأخرت كثيراً في طلب النجدة، لقد ظنت تلك الخادمة المسكينة أنها ستستطيع أن تلد وحدها وأن تتخلص من مولودها ربما، لم تكن تعرف أنها ستقتل نفسها بفعلتها هذه، عندما اتصلت سيدة المنزل بالإسعاف أخيراً لنجدتها كانت تلك الخادمة قد غرقت بدمائها وبمجرد أن ولدت طفلتها لفظت آخر أنفاسها.

احتضنت سيدة المنزل الطفلة الصغيرة بين يديها، تعرف أن هذه الخادمة فقيرة جداً ولن يتحمل أهلها عبء تربية ابنتها، لم يعرفوا من هو أبها ولن يستطيعوا أن يعرفوا أبداً فأمها قد ماتت وأخذت سرها معها.

قررت سيدة المنزل أن تربي هذه الطفلة مع أطفالها، فلديها بنت وولدين، فما المانع أن تكسب في هذه اليتيمة أجراً؟

كانت الرضيعة تحمل الملامح الهندية، وجه أسمر مستدير، وعينين واسعتين سوداوين، وشعر ناعم كث في لون الليل.

كانت جميلة جداً، وكان فيها سحر ما، أحببتها سيدة المنزل كثيراً وقررت أن تسميها جميلة لأنها فعلاً فتاة مميزة وجميلة للغاية.

كبرت جميلة وسط العائلة، لم تعرف أنها ليست ابنتهم إلا عندما دخلت المدرسة، كان الأمر صدمة لها، بدأت تلاحظ بعدها الفرق الواضح في لون بشرتها ولون بشرة أسرتها، إن بشرتهم في لون القمح في حين يشبه لون بشرتها

لون الشيكولاتة التي تعشق أكلها.

لم تعرف إنها ابنة الخادمة إلا عندما وصلت إلى سن المراهقة، تشاجرت يوماً مع أخاها فصرخ في وجهها وهو يعايرها بأنها ابنة خادمتهم التي ماتت وهي تلدها، صفعته أمه، حرمته من مصروفه لوقت طويل وخاصمته لوقت أطول، لكنها لم تستطع أن تسترجع ما قاله وأن تمحي أثره عن قلب جميلة، فالكلمات كالرصاص إن انطلق لا يمكنه أن يعود إلى مكانه.

عاشت جميلة بعد تلك الحادثة أياماً طويلة مع تساؤلات لا تنتهي، من هو أباه؟ أم هو خادم في أحد البيوت أم سيد في أحدها؟ أم هو سائق أم طباط في الحي؟ ماذا عن أهل أمها؟ ألا يمكنها أن تتعرف إليهم، إنهم أهلها هي أيضاً! سألت أمها بالتنبى إن كانت تستطيع أن تعطيه عنوان أهل أمها لتراسلهم، وعندما فعلت كتبوا لها ليطلبوا منها المال، عرفت أنهم يريدون استغلالها، فهم لا يعرفونها ليجبوها وحاجتهم إلى المال أكبر بكثير من حاجتهم لفتاة فقيرة أخرى تنضم إلى عائلتهم المعوزة.

قررت أن تنسى أهل أمها لكنها قررت أيضاً ألا تنسى حقيقتها أبداً، عرفت معنى تلك النظرة التي يقابلها بها أقرباء العائلة كلما دخلت معهم إلى تجمع عائلي ما، تلك النظرة الغريبة التي تمتزج فيها الشفقة بالترفع، إنهم يشفقون عليها وفي نفس الوقت يعتقدون أنهم أفضل منها، إنهم أفضل منها لأنهم ولدوا في ظروف لم يختاروها، ولم تختار هي أيضاً أن تولد في ظروفها تلك، إنهم يتكبرون عليها في أمر لا يدلها فيه، فلا أحد يختار من يكون ولا كيف يولد ولا أحد له الفضل أبداً في اختيار أمه وأبيه فلم يتعالى البعض على البعض ويصنف نفسه بالأفضل والأكرم لمجرد أنه ابن عائلة لا يدلها في اختيارها؟

أليس الأولى به أن يرحم الآخرين بدلاً من أن يذلمهم ويتكبر عليهم؟ ما ذنبها إن كانت أمها مجرد خادمة مسكينة غرر بها شخص ما؟ ما ذنبها إن كانت أمها لم تصن نفسها فأخطأت؟ ما ذنبها إن كانت لا تعرف أباه؟ ما ذنبها إن أتت إلى هذه الحياة كغلطة فادحة كلفت أمها حياتها وروحها؟

كبرت جميلة وتزوجت أختها من رجل من عائلة ثرية، كانت أختها تخجل منها وتحاول أن تتجنب ظهورها معها أمام أهل زوجها. تزوج أخويها أيضاً من فتاتين من العائلة، كانتا لا تطيقانها لمجرد أنها سمراء وتحمل ملامحاً هندية، كانت أجمل منهما، وأفضل، وكانت سيدة المنزل تقف دائماً في صفها ضدّهما.

تخرجت جميلة من أحد المعاهد وعملت في شركة صغيرة لبيع مستحضرات التجميل بالجملة، أحببت أن يكون دوامها مرناً فهي لا تطيق البقاء مسجونة في مكتب خلف الجدران، فتقضي ساعات طويلة من نهارها في مكان واحد، كانت تحب الحركة، وتكره السكون، تكره أن تجتمع بذاتها فتتعبها بالتفكير في وضعها، تكره أن تبقى وحيدة، وتكره أي لحظة تجبرها بأن تكون فيها وحدها مع نفسها.

عندما اتصلت جوهرة لتخطبها لأيوب فرحت سيدة المنزل كثيراً، فجوهرة معروفة بأخلاقها الطيبة ومعدنها الأصيل، يعرف الجميع قصتها مع أيوب، وفرحت جداً لأنها ستزوج جميلة وتطمئن عليها. أخبرت جميلة عنه والسعادة تلمع في عينيها، استقبلت جميلة الخبر بهدوء، عرفت قصة أيوب من أمها المزعومة، إنه مثلها، جميل أن تتزوج من رجل لن يتكبر عليها ولن يعايرها بأصلها وحقيقتها.

وعندما حددت جوهرة موعداً معهم بعد أسبوع راقّت لجميلة فكرة الزواج من أيوب من شدة تلك الفرحة التي بدت تلمع على وجه أمها.

(88)

إلحاح

متى ستزوجيني من عذارى!

أطلق شهاب ذلك السؤال بغضب وهو ينظر إلى أمه حائقاً، لم يكن يعرف ما تمر به فظن أن تهربها من إتمام موضوع زواجه من عذارى أمر متعمد لأنها غير مقتنعة بها.

قالت جوهرة وهي تستعين بصبرها الذي بدأ ينفذ: شهاب، لنؤجل الموضوع لفترة قصيرة..

قالت بغیظ: لن أغير رأيي، أنا أريد هذه الفتاة وإلا فإنني لن أتزوج أبداً.
قالت له مؤكدة: سأزوجك منها، صدقني أنا لا أتهرب منك، لكن هناك أمور لا تعرفها تشغل بالي في هذه الفترة، شهاب أرجوك، لا تضغط علي أكثر، أشعر أنني سأنفجر!

نظر إليها وكأنه يريد الوثوق بكلامها، لم تكذب عليه من قبل، إنه يصدقها، ومع ذلك يشعر بأنه لم يعد يطيق تأجيل الأمر أكثر أمام عذارى التي سئمت من عجزه عن الوفاء بوعوده المتكررة لها.

تحدث مع عذارى مطولاً في ذلك اليوم، أخبرته أنها لا ترغب بإقامة حفل للزواج، لقد سبق وأقامت عرساً ضخماً في زواجها الأول الذي لم يستمر، لا تريد المزيد من الحفلات ولا المزيد من نظرات الفضول والحسد التي يصبها عليها الناس، تريد أن يعقد قرانها وتنتقل إلى بيته على الفور، يكفيها وجودها معه، طلبت منه أن يعجل في الأمر لأن أهلها كانوا يشككون بجديته بإتمام موضوع الزواج ولم تعد تطيق تلميحاتهم التي كانت تجرح شعورها عن هذا الأمر.

في اليوم التالي أخبر شهاب أمه عن ما قالته عذاري، سيتزوجان من دون حفل، يكفي أن تكون معه، لا داعي لأن يطول الأمر أكثر، أخبرته أن عليه أن يجهز غرفته على الأقل ويشتري أثاثاً ملائماً من أجل زواجه.

أخبرته أنها لا تفضل الاستعجال في أمر مصيري كالزواج، لكن شهاب بعناده المعروف لم يكن يريد الانصياع لنصائحها.

تحدث مع أبيه في الأمر، بدا والده موافقاً على زواجه، فمادام يريد الفتاة إلى هذا الحد لم يكن من الحكمة أن يقف في طريق سعادته.

أخبرته عذاري أن والدها سيسافر في رحلة طويلة قد تمتد لعدة أشهر في نهاية ذلك الأسبوع، جن شهاب لسماع ذلك الخبر وأصر على إتمام زواجهما قبل سفر أبيها.

خلال الأيام القليلة التالية تم تغيير غرفة شهاب بعد أن اشترى أثاثاً جديداً على ذوقه الخاص، رتب الغرفة المقابلة لغرفته وركب باباً صغيراً ليصبح لديه جناح صغير له ولزوجته.

اتفقت جوهرة مع أم عذاري على تحديد موعد عقد القران، تمت جوهرة لو كان أيوب موجوداً معهم، لكن شهاب لم يكن ليؤجل أمر زواجه من أجل أيوب على أية حال، اكتفى بأن اتصل به بعد أن أصرت عليه أمه أن يفعل، ليخبره أنه مضطر للزواج من حيثته قبل سفر أبيها، وقال له كاذباً أنه كان يتمنى لو أنه كان بجواره في مناسبة مهمة كهذه!

فوجئت ماجدة عندما دعته جوهرة لحضور العشاء الذي ستقيمه أم العروس بمناسبة عقد قران العروسين..

عابت أختها كثيراً لأنها لم تخبرها مسبقاً عن خبر ارتباط شهاب، وتلقى أحمد عدة مكالمات هاتفية من أهله الذين كانوا يعاتبونه على مصاهرته لحامد الراجح ذو السمعة السيئة وعدم اختياره لإحدى فتيات العائلة الأخريات للزواج من ابنه.

بدا وكأن للجميع الحق في إبداء رأيه الخاص في هذا الزواج، أليس الزواج

رباط يجمع بين شخصين؟

إنه لمن العجيب حقاً أن يتدخل الناس في ما لا يعينهم ويفرضوا رأيهم في أمور لا تخصهم!

كانت عذاري سعيدة لأن حلمها بالزواج من حبيبها سيتحقق، أحست بأنها محظوظة لأنها أحبت من جديد، وحبها هذه المرة أكثر نضوجاً من حبها الأول. تحب شهاب، تعرف ذلك من خفقات قلبها المتسارعة كلما فكرت به أو حدثها قلبها عنه.

إنها سعيدة لأنها ستزوج منه، وبنفس الوقت قلقة لأنها ستعيش في منزل أهله فهي لا تعرف طباعهم، ورغم أنه أخبرها كثيراً عن طيبة أمه وحسن معشرها، إلا أنها لم تكن مطمئنة تماماً بأنها سترتاح في عيشها في بيت أسرته. اشترت ثوباً في لون السماء ليوم زفافها، فستاناً ذو ذيل طويل تنتشر عليه ورود صغيرة في غاية الجمال.

لم تضع طرحة على رأسها، أحست أنها تتشام من وضعها، كانت تهرب من ذكريات زواجها الأول فتختار كل ما هو مناقض لها في زواجها الثاني.

لا تنكر أنها تذكرت عبدالله كثيراً وهي تتجهز لزفافها من شهاب، لكنها تذكرته كذكرى حزينة في حياتها لم ترغب أبداً بأن تتكرر.

ليتها لم تعرفه أبداً، ليتها عرفت شهاب وأحبه منذ البداية لكانت وفرت على نفسها كل ذلك الألم الذي عاشته والذي كان من صنع يديها.

بدأت جميلة في ثوبها عندما حان وقت نزولها للضيوف القلائل في صالة منزلها، أخبرتها أختها وهي تبتسم لها بأن عقد قرانها قد تم وأنها صارت زوجة لشهاب على سنة الله ورسوله.

فرحت وهي تتلقى هذا الخبر وخفق قلبها بحب شهاب الذي صارت تحمله اسمه، نزلت وهي تستمد الثقة من كلمات أختها المشجعة التي كانت تطري جمالها وأناقته وطلتها..

عندما دخلت عذاري على المعازيم وقف الجميع لاستقبالها والمباركة

لها، لم تكن هناك كوشة لتجلس بها، اكتفت أمها بوضع مقعدين متجاورين لها ولعريسها وبينهما باقة ضخمة من الورد.

قبلتها جوهرة بحرارة، وفعلت فضة مثلها، أحست عذاري بالميل لفضة التي كانت تبتسم لها بود بمجرد أن نظرت إليها، أحست بوجهها يشي بطبيتها فتأملت أن تكون صديقة لها في يوم من الأيام.

عرفتها جوهرة على بعض نساء العائلة وأولهم أختها ماجدة، بدت ماجدة شديدة التأنق في ثيابها وقد بلغت بارتداء مجوهراتها الثمينة كما كانت أم عذاري قد بلغت في كل ما ترتديه مثلها وأكثر.

اقتربت ورد من عذاري، فبهرت بجمالها، تعجبت من أن شهاب لم يفكر بالزواج من ابنة خالته وهي بكل هذا الجمال! أحست ببعض الغيرة والارتباك نحوها عندما قبلتها ورد التي ازدادت جمالاً عندما ابتسمت مباركة لها..

سيطرت عذاري على غيرتها السخيفة بسرعة وطردت هذه الأفكار فوراً عن ذهنها وقد قررت أن تكون ودودة مع ابنة خالة زوجها، فهي الآن زوجته، ولا داعي لأن تغار من أي فتاة جميلة أخرى تجدها في محيطه بعد هذا اليوم.

عندما زف شهاب إليها وسط أبيه وأبيها لاحظت ملامح أبيه المتجهمة، بدا وكأنه منزعج من وقوفه بجوار أبيها، ورغم ذلك قبلها والده بطيبة وبارك لها وتمنى لها كل السعادة من قلبه.

قبلها أباها أيضاً وشهاب لا يزال واقفاً يرتدي البشت خلفه وهو ينظر إليها وابتسم، من المفروض أن يقبلها شهاب على رأسها أولاً لكنه ظل واقفاً في مكانه.

ابتعد الأبوان فاقترب شهاب منها، وعلى نحو مفاجيء قام باحتضانها إلى صدره لبرهة، ابتسم الجميع من حولهما، بدا سعيداً وهو يضمها إليه وخجلت هي من تصرفه غير المتوقع، وعندما ابتعد عندها التقط يدها وقبلها ثم قبل رأسها قبلة طويلة.

أحست جوهرة بقلبها يرق نحو ولدها وهي ترى مدى سعادته بعروسه،

شعرت أنها سعيدة لأنها زوجته منها ولم تقف في طريق سعادته، فمن الواضح أن سعادته مع هذه الفتاة بغض النظر عمَّن يكون أهلها وما هي سمعة عائلتها. دفعت عهود كعكة متوسطة الحجم من ثلاثة طوابق ليقطعها العروسان، قاما معاً والتقطا بعض الصور، وبعد ذلك أخذ شهاب عروسه إلى أحد الفنادق حيث سيقضيان ليلة زفافهما قبل أن ينتقلان إلى منزل أهله.

عندما خرج أيوب مع عذارى، اقتربت ورد من جوهرة التي كانت تراقب رحيل ولدها مع عروسه بهدوء، وضعت ورد رأسها على كتف خالتها وهي تضمها بذراعها، وهمست: مبروك يا خالتي.. أتمنى أن يبلغك الله بأيوب أيضاً. سرت في جسد جوهرة رعدة أحست بها ورد فاعتدلت في وقفها وسألتها: مابك يا خالتي؟ هل أنت بخير؟

نظرت إليها جوهرة بحزن، كانت أجمل من أن تتألم، أرق من أن يُغدر بها، وأطيب من أن يُكسر قلبها..

ودون أن تحس انهمرت دموعها وضمت ورد إلى صدرها وكأنها تعتذر لها مسبقاً عن كل ما ستسببه لها من ألم عندما تزوج أيوب من غيرها.

(89)

إعجاب

عندما عادت فضة إلى المنزل توجهت فوراً إلى غرفة أم زوجها لتطمئن على يوسف الصغير الذي تركته معها لتتمكن من حضور عقد قران أخيها. كان الصغير نائماً بين ذراعي جدته وبجوارها جلس وليد وهو يقرأ مجلة اقتصادية ما.

دخلت فضة وهي بكامل زينتها، كانت ترتدي ثوباً في غاية الأناقة، بدت أنحف من السابق وقد جمعت شعرها خلف رأسها بتصفيفة بسيطة تليق بها. قالت سعيدة: مساء الخير..

فرحت أم زوجها بقدمها وقالت: أهلاً حبيبي، يوسف لم يتوقف عن البكاء إلا منذ قليل، يبدو أنه يريدك.

اقتربت منه فضة وقبلت أنامله وهو نائم، قالت: حبيبي، كنت مضطرة لتركه، تعتقدين أنه يعرفني وهو في هذا العمر الصغير؟ أكدت خالتها: بالتأكيد يعرفك، الطفل يعرف رائحة أمه ويميز دقات قلبها عندما تحمله.

كان وليد ينظر إليها بإعجاب، لم يرها بكل هذا الجمال منذ مدة طويلة، لم يكن يتذكر كم كانت رشيقة، ففي أواخر شهور حملها كانت متفخة بشكل لا يطاق. قال لها وهو يتسّم: لم أعرفك عندما دخلت، تبدين رائعة اليوم. قالت أمه بثقة: فضة دائماً رائعة..

ابتسمت سعيدة بكلامهما، فأردف وليد: فعلاً، أنتِ دائماً جميلة ورائعة. كان يحاول استرضاءها، فهو أكثر من يعرف كم جرحها، ولأنها طيبة القلب، أصيلة المعدن، تقبلت كلامه وسعدت به وتناست أنه يفكر بالزواج من غيرها.

كانت مجروحة القلب، تشعر بجرح ينزف بداخلها كلما فكرت بالأمر، لم تكن تعرف إن كان لا يزال يريد الزواج أم لا، لم يتكلما بهذا الأمر منذ عودتها إلى البيت، كان لطيفاً معها، ودوداً في معاملتها، وكانت خائفة من أن يكون لطفه ووده مجرد غطاء ليغطي به نيته بالزواج من غيرها.

كانت تخاف من يوم تعرف فيه بزواجه، كان قلبها يحترق بمجرد أن تتخيله مع امرأة غيرها، فكيف إن تجسد هذا الخيال وأصبح حقيقة؟ استعانت بالصبر ودعت الله في سرها بأن يُبعد تلك المرأة الدخيلة التي لا تعرفها عن حياتها وحياتة زوجها.

تحب وليد، ولا تريد أن تترك بيتها ولا أن تشرذم ابنها، تريد أن تربيته معه، وأن تفرح بعائلتها الصغيرة بوجود أم زوجها.

لا تريد أن يتغير شيء في حياتها، فهي تحبها كما هي، تريد أن تنجب ليوسف الصغير أخاً، تريد أن تبني أسرة صغيرة مستقرة بعيداً عن مشاعر الغيرة والحزن والألم والتي لن تتمكن من التعايش معها إن تزوج وليد بغيرها.

أحست أن حياتها على شفاهاوية، تخاف أن تغفل وتصدق اللطف الذي يغمرها به زوجها فتصحو على فجيعة زواجه عليها.

كان قلبها يتألم وحده، لم تشارك أي أحد في ألمها، الوحيدة التي كانت تبوح لها ببعض ألمها هي أم زوجها التي لن تنسى أبداً موقفها الداعم لها طوال حياتها. عندما عادت فضة إلى غرفتها مع زوجها وولدها، بدأت تفك تسريحة شعرها بصمت، اقترب وليد منها، وقف خلف ظهرها، فنظرت إليه في مرآتها، مد أصابعه وغرسها بين طيات شعرها، فتنهدت، همس لها: أحبيت طلتك اليوم كثيراً.

سألته وهي لا تزال تنظر إليه من خلال مرآتها: أتجدني جميلة؟ أحس بمعاناتها، فلم يكن غافلاً عنها، إنه حزين لأنه جرحها، وحزين أكثر لأنه أحب امرأة غيرها، قال لها وكأنه يريد أن يثبت فيها بعض الثقة التي فقدتها بسببه في نفسها: أنتِ جميلة جداً، وأنا أحبك جداً..

تمنت أن تصدقه، لكنها لم تستطع..

غانم المسعودي

لم يعد هذا الاسم غريباً عن مسامع أيوب، فقد صار هذا الاسم جزءاً منه بمجرد أن نظقت به أمه في ذلك اليوم التعس من حياته.

و خلال رحلته تلك تعرف أكثر على غانم المسعودي، ورغم أنه كان يعرف هذا الاسم من الجرائد إلا أنه صار يعرفه أكثر بعد أن جمع الكثير من المعلومات عنه من الانترنت ومن بعض أصدقائه أيضاً.

غانم مسعود المسعودي.. هذا هو اسمه الثلاثي، رجل ولد وفي فمه ملعقة من ذهب كما يقولون، أكمل دراسته الجامعية في بريطانيا، تخرج وعمل في شركات أبيه الكثيرة، ولأنه ذكي ومحظوظ كون لنفسه ثروته الخاصة وافتتح عمله الخاص في مجال السيارات، لديه وكالة سيارات فارهة مشهورة، وشركة أخرى للدعاية والإعلان، ولديه بيتين، فقد تزوج مرتين، زوجته الأولى هي ابنة عمه، اختارها له أبوه بعد تخرجه، تزوج عليها بعد أن أنجبت له ثلاثة بنات، أما زوجته الثانية فهي سيدة أعمال عربية، تعرف عليها في إحدى رحلات العمل خارج الكويت، كانت مطلقة بلا أولاد، ولأنها ذكية وفاتنة وقع في حبها وتزوج منها، أحضرها إلى الكويت واشترى لها بيتاً بعيداً عن بيت زوجته الأولى، وأنجبت له زوجته الثانية ثلاث بنات أخريات.

غانم المسعودي لا ولد له سواه، إنه ولده الوحيد، ولده غير الشرعي، ولده الذي لا يعرف حتى بوجوده.

يعشق غانم المسعودي السياسة، فهو سياسي حتى النخاع، تبنى الكثير من القضايا الإنسانية، كاد أيوب أن ينفجر ضحكاً وهو يقرأ هذه المعلومة عن أبيه، رجل يتبنى القضايا الإنسانية لكنه يتخلى عن فتاة أخطأ معها ويتملص من

مسئوليته تجاهها، رجل يعيش حياته وهو لا يدري إن له ابناً عانى الكثير بسبب تنكره له وتخليه عن أمه! ياله من رجل متناقض!

لم يعد أيوب كالسابق، لم يعد يستطيع النوم دون أن يرى أريج في كوابيسه، عندما نظر لصورة أبيه في الانترنت لم يشعر بأي انتماء له، كان يشبه أريج بشدة في حين لم يرث شيئاً من غانم المسعودي، لم تخبره أريج أنه ورث منه صوته! ندم أيوب على ابتعاده عن جوهرة في هذه الأيام الصعبة، وجد نفسه وحيداً في الفندق بعد انتهاء ساعات الدورة التي يحضرها بذهن مشتت فلا يفقه أي شيء مما يقوله المحاضر.

كان يقضي بقية اليوم في غرفته لبحث عن معلومات عن أبيه وصور له، وجد معه بعض المقابلات في الصحف والمجلات، قرأها من خلال شاشة اللاب توب وهو يحاول أن يتعرف على هذا الرجل الذي أتى به إلى هذه الدنيا. عندما اتصل به شهاب ليخبره عن زواجه ابتسم، يعرف أن جوهرة قد طلبت منه الاتصال به وادعاء أهمية وجوده، يعرف كيف تفكر جوهرة ويعرف كيف تتصرف، إنه ممتن لأنها الوحيدة التي تهتم بالمحافظة على شعوره والاهتمام بإحساسه.

تمنى الخير لشهاب، يعرف أنه أفسد الكثير في حياته وحمله الكثير من مشاعر الغيرة والكره دون قصد منه.

إنه يتفهمه، فمن كانت له أم مثل جوهرة من الجدير به أن يغار عليها ويريد الاستحواذ على كل اهتمامها ودفئها له وحده.

اتصل بفضة مرة واحدة خلال سفره، أحس بالرغبة بسماع صوتها، إنها لا تعرف ما يعانیه لكنه يعرف معاناتها، يعرف أنها عادت لرجل فقدت الثقة في حياتها معه، لم تعجبه نبرة صوتها، استطاع الإحساس بحزنها وشتاتها، لكنها لم تحس بشيء من حزنه وشتاته هو.

وصلته عدة رسائل من ورد، لكنه لم يفتحها ولم يقرأها، عليه أن يتعود على غيابها وعليها أن تتعود على غيابه، ستبقى ورد في قلبه، كجزء منه، كقطعة من

روحه، لكنها لن تكون زوجته، ولن يقترب منها ثانية أبداً، سيخطب الفتاة التي تختارها له أمه، وستعرف ورد أنه غدر بها، وستكرهه، ستدعو عليه، ستبكي عليه، لكنها لن تبتلى بعاره، ولن تتحمل جرم وجوده، ستفرح ماجدة وستزوجها من رجل ثري من عائلة كبيرة، لن تنساه ورد، يثق بذلك، ستتذكره، لكنها ستعود على زوجها وستنساه كلما مر بذاكرتها، ستكون هذه نهاية قصته معها.

في يوم عودته إلى الكويت بدا أيوب مهموماً أكثر من أي وقت مضى، سيعود اليوم من أجل أن يرتبط بامرأة أخرى غير وردته.. سيحطم قلبها وقلبه، لكن لا خيار لديه.

وصل إلى المطار مع بعض زملائه، ركب الطائرة وهو غارق في حزنه، لم يتحدث مع أحد ولم يتوقف عن التفكير، التقط إحدى الجرائد عله ينشغل عن نفسه، تصفح الجريدة بين يديه، انتفض كمن لدغه عقرب وهو يرى صورة غانم المسعودي، قرأ الخبر: غانم المسعودي يرعى مؤتمراً اليوم لحل مشكلة الإسكان في البلد في فندق _____!

قرأ الخبر عدة مرات، أغمض عينيه وهو يفكر ويفكر..

وصلت الطائرة إلى الكويت وعندما خرج أيوب يجرح حقيبته الصغيرة، ركب سيارة أجرة وبدلاً من أن يطلب من السائق أخذه إلى بيته وجد نفسه يأمره بأن يأخذه إلى ذلك الفندق الذي يتواجد فيه أبوه!

جفاء غير مبرر

كانت ورد حائرة لاختفاء ياسمين غير المبرر من حياتها، اتصلت بها كثيراً على هاتفها النقال فلم ترد عليها كما اتصلت بها مراراً على هاتف منزلها وفي كل مرة تغيب الخادمة برهة لتعود بعدها وتعتذر لها بأن ياسمين مشغولة! أرسلت لها عدة رسائل هاتفية، ظهر لها أنها قرأتها كلها لكنها لم ترد على أي منها، استغربت ورد جفاء صديقتها غير المبرر، وخافت أن تكون قد جرحتها بكلمة غير مقصودة أو أزعجتها بتصرف لم تعمده!

عندما يكون الإنسان ذو نية صافية فإنه يلوم نفسه عندما يجافيه الآخرين دون سبب وأضح، إنه لا يفكر بنواياهم نحوه لأنه أنقى من أن يظن السوء بغيره. فكرت ورد بأن تذهب لزيارتها دون موعد، لكنها خافت أن تقحم نفسها في موقف غير ملائم، فإن كانت ياسمين لا تريد صداقتها ولا تريد أن تواجهها بسبب جفائها فمن المرجح أن تخرجها إن قامت بزيارتها بشكل مفاجيء دون إخطارها وهي لا تتحمل أن تتعرض للإهانة بسببها.

كانت علاقة ورد بماجدة متدهورة، فمنذ ضربتها ماجدة حدث شرخ كبير في علاقتهما معاً، لم تعتذر ماجدة منها على ضربها، كل ما فعلته أنها أخبرتها أن عليهما الذهاب معاً لحضور عقد قران شهاب.

خلال الطريق لم تتكلما معاً، كانت ماجدة عنيفة في ردة فعلها، وبالمقابل كانت ورد مجروحة منها فهي المرة الأولى التي يضربها فيها أحد، وقد أحست بإهانة بالغة لأنها لم تعد مجرد طفلة، فهي محامية وناضجة ولا حق لأي كان أن يمد يده عليها.

أحست ورد بوحدة شديدة بعد سفر أيوب، كما أحست أن هناك أمراً يخفيه

عنها، لا تعرف ما الذي يعانیه حبيبها، بررت عدم اتصاله بها وعدم قراءته لرسائلها الهاتفية بانشغاله، كانت تفكر فيه كثيراً وتقلق من أجله، وبنفس الوقت لم تكن تريد أن تصدق إحساسها الذي يؤكد لها أنه ليس على ما يرام. أحست ورد أن حياتها غدت مرتبكة، لم تعد تجد الراحة في بيتها، ولم تعد تجد حبيبها لتحس بالراحة التي كانت تحسها عندما تتحدث معه وتشكو له همومها.

لقد تخلت عنها ياسمين وهي في أمس الحاجة إليها، وهكذا هم المزيفون تسقط أقنعتهم بمجرد أن يحتاج المرء إلى وجودهم بجواره. كانت ورد تتخيل دائماً أن تزف إلى أيوب كما زفت عروس شهاب إليه، لا بد أن خالتها ستفكر بتزويجهما قريباً، خاصة بعد أن تزوج شهاب وتزوجت فضاة أيضاً.

إنه دور أيوب، همست لنفسها، لن تسمح لأمها بأن تحرمها منه، لن تتخلي عنه أبداً، ستوسط خالتها جوهرة بينها وبين أمها، عليها أن تتدخل وأن تهدد أمها بأن تقاطعها إلى الأبد إن ظلت على موقفها.

تعرف أن أمها لن تتحمل قطيعة قد تحدث بينها وبين أختها الوحيدة، من غير المعقول أن تصمد إن عاملتها خالتها جوهرة بحزم وهددتها بجديّة.

لم تكن ورد تهتم أبداً لكون أيوب مجهول الأبوين، إن أبويه لا يهمانها بشيء، يكفيها أنها تحبه لشخصه، تحترمه وتقدره من أجل نفسه فهو رجل رائع وطيب ويستحق كل الاحترام والتقدير، فكرت كم تشتاق إليه، وكم تتمنى قربه، كانت فتاة ذات قلب ممتليء بالحب والأمل فتاة مستعدة لمحاربة كل هذا العالم لتجتمع بحبيبها تحب سقف واحد لتبني معه أسرة جميلة يكونان هما أساسها ونواتها.

(92)

إلى البيت

كان سعيداً ، وكلما نظر إلى عذارى أحس كم يحبها ويعشقها .
ابتسم شهاب لها وهي تغلق حقيبة ملابسها الصغيرة التي أحضرتها معها إلى
الفندق فالיום سينتقلان إلى منزل أهله .
بدت قصيرة جداً دون حذائها ، أقصر مما توقعه ، لكنها كانت قطعاً أجمل
بكثير مما كان يتوقعه أيضاً .
كان وجهها خالياً من المساحيق فبدت كطفلة ، سأله وهي تلمح ابتسامته
الغامضة : لم تبسم هكذا ؟
قال لها : أتعرفين ، وجهك طفولي جداً دون زينة .
سألته بدلال : تحبه هكذا ؟
قال وهو يغمز لها : أحبك بكل حالاتك ..
كانت سعيدة مثله ، لقد صار زوجها ، وطوال الليلة الماضية ظلت مستيقظة
وهي تشكر الله لأنه جمعهما معاً بالحلال .
أحبت حنانها عليها ، وأحبت أكثر تدليله لها ، كان يعاملها كطفلة ، لذلك
قررت اليوم أن لا تتزين له عندما استيقظت من النوم لتعزز إحساسها بأنها لا
تزال طفلة .
لم يحبها أحد بهذا القدر في حياتها ولم تحب هي أيضاً أي أحد بهذا القدر ،
حتى عبدالله طليقها لم تحبه كما أحبت شهاب ، إنه حبها الحقيقي وزوجها
الغالي على قلبها وتوأم روحها .
كان مرحة يملأ قلبها فرحة ، ورغم أنه لم يكن شديد الوسامة إلا أنها كانت
تراه جميلاً جداً بعينيها .

تحب طوله الفارع، تحب أن تتعلق برقبته وهي تعانقه، أحست أنها صغيرة جداً بجواره، وأنه آمنة جداً في حضرته، إنه يشعرها بالأمان، بالحماية، بأنها غير معرضة للأذى مادامت معه.

خرجنا من الفندق، همس لها: علينا أن نساfer معاً في وقت قريب. ضحكت وهي تقول: الصيف قريب، سنسافر خلاله بالتأكيد، فأنا لا أطيق حر الصيف..

شد على يدها كأنه يعدها: إذن سنسافر معاً في الصيف.. ابتسمت وهي تلتصق به: بإذن الله..

عندما وصلا إلى البيت وجدا جوهرة بانتظارهما، كانت تبدو سعيدة جداً، وقد امتلأ البيت برائحة البخور الطيبة.

قبلت عذارى، وقد أحست أنها صارت تحبها فجأة، لقد أصبحت زوجة لولدها، لا داعي لأن تتذكر أنها لم تكن راضية عن زواجه منها، فما دام هذا الزواج قد حصل فمن الجميل أن تفرح بكتتها وأن تحسن معاملتها لتكسب ودها حرصاً على راحة ولدها واستقراره النفسي.

كثير من الأمهات ينسين أنهن بمضايقتهن لزوجات أولادهن فإنهن يتسببن بإزعاج أولادهن أولاً وأخيراً، فالأم التي تحب ولدها عليها أن تُحسن إلى زوجته وتحتوي حتى أخطأها من أجل ولدها لا أن تغار منها وتحاسبها على كل هفواتها، وفي المقابل على الزوجة الذكية أن تعامل أم زوجها كأما ففي النهاية أم زوجها هي التي منحتها زوجها وهو أهم رجل في حياتها فأقل ما يمكنها أن تقدمه إلى أمه هو احترامها وتقديرها وبرها.

لم تكن عذارى منزعجة لأنها ستعيش في جناح صغير جداً في منزل أهل زوجها، كانت سعيدة لأنها تزوجت من شهاب، وسعدت أكثر بترحيب جوهرة بها، أحست أن مخاوفها قد تلاشت عندما لمست فجأة فرحتها بها وترحيبها الحار بقدمها للبيت.

قرر شهاب مسبقاً بأن تقتصر إجازة زواجه على عدة أيام فقط ليتمكن من

استخدام رصييد إجازته السنوية في الصيف وفعلت عذارى مثله.

اتصلت والدة عذارى لتطمئن عليها ودعتها لتناول الغداء عندها في الغد مع أهل زوجها، طلبت منها عذارى أن تؤجل هذه الدعوة لفترة، أحست أن الوقت لا يزال مبكراً لتبدأ الدعوات بين العائلتين خاصة وهي تعرف موقف أهل شهاب من عائلتها.

كانت تشعر بغصة في قلبها عندما تتذكر أختها علا تحديداً والتي لم تكلف نفسها عناء الحضور إلى الكويت لحضور عقد قرانها رغم أنها دعتها للحضور بنفسها وألحت عليها، كما لم تكلف نفسها أن تتصل بها بعدها لتبارك لها وتعتذر عن عدم حضورها..

غريب أن ينسلخ الإنسان عن أهله وأن يبني لنفسه هوية أخرى بعيداً عنهم، فمهما حصل يظل المرء مرتبطاً بأهله رغماً عنه فصلة الدم أقوى من أي صلة أخرى وعليه أن يشاركهم أفراحهم وأحزانهم على حد السواء، لكن يبدو أن لأختها رأياً آخر!

ست بنات

خطى أيوب لداخل لذلك الفندق وكأنه مغيب عما حوله، كان قد طلب من سائق الأجرة أن ينتظره وترك معه حقيبة سفره، وعده أن يدفع له ما يشاء ولم يحدد له الوقت الذي سيعود فيه.

وجد في قاعة الاستقبال الفاخرة لوحة كتب عليها: أهلاً بكم في مؤتمر التعريف بالمشاريع الإسكانية الداعمة للشباب الكويتي تحت رعاية رجل الأعمال غانم المسعودي..

وقف قليلاً أمام تلك اللوحة وهو يقرأ اسم أبيه في سره، وأخيراً قرر أن يتوجه إلى القاعة التي يقام فيها المؤتمر..

سار بخطى ثابتة، لم يشعر بالخوف أو التوتر، أحس أنه مسير نحو لقاء رسمه له القدر، لقاء كتب على جبينه أن يتم وهو مستعد له بشجاعة..

لم يكن يعرف ما الذي يريده من غانم المسعودي، كان مدفوعاً لرؤية الرجل الذي دمر حياته وحياة أمه، لم يكن يحس بأي عاطفة نحوه، كان يكرهه وفي نفس الوقت يحن إلى رؤيته!

دخل القاعة فوجد الكثير من الحضور وقد جلسوا أمام طاولات متفرقة، وعلى المنصة كان أبوه هناك بين رجلين آخرين، وأمامه الميكروفون وهو يلقي خطبته.

جلس أيوب على أول كرسي صادفه، حدق بأبيه، كان طويلاً مهيباً، لا بد أنه ورث منه طول الفارع، لكن رعدة شديدة سرت في أوصاله عندما تكلم غانم المسعودي فأدرك أنه ورث منه نبرات صوته!

قال غانم: الشباب هم المستقبل، أزمة السكن مسئولية كل رجل أعمال يحب

وطنه، وإيماناً مني بهذا الدور قررت أن أقيم هذا المؤتمر لأطرح مجموعة فلول سكنية بتسهيلات مريحة وبأسعار مخفضة للشباب الكويتيين الذين يحملون باقتناء بيت العمر... و...

سرح أيوب، سرح وهو يتأمل قسماآ وجهه، شخصيته القيادية القوية، وحضوره اللافت، تخيله مرافقاً يعبث بقلب أريج خلدان ويغرر بها، تخيله وهو ينكر أبوته للجنين القابع بين أحشائها، تخيله وهو يقرر الهروب منها فيسافر ليكمل دراسته في الخارج، تخيله وهو يقرر أن يقطع صلته بأريج تماماً ليورطها بأمر التخلص من حملها وحدها، أكون قد اعتقد أنها أسقطت حملها؟ لا بد أنه ظن ذلك!

دارت الكثير من الأفكار بخلده ولم ينتبه لما حوله إلا عندما صفق الحضور لغانم المسعودي عند انتهاءه من خطبته.

لم يصفق له أيوب، اكتفى بمراقبته وهو ينزل من على المنصة ويقوم بقص شريط أحمر لينتقل الحضور إلى القاعة الأخرى ليطلعوا على تلك المساكن التي طرحها.

يعرف أنه رجل أعمال محنك أن ما يقوم به غانم المسعودي الآن مجرد تسويق ذكي لمشروعه السكني، بدت تلك المساكن التي تم تجسيدها على مجسمات صغيرة أنيقة وجميلة للغاية وبدا الحضور متحمسين لمعرفة تفاصيل أسعارها وطريقة تمويلها.

كان غانم يتحدث مع بعض الرجال بين حين لآخر، اقترب منه أيوب ببطء إلى أن صار على مقربة كافية منه لسمع صوته وهو يتحدث مع الآخرين، بدا ودوداً وسعيداً بهذا المؤتمر ذو الحضور الكثيف، تواجد العديد من الصحفيين حوله لالتقاط الصور والحصول على تصريحات قصيرة منه.

راقبه أيوب لفترة وهو واقف مكانه، وعندما خف الزحام من حوله وجد نفسه يخطو نحوه دون تفكير.

وقف أيوب أمامه مباشرة، رفع غانم المسعودي رأسه ونظر إلى ولده الذي

لا يعرفه ولا يتوقعه فابتسم، بدا أيوب وكأنه يريد قول شيء ما له، فظن غانم أن هذا الشاب يريد أن يطلب منه خصماً خاصاً أو ما شابه.

قال غانم ليشجعه على الحديث: تفضل، كيف أخدمك؟

بدا دمث الخلق بوجهه البشوش المبتسم، نطق أيوب أخيراً فقال: يبدو أن مشروعك سينجح.

قال غانم ببساطة: إنه مشروع مدروس بدقة، وسيساعد الكثير من الشباب خاصة وأن أسعار الفلل التي يضمها معقولة للغاية مقارنة بأسعار العقارات في السوق، هل أعجبتك إحدى الفلل؟

قال أيوب: نعم، أعجبتني أكثر من واحدة، لكنني لا أستطيع شراءها لأنني أساساً لا أستطيع الزواج ممن أحب!

استغرب غانم من تصريح هذا الشاب، أيكون محتاجاً لمساعدة مالية؟ كان متعوداً على أن يقطع الآخرين طريقه لطلب المال منه فهو رجل واسع الثراء، لكن لم يبدو على أيوب أنه من هذا النوع.

قال غانم: أعرف أن تكاليف الزواج عالية..

قاطعته أيوب: الأمر ليس كما تظن، أنا لا أستطيع الزواج من الفتاة التي أحبها لأن أمها ترفض تزويجها لي لأنني لقيط!

صدم غانم، أحس بالشفقة على هذا الشاب الوسيم المنكسر القلب، قال له بأسى: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، كان الله في عونك يا ولدي!

هزت كلمة ولدي التي نطق بها غانم للتوفؤاده، قال وكأنه يرمي بنفسه وسط البحر وهو لا يعرف كيف يعوم بين أمواجه المتلاطمة: أنا أعرف من تكون أمي، قالت لي أن أبي تخلى عنها عندما عرف بحملها بي!

لم يفهم غانم ما الذي يرمي إليه أيوب فقال على الفور ناسياً فعلته القديمة: ياله من جبان!

ضحك أيوب وقال ساخراً: صحيح، إنه جبان، لقد صدقت..

أردف أيوب بعد أن سكتت ضحكته الساخرة: أتعرف، أنا أشبه أمي كثيراً،

عندما رأيته بعد سنوات من تخليها عني أدركت أنني نسخة عنها!
 في تلك اللحظة أحس غانم أنه تذكر وجهاً ما، ووجهاً كان يحفظ تفاصيله،
 ووجهاً أحبه لوقت طويل واستجده في يوم ما ليستر على صاحبه، مهلاً، ما الذي
 يقوله هذا المجنون!

اقترب أيوب خطوة منه..

ثم همس له: أمي اسمها أريج خلدان!

ارتعد غانم لسماح اسم أريج، وضع يده على صدره وكأنه يريد أن يهديء من
 روعه، همس له أيوب ثانية: ولدتني سراً بعد أن تخليت عنها وتنكرت لأبوتك
 لي، وبعد ولادتي رمت بي في الشارع، ألا تسمعي؟ لقد ورثت منك صوتك..
 ولن تتمكن من نسيان هذا الصوت أبداً يا أبي..

نطقها أيوب وكأنه يشتمه، تهدج صدر غانم وصار يلهث، قال أيوب: سمعت
 أن لديك ست بنات!

نظر أيوب إلى عينيه مباشرة ثم قال له وكأنه يتوعده: مسكينات، تُرى من
 منهن ستدفع ثمن غلطتك؟

لم يستطع غانم المسعودي أن ينطق بأي كلمة بعدها، ظل فاغراً فمه وقد
 عقدت الصدمة لسانه، خطى أيوب بعيداً عنه، يكفيه أنه أعلمه بفداحة جرمه،
 لقد أخبره عن وجود ولد له، ولد ضائع في هذه الدنيا بسببه، ولد منبوذ لذنب لم
 يقترفه، ولد عانى الكثير وسيعاني الكثير لمجرد أنه وُلد نتيجة غلطة منه، ولد لا
 يريد منه شيئاً، لا يريد منه حتى اسماً لأن اسم أحمد الراجح المقترن باسمه مع
 بعض التحوير يكفيه ويشرفه طوال العمر أكثر من اسم غانم المسعودي..

في وقت متأخر من ذلك المساء انتشرت أخبار مؤكدة على مواقع التواصل
 الاجتماعي قرأ أيوب تلك الأخبار في هاتفه فانهمرت دموعه: وفاة رجل
 الأعمال غانم المسعودي نتيجة سكتة قلبية مفاجئة أثناء مؤتمر الرعاية السكنية
 الذي يقيمه!

وساوس

كان شهاب يشعر بالانزعاج كلما تذكر تعليق عذاري بعد أن عرفها على أيوب عند وصوله من السفر، قالت له بمجرد أن صعد أيوب إلى غرفته: أخاك وسيم جداً، لم أتخيل أن يكون بهذه الوسامة!

أثار تعليقها العفوي حفيظته، لم يكن يحب أن تمتدح زوجته رجلاً غيره خاصة وإن كان يغار من هذا الرجل طوال عمره!

جافاه النوم في تلك الليلة، تذكر وجه أيوب المجهد والذي لم يستطع الإجهاد أن ينال من وسامته فيخفيها أو يُخفت بريقها، وتذكر أيضاً خيانة عذاري لحبيبها الأول! ترى أيمكن لعذاري أن تخونه مع أيوب!

انتفض لهذا خاطر، كانت عذاري نائمة على كتفه بهدوء، غافلة عن أفكاره الشيطانية بحقها، استعاذ من هذه الوساوس مراراً لكنها كانت تلح عليه بشدة رغماً عنه!

أحس أن وجود أيوب في المنزل أمام ناظري زوجته قد يشكل خطراً عليها، يعرف أنه إن لم يثق بزوجته فإنه لن يرتاح معها أبداً، لكنه أحس فجأة بأنه لا يثق بها رغم أنه قرر التغاضي عن ماضيها وأصر على الزواج منها بعد أن غلبه هواها، فما باله الآن يشعر بكل هذا الندم لأنه اختار الزواج من فتاة مثلها!

لم يجد من عذاري سوى كل حب واحترام، يعرف أنها تحبه، لكن غيرته التي فجرتها بتعليقها العفوي بخصوص وسامة أيوب أصابت منه مقتلاً لأنها لمست جرحاً عاش في قلبه منذ وقت طويل.

في اليوم التالي لاحظت عذاري مزاجه المتعكر وآثار الأرق تحت عينيه المنتفختين، لم تفهم ما الذي أصابه وعندما حاولت الاقتراب منه ابتعد عنها

وقام ليبدل ثيابه وقد قرر أن يقطع إجازته ليعود إلى العمل!

تعجبت عذاري من تغييره المفاجيء وقد أقلقها هذا التغيير غير المتوقع لكنها لظمت الصمت وهي تحاول أن تطمئن نفسها بأن ما يشغل باله ويزعجه قد يكون أمر لا علاقة له بها فهي لم تفعل أي شيء يزعجه ولم تنتبه أصلاً إلى استيائه من تعليقها على وسامة أخيه.

تعرف عذاري أن أيوب أخاه من الرضاعة، لقد أخبرها بذلك منذ زمن، لم تكن تهتم بأمره لأنه معنية بزوجها وحده، إنه أخاها أيضاً مادام أخ لزوجها ولم تكن لتنظر إليه بأي نظرة أخرى مهما حصل، لكن شهاب بغيرته المتأصلة في نفسه من أيوب كان له رأي آخر، وقد زادت تلك الوسواس الوهمية اللعينة من مخاوفه وغيرته!

عندما نزل لتناول طعام الإفطار وجد أمه تتناول فطورها بوجه حزين، استغرب ذلك الحزن على وجهها، فولدها المفضل قد عاد بالأمس فما بالها حزينة هكذا اليوم؟

جلس أمامها فسألته: ستذهب إلى العمل الآن؟

قال وهو يهرب من عينيها: نعم، سأدخر أيام إجازاتي للصيف، لا داعي لأن أبقى في البيت أكثر.

سألته: هل ستعود زوجتك إلى عملها اليوم أيضاً؟

قال وهو يصب لنفسه كأساً من الشاي: لا أعرف!

أحست بأنه يعاني من شيء يزعجه لكنها لم تتوقع أن يكون متضايقاً من زوجته التي لم يمض على زواجه منها سوى أيام قليلة..

عادت إلى صمتها وهي تتناول طعامها بلا شهية فسألها شهاب: أمي.. ما بك اليوم؟ تبدين حزينة؟

قالت وهي تتنهد: اليوم سنذهب لنخطب لأيوب!

فوجئ بكلامها وسألها: أيوب؟ خالتي ماجدة موافقة؟

قالت بأسى: لن نخطب ورد، سنخطب له فتاة أخرى بناء على طلبه، يريد أن

تأس ورد منه، لا يريد لها أن تنتظر زواجاً لن يحدث، مسكين ولدي، إنه يعاني وأنا لم أتم البارحة حزناً عليه.

أحس شهاب بارتياح عظيم لهذا الخبر المفاجئ، فكر بداخله: سيتزوج أيوب إذن لا خوف منه على عذارى! وسيتزوج فتاة لا يحبها في حين تزوج هو من الفتاة التي يحبها، إنه أفضل منه، لقد انتصر عليه!!

لم يكن يستوعب أنه قد انتصر في معركة وهمية صنعها بخياله، وأن أيوب لا يكن له إلا كل حب وود، لكن القلب عندما يفقد بصيرته ويرى الكل على شاكلته.

قالت جوهرة: أنا قلقة على ورد، ستُصدم المسكينة، لكن ما باليد حيلة، أمها لن تزوجها لأيوب مهما حصل وعليها القبول بالأمر الواقع..
عليها أن تتعود، وقد تنسى مع الوقت، ربما يكون هذا هو الحل الأفضل للجميع.

كانت تحاول إقناع نفسها بتلك التبريرات، لكن شيئاً ما في قلبها كان يُشعرها أنها تقوم بخيانة ابنة أختها التي تحبها كثيراً وتكره أن تجرح شعورها وتحزنها. قام شهاب وخرج إلى عمله، أحس أنه شامت بأيوب، كان يتسم لخبر زواجه القريب، لا بد أنه سيخرج من البيت عندما يتزوج فلا مكان له فيه، سيخرج ذلك الغريب أخيراً من حياته، سيخرج من بيته، سيرتاح من عبء وجوده حوله. في ذلك المساء جلس في صالة البيت مترقباً خروج أيوب مع أمه للذهاب إلى موعدهم مع أهل العروس القادمة..

التقت عيناه بعيني أيوب قبل خروجه من المنزل، كان أيوب محطماً، منطفيء النظرات، متجهم الوجه، لم يشفق شهاب عليه، أحس أن قلبه قاس كالصخر نحوه في حين لم يفسر أيوب نظرات أخيه بأي شكل فمعاناته تكفيه، ولم تنتبه جوهرة لتلك النظرات الشامتة والشريرة في وجه ولدها فقد كانت غارقة في حزنها هي أيضاً.

عندما خرج الاثنان من البيت، خطرت لشهاب فكرة شيطانية، حاول طردها

عن ذهنه المتوقع بالكره، لكنها تمكنت منه أكثر كلما ألحت عليه.

نظر إلى ساعته، كانت عذارى قد ذهبت لزيارة أهلها، ولم يكن أباه في البيت، تردد قليلاً، لكنه حسم أمره، التقط هاتفه النقال واتصل بورد..

أجابت ورد على اتصاله غير المتوقع وهي تقول: شهاب؟ أهلاً بك، ما الأمر؟ لم يكن معتاداً على الاتصال بها فأحست أن في اتصاله أمراً مريباً، قال شهاب: أهلاً ورد، أردت الاطمئنان عليك في وقت صعب كهذا، هل أنت بخير عزيزتي؟ لم تفهم ورد معنى كلامه!

فقالت بحيرة: أنا بخير الحمد لله، لكنني لم أفهم قصدك؟ ما الذي عينته بالوقت الصعب؟

قال وهو يتصنع الحزن: أعرف أن الأمر صعب عليك، خسارة من نحبهم ليست سهلة، لكنني أردت أن أذكرك أنني بمثابة أخ لك، لا تترددي أبداً في التحدث معي في أي وقت تحتاجين فيه أحداً لسماعك، أنت ابنة خالتي الوحيدة، وسأكون دائماً خير ملجأ لك عزيزتي!

لم تفهم ورد شيئاً من كلامه، قالت له: شهاب، أنا لا أفهم قصدك، وضح لي أرجوك!

قال أخيراً وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ماكرة: لا بد أنك حزينة الآن لأن أيوب وأمي في طريقهما ليخطبا له.. أنا حقاً آسف لأن قصة حبكما لم تكلل بالزواج، لكن من يدري، ربما يكون هذا الأمر في مصلحتك! جحظت عينا ورد وقد أحست بأن الدنيا تدور بها...

((عندما سمعت أنك في طريقك لتخطب فتاة غيري لم أصدق أذناي، خلت أنني في كابوس مظلم، انتظرت ذلك الكابوس أن ينتهي، انتظرت لذلك الشعور بالمرارة أن يختفي، فلا الكابوس انتهى، ولا مرارتي فارقتني من وقتها)).

سمراء جميلة

جلست جميلة أمام أيوب في حضور أمها وأمه..

كانت ترتدي ثوباً بسيطاً من قماش منقوش بالأزهار، وقد تركت شعرها اللامع منسدلاً خلف ظهرها، عندما رأتها جوهرة فكرت بنفسها: إن لون بشرتها داكن جداً مقارنة بلون بشرة أيوب الفاتحة، إنها سمراء، وواضح جداً أن بها عرق هندي، تعرف أن أمها هندية فهي تعرف قصة جميلة كلها، لكنها لم تتوقع أنها تبدو هندية لهذه الدرجة!

كانت تحس بغصة في قلبها لأن أيوب يريد الزواج بفتاة غير ورد، لكنها عندما التقت جميلة أحست أن غصتها صارت أكبر وأشد، خاصة وقد اعتادت على أن تكون ورد في خيالها عروساً لأيوب.

صعب أن يكون المرء في وضع مماثل، أن يكون نشازاً وسط نغم منسجم، لو كان شهاب هو الذي يتقدم لجميلة لكان الأمر أكثر ملائمة من ناحية الشكل، لكن الفرق بينها وبين أيوب كان واضحاً وملفتاً، إنه من عرق مختلف، اعترفت جوهرة بذلك بينها وبين نفسها رغم أنها لم تكن عنصرية أبداً في تصنيفها للناس، لكن ذلك الاختلاف الجلي فرض نفسه على قناعاتها رغماً عنها.

استغفرت الله في سرها، وعندما نظرت إلى جميلة مرة ثانية اعترفت لنفسها بجمالها، إنها سمراء جميلة، بل فاتنة، ومن يدري قد يسعد أيوب معها ويحبها مع الوقت.

قالت جوهرة للأم: ما رأيك لو تركنا أيوب وجميلة ليتحادثا معاً، دعينا ننتقل إلى الصلاة المجاورة..

أومأت الأم برأسها موافقة فقد كانت الصلاة المجاورة مفتوحة على الصلاة

الرئيسية فلم يكن هناك أي حرج في تركهما معاً ليتحدثا وحدهما.

قامت الأم مع جوهرة وجلستا معاً في الصالة المقابلة وهما يتحدثان عن أمور عامة، أحس أيوب بالغرابة وهو يجلس بجوار فتاة لا يعرفها، فتاة ينوي الزواج منها، فتاة غير ورد التي لم يسكن قلبه أحد سواها.

ظلت جميلة صامته وهي تتأمله بخجل، ما أجمله، إنه أكثر وسامة مما كانت تتوقع، إنه رائع الملامح، فكرت ما به خجول هكذا؟ لم لا ينظر إليها؟ أترأه لم يُعجب بها فأثر الصمت كي لا يحرجهما؟
قطع أيوب ذلك الصمت بينهما أخيراً وهو يقول: حدثيني عن نفسك.. من تكونين؟

ابتسمت له وقالت: واقعياً، لا أعرف من أكون، لكنني أعيش في هذا البيت ومع هذه الأسرة..

نظر إليها، إنها مثله، لكنه صار مختلف عنها مؤخراً، لأنه عرف من يكون، عرف من هما أمه وأبوه.. أباه الذي لم يحتمل قلبه حقيقة وجوده فهرب من الحياة بأكملها بسببه، وأمّه التي لم تحتمل قسوة مواجهته فهربت من البلاد بأكملها أيضاً بسببه!

لم يكن يعلم أنها تعلم من هي أمها فهو لم يسأل جوهرة الكثير عنها ولم تجد هي الفرصة لتحكي له قصة جميلة وأمها.

سألها ليحاول فتح موضوع للحديث معها: تعملين أم تدرسين؟

قالت: أعمل في شركة لبيع مستحضرات التجميل، لدي نسبة عمولة عالية من المبيعات التي أحققها.

قال لها: جيد، يبدو الأمر مسلياً.

ابتسمت له: صحيح، أتعرف، أنا أكره البقاء في مكان واحد لوقت طويل، لا أطيق السكون، أكره رتابة الهدوء، أحب الصخب، أحب الحركة، أحب كل ما يمكنه أن يلهيني عن نفسي..

أحس أنه يفهمها، كانت تستطيع التعبير عن نفسها بوضوح، في حين كان

هو عاجزاً دائماً عن التعبير عن نفسه، الوسيلة الوحيدة التي كان يعبر فيها عن مشاعره هي تلك الرسائل التي كتبها إلى أمه الحقيقية التي كانت غائبة، لكنه لم يعد بحاجة إلى كتابة أي شيء لها بعد اليوم، لقد فقد اهتمامه بوجودها عندما وجدها، أحياناً يكون انتظار الشيء أجمل من الحصول عليه!

لاحظت حزنه الدفين في عينيه، لم تسأله عن حزنه، فهي أكثر من تعرف نوع هذا الحزن وأسبابه، فحياة من مثلهم ليست سهلة، إنها حياة من التحدي، حياة تحتاج الكثير من التنور والصبر، والكثير من المعارك بين الهزيمة والنصر. تحدثنا في أمور عامة، لم يهتم لتقييم شكلها الخارجي، فعيناه لا تريان غير ورد، ولا تستطيعان ملاحظة جمال غير جمالها، في حين أعجبت هي به، إنه هاديء وسيم، وقد تسعد بحياتها معه، أحست أنه لن يؤذيها أبداً ولن يعذبها، إنه رجل مسالم وديع، لم تشعر به متجبراً عنيداً كزوج أختها التي تخجل منها من أجله ومن أجل أهله.

عندما انتهت تلك الزيارة خرجت جوهرة مع أيوب ووعدت الأم بالاتصال بها قريباً.

ركبا السيارة صامتتين، لم تسأله جوهرة عن رأيه بجميلة، ولم تعلق أبداً عليها سواء بالسلب أو بالإيجاب، ستكون محايدة في موضوع زواجه، لن تتدخل في قراره ولن تؤثر عليه، لا تريد أن تخون ورد أكثر، ولا تريد أن يلومها لأنها وافقته على الزواج من غيرها في يوم من الأيام، أحست أنها حزينة مقهورة، ولم يكن هو بحال أفضل منها..

وصلا إلى المنزل، دخلا إلى البهو، شهقت جوهرة، كانت ورد تقف أمامهما تماماً وفي عينيها آثار دموعها..

نظرت إليها جوهرة بأسف وكأنها تعتذر منها وتستحلفها بأن تسامحها، ترى من أخبرها؟

التفت أيوب بعد أن أغلق باب المنزل بمفتاحه وراها أمامه، رأى حبيته المعذبة وتوأم روحه الذي يريد أن يفصله عنه.

كانت تنظر إليه بصمت، وكان صمتها أكثر إيلاماً من الكلام..

وقف أمامها متجمداً، مأخوذاً بجرمه في حقها، اقتربت منه خطوة واحدة فقط، ووقفت أمامه وهي تبكي: لماذا يا أيوب؟

قال وهو يغالب دموعه: من أجلك أفعل هذا..

هزت رأسها وصرخت: من قال لك أن زواجك سيكون بمصلحتي؟ تريد أن

تقتلني لتحررني؟ هذا ما تفعله الآن بالضبط!

قال لها: ورد، زواجي هو الحل الوحيد لمشكلتنا، دعيني أعيش حياتي مع

فتاة مثلي، وعيشي أنتِ حياتك مع رجل مثلك، دعينا ننهي هذه المسألة، لا

تصعبي علي الأمور أكثر، ارحلي يا ورد، وانسي أيوب، ارحلي وخذي ذكرياتنا

الجميلة معك، تمنى لي الخير وتذكري كم أحببتك، ارحلي فأنت حرة من

عهدي، ارحلي ولا تعودني إلى حيث أكون أبداً بعد اليوم..

نظرت إليه ذاهلة، لم تكن تتخيل أنها ستعيش يوماً كهذا، يوم يتخلى فيه

أيوب عنها ويتقدم للزواج من غيرها...

قررت أن تلتقط ما تبقى من كرامتها لترحل، ومن بين دموعها خطت نحو

الباب، فتحتة و... رحلت....

((أنا تلك الفتاة التي قضت عمرها في انتظارك ولم تأتِ..))

أنا تلك الفتاة التي صدقت وعود حبك ولم تفِ..

أنا تلك الفتاة التي كنت تنهرب منها بوضوح ولم تع..))



بہار شہرین

وجهاً لوجه

كانت فضة تعيش وقتاً هادئاً، لم يشرب وليد لها ثانية عن موضوع زواجه، بدا لها أنه سعيد بها وبولده وبيادرتها الطيبة بعودتها إلى البيت، ورغم ذلك كانت لا تزال قلقة خائفة أن يكون زوجها يخطط للزواج دون علمها وعندما صارت أم زوجها بقلقها وشكوكها طمأنتها بأن موضوع زواجه كان مجرد نزوة ومرت على خير، أخبرتها أن تهتم ببيتها وبابنها وأن تركز اهتمامها على نفسها وأن تلتزم بالدعاء لزوجها، فالدعاء يصنع المعجزات.

لم تكن تعرف أن ياسمين قد جنت تماماً، أزعجها خبر عودة فضة إلى منزلها وأزعجها أكثر تجاهل فضة لوجودها في حياة زوجها، إنها لم تكلف نفسها حتى بمعرفة من تكون غريمتها! وكأنها تثق بنفسها وكأن لا امرأة في هذا العالم تستطيع أن تأخذ زوجها منها!

كانت ياسمين مغتظة أكثر لأن وليد بدا متقاعساً عن إتمام موضوع زواجه منها، إنه يطلب منها المزيد من الوقت ليرتب أموره، أخبرها أنه ممتن لعودة فضة إلى البيت رغم كل ما قاله لها، وبالتالي لا يريد أن يزعجها احتراماً لمبادرتها الطيبة وتصرفها الحكيم.

طلب من ياسمين أن تمهله بعض الوقت حتى يستطيع فتح الموضوع معها ثانية، لم يكن يريد أن يتزوج عليها من وراء ظهرها فما دام مؤمن أن الأمر حق مشروع له فلم عليه أن يقوم به بالخفاء كاللصوص؟ فتفادي المشاكل في هذه الحالات أمر مؤقت وستكون المشاكل أكبر لو أن أمر زواجه الثاني قد انكشف لاحقاً وسيدمر نفسية زوجته ويشعرها بالغدر والخيانة، إنه يؤمن بحقها بأن تعرف وتقرر، إما البقاء على ذمته واحتمال الوضع الجديد وإما الإنسحاب من

حياته فلها مطلق الحرية بأن تقبل أو ترفض وجود ضرة لها تشاركها في أقرب الناس إليها.

أمر آخر كان يورق ولید، كان يتأمل فضة وهي نائمة بجواره كل ليلة، ويوسف الصغير بين ذراعيها، أتستحق هذه المرأة أن يكسر قلبها؟ أتستحق أن يتخلى عنها ويتركها ترحل عن حياته مع ابنه الجميل هذا؟ كان يوسف طفل معافي ممثليء الخدين، من الصعب أن يراه أي شخص دون أن يقع في حبه، حتى أخته جنان صارت تحبه وتشتري له الهدايا.

فطفل مثله يستطيع أن يخطف قلب كل من يراه ببساطة، لم يكن طفل مزعج أو كثير البكاء بل على العكس إنه طفل مبتسم لطيف وجميل، لا يستطيع أن يتخيل عدم وجوده في البيت في يوم ما، أتستحق ياسمين أن يضحى بطفله وزوجته من أجلها؟ ماذا عن أمه؟ إنها تحب فضة كما تحب أخته جنان وربما أكثر، وتقضي يومها بالكامل بصحبتها، أتستطيع ياسمين المدللة أن تحتمل وجود أمه معها؟ أتقبل بأن تصادقها وتقضي كل هذا الوقت معها؟ أيمكنها أن تتقبل نصائحها وتدخلاتها غير المقصودة في حياتها بكل رحابة صدر كما تفعل فضة؟

كان يريد ياسمين، لكنه لا يريد ترك فضة، ويعرف أنها سترحل إن تزوج عليها، كانت مصرة على ذلك ويعرف أنها جادة فعلاً فلا يزال يتذكر كلامها السابق له يوم أخبرها، وكونه رجل قانون ورجل يحترم نفسه والآخرين لم يكن ليتركها يوماً واحداً على ذمته إن كانت حقاً تريد الطلاق منه.

يؤمن جداً بحرية كل إنسان باختيار الحياة التي تناسبه، تأخر في اتخاذ موضوع الزواج لأنه لم يجد الإنسانية التي يستأنمها على بيته وأمّه، وعندما التقى بفضة عرف أنها الفتاة التي كان ينتظر ظهورها في حياته، عرف أنها أهل للثقة وأنها لن تخيب ظنه أبداً، لكنه لم يتوقع أن تظهر فتاة أصغر وأجمل في حياته فيجد نفسه ينسلخ عن مبادئه ليجري وراءها ويضحى بعائلته واستقراره من أجلها.

إنه حائر بينهما، فمن ناحية أخرى صارت ياسمين تلح عليه بالوفاء بوعده لها بالزواج واضطر منذ شهر مضى أن يستغني عن خدماتها في المكتب، خاف أن تثير الشبهات حول علاقتهما فهي فتاة مندفعة وغير متعقبة، أخبرها بلطف أن عليها ترك العمل في مكتبه وأكد لها أنه سيفي بوعده لها بالزواج في أقرب وقت ممكن.

في مساء أحد الأيام خرجت فضة مع يوسف للتسوق، وضعت في عربة الأطفال الصغيرة التي اشترتها له وأخذت تشتري أغراضها بوجوده، كانت تشعر بالفخر وهي تدفع عربته، وتبتسم لجميع العيون التي تطالعها وكأنها تقول لهم: نعم أنا أم، وهذا ابني، وأنا فخورة بذلك.

كان مزاجها جميل في تلك الأمسية خاصة وأنها المرة الأولى التي تخرج بها مع طفلها إلى مكان عام.

فكرت أن تمر بوليد في مكتبه لتفاجئه، فالبرج الذي يقع فيه مكتبه مقارب للمجمع الذي تتسوق فيه..

في تلك اللحظة كانت ياسمين تقتحم مكتب وليد غاضبة ودون موعد مسبق معه، يعرف السكرتير الخاص بوليد أن علاقة خاصة تجمع بينها وبينه، فلم يمنعها من الدخول إليه خاصة وأنها تعامله بوقاحة غالباً، وتتعمد التحدث معه باستخفاف كلما أتت!

فوجيء وليد بدخولها عليه عنوة، لم تكن لديه أية مواعيد مع موكله في ذلك المساء ورغم ذلك لم يعجبه قدومها إلى مكتبه دون إذن أو موعد مسبق.

كانت ياسمين ترتدي ثوباً بلا أكمام وقد بالغت في تزيين وجهها وعينيها، أرادت أن تبدو جميلة أمامه، فجمالها هو كل ما تملك في معركتها الوهمية مع فضة وورد!

تريد أن تعاقب ورد على أمر لا تعرفه ولا يهمها حتى، وتريد أن تسحق فضة وتنتصر عليها دون أن تكون نداً لها أساساً.

نظر إليها وليد باستياء وهي تغلق باب مكتبه خلفها، كم هي جريئة، فكر

بداخله، هذا إن كان يمكن تسمية وقاحتها جرأة!

قالت وصدرها يتهدج بانفعالها: علينا أن نتحدث ونضع حداً لهذا الموضوع! زفر وهو ينظر إليها: أي موضوع تقصدين؟

قالت غاضبة: موضوع زواجنا طبعاً!

قال بجدية: ياسمين، هذا مكان عملي، الحمد لله ألا زبائن هنا اليوم، كيف تأتين هكذا بدون موعد أو إخطار؟ وكيف تقتحمين مكثبي بهذه الطريقة؟ أمر آخر، ما هذه الملابس التي ترتديها اليوم! وزينتك! تبدين وكأنك ذاهبة إلى حفلة!

أثارها انتقاده لها فجنت وصرخت: لم أعد أعجبك الآن؟ أخبرني لأفهم! أم ربما تجد أن زوجتك القبيحة أجمل مني!

غضب من وصفها لفضة بالقبح فوقف وقال بحزم: الزمي حدودك، لا أسمح لك بالإساءة إلى فضة أبداً، مفهوم؟

صدمها رده، وتلك النظرة المهددة في عينيه، إن لزوجته مكانة لم تحسب لها حساباً عنده، عليها أن تغير طريقتها الآن وفوراً كي لا تخسره، لا يمكنها احتمال أن تفوز ورد عليها فيما يخص ضاري ثم تفوز عليها فضة فيما يخص وليد! اقتربت منه فجأة وانهارت باكية، كانت تقف قريبة منه، استطاع أن يشم رائحة عطرها القوي الذي تستخدمه، احتار وهو يراها تبكي بحرقة، قالت له من بين دموعها: تلومني لأنني أحبك؟ تلومني لأنني لم أعد أستطيع أن أعيش من دونك!

في تلك اللحظة وصلت فضة إلى المكتب وهي تدفع بعربة طفلها أمامها، لم تجد السكرتير في مكانه، فاقتربت من باب المكتب وفتحته بهدوء..

رأت زوجها وأمامه امرأة توليها ظهرها، بدا واضحاً أن القدر قد ساقها لتعرف الحقيقة في ذلك اليوم، وأنها الآن في مواجهة خيانة زوجها لها، وجهاً لوجه! فغر وليد فمه دهشة وهو يرى فضة أمامه مع ولده، أحست ياسمين بدهشته فالتفت لتجد فضة تحديق بهما بذهول، فتخيل الخيانة أهون بكثير من

مواجهتها..

بمجرد أن تعرفت فضة على هوية ياسمين ارتسمت الدهشة على وجهها، لم تكن تتخيل أبداً أن ياسمين صديقة ورد المقربة والتي توسطت لها بنفسها عند ولید وأوصته بقضيتها هي التي تريد أن تأخذه منها وتهدم بيتها!
ساد الصمت بين الثلاثة المذهولين بتلك المواجهة غير المتوقعة، كان الطفل نائماً في عربته غافلاً عن ما يدور حوله من بشاعة..

نظرت فضة إلى ولید معاتبه دون أن تنطق فنكس رأسه خجلاً منها، لم تتوقع الخيانة من صديقة للعائلة ولم تتوقعها من زوجها الذي أخلصت له وكرست نفسها لخدمته وعادت إلى بيته أملاً في إصلاحه واستمالته، كان ألمها عظيماً، وقد أحست أن في هذه الدنيا دناءة لا تعرف عنها شيئاً، لم تكن تعرف من الدنيا سوى أسرتها الطيبة، أباهما الحنون الذي يحب أمها ويخلص لها، أمها الحانية التي ربتها على تقديس رباط الزوجية، أخويها اللذين لا تحب أحداً في هذا العالم أكثر منهما، أم زوجها الطيبة التي تعتبرها أمها الثانية، ولدها الملاك الذي تعشق رائحته ومناغاته، وأخيراً زوجها الذي طعنها وغدر بها وجرح مشاعرها وأنوثتها، وها هو الآن وقد فُضح أمامها بسوء فعله وجرمه..

اختفت دموع ياسمين التي كانت تستجدي بها ولید قبل دخول فضة وحلت على وجهها نظرة تشي بالشماتة وهي تنظر إلى فضة، ودون أن يشعر ولید التصقت به وكأنها تتحدى فضة وتؤكد لها انتصارها عليها.

كان ولید قد تجمد كتمثال، لم يعرف كيف يتصرف ولم يجد أي كلمة مناسبة يقولها في ذلك الموقف الذي لا يحسد عليه، في حين فهمت فضة أن عليها تتصرف لتنتهي هذه المواجهة المهينة، أتهرب وتترك ياسمين تفرح بانتصارها عليها؟ أم تتشاجر معها وتثبت لها أن ولید لها هي وأنها لن تتخلى عن زوجها ووالد ابنتها من أجلها!

فكرت بالأمر بسرعة، مادام ولید يريد غيرها فليكن، لن تأسف عليه، لن تأسف على رجل يتخلى عنها من أجل أخرى، لا يستحق رجل مثله مشاعرها

الصادقة ولا إخلاصها الجميل، ليتزوج ياسمين، هنيئاً له بها، ستمنى له السعادة وترحل، لن تبقى بعد الآن..

استغربت ذلك البرود الذي أحسته يسري في أعصابها، عجباً، لم تعد متألمة من خيانتته ولا من فكرة زواجه من غيرها، لقد فقد مكانته عندها، إنه لا يستحقها ولا يستحق أي شيء من كل ما فعلته من أجله!

رفعت رأسها بشموخ وقالت بصوت ثابت دون أن تنهمر من عينيها دمة واحدة: وليد..

نظر إليها بارتباك، فنظرت إليه بقوة، لقد أحست أنها أقوى منه في تلك اللحظة، أقوى منه ألف مرة، إنها تستحق رجل يقدرها ويصونها، تستحق رجل يذوب فيها حباً، ويبدو أن وليد ليس هذا الرجل..

قالت له بصوت بارد: أنتظر منك ورقة طلاقي..

سحبت عربة ابنها وخرجت وهي ترفع رأسها بكبرياء عظيم ورحلت، كانت تستطيع أن ترى طريقها بوضوح، لم تبك، ولم تشعر بالانهيار وعجباً إنها لم تعد تتألم أيضاً، لقد فقدت احترامها لزوجها، وعندما تفقد الزوجة احترامها لزوجها فإنها تفقد معه حبها له وإحساسها بقيمته في حياتها.

برج مراقبة

لم تكن عذاري تتخيل أن غرفة نومها ستتحول إلى غرفة مراقبة بالكاميرات وأجهزة التصنت في يوم من الأيام!!

اكتشفت ذلك الجهاز الصغير الذي أخفاه شهاب بمهارة خلف سريرهما والذي يقوم بتسجيل الأصوات بدقة متناهية رغم صغر حجمه ولساعات تمتد إلى أكثر من أربع وعشرين ساعة متواصلة!!!

تذكر غضبه الشديد يوم اكتشف أنها وضعت رقماً سرياً لفتح هاتفها النقال، فعلت ذلك بعد أن رأته صدفة يعبث في هاتفها أثناء وجودها في الحمام، لم يتبه لخروجها ووقوفها أمامه وهي تنظر إليه بدهشة، فليس من حقه أن يطلع على خصوصياتها في الهاتف حتى وإن كان زوجها!

غضبت منه وشدت هاتفها من بين أصابعه، لم يجد ما يقوله تبريراً على تجسسها عليها، لكنه جن غضباً وغيره عندما اكتشف أنها وضعت رقماً سرياً لتحمي هاتفها من تلصصه، وبالمقابل قام بوضع جهاز للتسجيل في غرفتها من وراء ظهرها!

ما الذي يبحث عنه شهاب؟ إنه يبحث عن أمر يدينها، أمر يؤكد له خيانتها له، ببساطة إنه يشك بها وبسلوكها!

أكثر ما يؤلم المرأة في العالم هو شك زوجها بها، فهذا الشك طعنة نافذة لها ولشرفها خاصة عندما تكون مُحبة لهذا الزوج، باقية عليه، وتخاف الله فيه. الإخلاص ينبع من القلب، لا يمكنك أن تجبر أي شخص بأن يكون مخلص لك حتى لو راقبته طوال الوقت وتحوّلت إلى مخبر سري للتجسس عليه والتلصص على خصوصياته، الإخلاص أمر مرتبط بأخلاق الشخص نفسه،

بمبادئه الخاصة، بخوفه من رب العالمين لا من الناس، الإخلاص أمر لا إيجاب فيه، فمن يضمّر الخيانة لن يمنعه أحد، لا يوجد شخص يستطيع أن يتحكم بشخص آخر، فكل مسؤول عن نفسه وعمله، وكل يحاسبه الله على ما يضمّره في قلبه.

قررت عذارى مواجهة شهاب باكتشافها لذلك الجهاز، كانت تغلي غضباً وهي بانتظاره، وبمجرد عودته في تلك الأمسية قرأ في وجهها أنهما مقدمان على شجار جديد.

رفعت عذارى أصابعها الممسكة بجهاز التصنت أمام عينيه وهي تسأله: شهاب.. ما هذا؟

نظر إليها لبرهة، فقرر أن يستبدل الحرج بالوقاحة وقال: من حقي أن أحافظ على زوجتي!

قالت له متهكّمة: تحافظ علي من ماذا بالضبط؟

رد وهو يهرب من نظراتها الحارقة: من الرجال، من الخطأ، من نفسك حتى! نظرت إليه بدهشة وهي تقول: أتظنني مراهقة غريبة أم ماذا؟ شهاب، معقول أنك تتجسس علي؟ هل تشك بي؟؟

قال لها وهو يزفر: لا، لو كنت أشك بك لما تركتك على ذمتي لحظة واحدة أنا فقط أغار عليك وأخاف عليك.

قالت بأسى: أنت تشك بي، واجه الأمر، هناك فرق شاسع بين الغيرة والشك، إنهما أمران متشابهان يفصل بينهما خيط رفيع يبدو أنك عاجز عن تمييزه..

رمى بمفاتيحه وهاتفه على السرير غاضباً وقال: أنا زوجك ومن حقي أن أراقبك وأحميك أنا مسئول عنك، ولن أسمح بحصول أي شيء قد يمس كرامتي ما دمت على ذمتي!

كان كلامه جارحاً، تركها وصدق باب الحمام ورائه، أحست بشعور فظيع بالإهانة يخيم عليها، إن زوجها يشك بها، يالها من مصيبة! معنى ذلك أنه لم ينسى ماضيها، لم تكن تعرف أن أغلب الرجال الشرقيين لا يستطيعون تقبل

ماضي المرأة، لم تكن تعرف أنها عندما كانت صريحة معه - لدرجة أنها أخبرته كل شيء عن علاقاتها السابقة - زرعت في مخيلته شكوكاً لن تنتهي ومخاوف لن تموت في عقله.

أكان من الأفضل لها أن تكذب عليه عندما سألها عن سبب انفصالها عن زوجها الأول؟ أكان يفضل أن تخلق له قصة خادعة لتصور له نفسها كضحية مظلومة لا كمخطئة آثمة؟

لم يُفضل الرجال الكذب على الصدق؟ لم يحولون اعترافات الصدق إلى حجارة يرمون بها نساءهم دون رحمة؟

خرج شهاب من الحمام وقد ارتدى ملابس نومه، أعطى عذارى ظهره وتركها دون أن يقول لها شيئاً آخراً..

بقيت هي مستيقظة لفترة بعد أن تظاهر بخلوده للنوم، ثم اندست في السرير ونامت على طرفه بعيداً عنه حتى أحست أنها على وشك أن تقع!

كانت تفكر.. كيف تستطيع أن تكسب ثقة زوجها بها وتؤكد له أنها لا يمكن أن تنظر لأي رجل غيره!

كان يفكر.. كيف يمكنه أن يجد وسيلة جديدة ليتجسس عليها دون أن تكتشف كي لا تستغفله مع رجل غيره!

(98)

تقارب

كانت جميلة سعيدة لأنها ستزف إلى أيوب بعد شهر واحد فقط. كانا يتحادثان في الهاتف، صحيح أنها هي التي تتصل به غالباً، وهي التي تتحدث معظم الوقت خلال تلك المكالمات، لكنها بدأت تحس ببعض التقارب الذي بدأ ينشأ بينه وبينها.

كانت سعيدة به، لم يكن في حياتها أي رجل قبله فأحبته، أحبته لأنها وجدت فيه خلاصها ووجدت فيه رجلاً يمكنه أن يُنسيها أحزان الماضي كلها، رجل لن يُعايرها أبداً بحقيقتها، ولن يُشعرها يوماً أنه تفضل عليها بزواجه منها. كان أيوب يبحث عن شقة صغيرة لينتقل إليها بعد الزواج، أخبرها أنه يريد أن تكون هذه الشقة ذات إيجار معقول، يحب أن يعتمد على نفسه في حياته القادمة، ورغم أن جوهرة فاجأته بأن له حساباً في البنك يضم مبلغاً محترماً من الراتب الذي تصرفه الحكومة شهرياً لمن هم مثله، والذي لم يقدّم أحمد بصرف أي فلس منه أبداً من أجل أن يسلمه له عند زواجه، إلا أنه قرر أن لا يستخدم كل هذا المبلغ وأن يدخر أغلبه للمستقبل.

تريد جميلة أن تخرج من هذا البيت الذي احتواها طفلة، تريد أن تكون صاحبة بيت يخصها، ممتنة هي لأمها التي ربّتها، ولكل ما قدمته لها، لكنها كانت تتوق للانفصال عنها، يكفيها ما قدمته لها تلك المرأة العظيمة إلى هذا اليوم، يكفيها أنها تحملت تربيتها وتحملت مسؤوليتها لكل تلك السنوات، لقد حان الوقت لتتركها بسلام، لتخلصها من همها وتطمئن عليها وترأها مستقرة في بيت زوجها.

لم يحب أيوب جميلة، فورد لا تزال في قلبه، كان يتعذب لبعده عنها، لكنه

أحس بالارتياح لجميلة، كان يحس أنها صديقة له، وهو لم يكن له صديق مقرب أبداً طوال حياته، كانت مسلية، كثيرة الكلام، لكن حديثها ممتع شيق يجعل الوقت يمر سريعاً دون أن يحسه.

لم ير ورد خلال الشهرين الماضيين لكنه كان يسأل عنها أمه، لم تكن جوهرة على تواصل جيد بأختها، كانت نافرة منها، لأنها السبب في تفريق هذين العاشقين المسكينين..

لم تستطع ماجدة أن تخفي فرحتها العظيمة بخطبة أيوب، لقد حدث ما كانت تحلم به وتدعو من أجله دائماً، سيتزوج أيوب وستتخلص ابنتها من حبه مع الوقت، لم يكن يهمها ذلك الحزن الذي صار ملتصقاً بابنتها كظلها، فالوقت كفيل بتفتيت الأحزان وكفيل بمعالجة جراح القلوب المحطمة.

كان أيوب يمنع نفسه بقسوة كلما شعر بالحنين إلى وورده، عليه أن يكمل ما بدأه، عليه أن يحترم قراره، يعرف الآن أكثر من أي وقت مضى أن جميلة تناسبه، لا يشعر بعقدة أصله معها، إنها مثله، لا أحد منهما أفضل من أحد. لن تخجل منه ولن تعيره، سيكونان معاً ليداوي كل منهما جراح الآخر، يستطيع أن يتخيل حياته القادمة معها، سيخرج من منزل جوهرة كشاب متزوج بعد أن دخله كطفل منبوذ لقيط.

لم يعد يتألم كثيراً عندما يفكر بوضعه كما كان في السابق، لقد بدأ يتعايش مع حقيقته بسلام، إنه يتقبل وضعه، يتقبل ما لا يستطيع تغييره بحكمة، ووجود جميلة معه سيقويه، وسيجعله يتحدى الماضي ويتخطاه يوماً بعد يوم.

لم يكن سعيداً، لكنه كان مستسلماً، لم يعد يكتب لأمه الحقيقية تلك الرسائل، ولم يعد يريد أن يعرف أي شيء عنها، لا يمكنه التواصل معها، فجراحهما تمنعهما من أي تواصل مستقبلي، لقد أدمت فؤاده بالحقيقة، وأدمى هو فؤاده بالتخلي.

الحقيقة

دخلت ورد غرفة المكتب في منزلها، كانت هذه الغرفة لجدها رحمه الله، وبعد وفاته استخدمتها أمها في فترة كانت مهتمة فيها بالقراءة لقطع الوقت. بدت هزيلة جداً، حزينة العينين، كانت ترتدي ملابساً للبيت وقد ربطت شعرها بإهمال دون أن تقوم بتمشيطة حتى.

أغلقت الباب خلفها، أيمن لهذه الكتب الكثيرة أن تخفف من ألمها؟ أيمن لها أن تخرجها من عالمها القاسي؟ أيمن لها أن تسلي وحدتها؟ أيمن أن تجد فيها بعض السلوى والصحبة التي قد تؤنسها بعد أن هجرها من تحب؟

اقتربت من الأرفف الكثيرة، نظرت للعناوين المصفوفة عليها بعناية، كتب تاريخ، كتب اقتصاد، كتب عن بعض الأمراض، كتب للتنمية الذاتية والتي تجعل الشخص يصدق بأن كل ما يريده ممكناً، روايات عديدة لأدباء مشهورين من الوطن العربي وروايات أخرى مترجمة لأدباء من الأجانب.. لم تجد ميلاً لتقرأ أي من الكتب التي أمامها، لم يجذبها أي كتاب منها ولم يثر شغفها للقراءة، جلست على الكرسي الكبير وضمت ساقيها إلى صدرها وهي جالسة عليه.

بدت كفتاة مشردة بملابسها القطنية وشعرها الفوضوي وملامحها الكئيبة.. نظرت إلى الأدراج الكثيرة في المكتب الذي أمامها.. لا تعرف كيف دفعها الفضول للتطلع إلى محتوياتها..

فتحت الدرج الأول فوجدت بعض الصور لها مع جدتها وجدتها وهي

وجدت صورة لها وهي حافية تمشي على العشب فابتسمت كمن يتسم لشخص بعيد عنه..

وجدت بعض الصور لعيد ميلادها الذي أقامته لها أمها في حديقة المنزل، نظرت لأيوب الواقف بجوارها في أغلب الصور فتنهدت، لمست وجهه في الصورة، فتأوهت، لقد خذلها كما لم يخذلها أحد في حياتها.

يكون الخذلان قاتلاً عندما يأتينا من شخص نحبه ولا نتوقع أذاه، ياه ما أصعب أن تعادي من تحب وما أصعب أن تعجز عن كرهه!

تذكرت في تلك اللحظة صديقتها ياسمين، لقد خذلتها هي أيضاً، أخبرتها فضة أنها أقامت علاقة مع زوجها، وأنها تركت بيتها وعادت إلى منزل أهلها بسببها، ياه كم ننخدع ببعض الوجوه، لم تكن تعلم أنها كانت صديقة لأفعى لكل تلك السنوات، من المحزن أن يكتشف الإنسان أنه وثق بمن لا يستحق واطمأن لشخص كان مستعداً لطمعه في أي لحظة.

فتحت الدرج الثاني فوجدت بعض الأدوية المنتهية الصلاحية، أحست أنها صارت مثل هذه الأدوية، صارت آدمية منتهية الصلاحية، ابتسمت لتلك الفكرة بياس، لن ينبض قلبها لغيره تعرف ذلك يقيناً، ولن تسعد مع أي رجل سواه، أغمضت عينيها بأسى.

لم تكن تستطيع أن تستوعب أنه سيتزوج من غيرها ببساطة وكأنها لم تكن! فتحت الدرج الثالث فوجدت بعض الجرائد القديمة فيه، لا تعرف لم سحبت تلك الجرائد وأخذت تتصفحها، لفت نظرها خبر منشور في إحداها وقد رسم شخص ما - غالباً يكون جدّها - دائرة حمراء حوله، قرأت الخبر: شاب حديث الزواج ومن عائلة مرموقة يلقي حتفه بجرعة زائدة من المخدرات..

خفق قلبها، نظرت إلى الجرائد الأخرى، قرأت اسم أبيها صالح في صفحة الوفيات، وجدت عشرات الإعلانات المحاطة بدوائر حمراء والتي كانت

إعلانات تعزية نُشرت لتشارك جدها في حزنه وتواسيه على وفاة ابنه الوحيد! خفق قلبها بشدة، لقد عرفت للتو سبب وفاة أبيها، كان مدمناً للمخدرات، وحسب تاريخ هذه الجرائد عرفت أنه مات وأمها حامل بها، ربما لم يعرف أن أمها حامل أصلاً، إنها ابنة مدمن ودع الحياة بسبب جرعة زائدة! ياللعار! ضحكت وكأنها جنت، حرمتها أمها من أيوب بسبب عاره وإذا بها تُخفي عار أبيها عنها! ما هذا الجنون، إنها ليست أفضل من أيوب على أية حال!

أمسكت الجريدة وجرت إلى الصالة حيث كانت أمها تحتسي قهوتها، وقفت أمامها وهي تلهث، قالت وهي تمد لها بالجريدة التي ترتعش بين أصابعها: فسري لي هذا!!

تعجبت ماجدة من حال ورد، التقطت الجريدة ففتحت عينيها على آخرهما بجزع، قالت: من أعطاك هذه الجريدة؟

قالت ورد: ساقني إليها القدر، إذن مات أبي بسبب الإدمان، تعتقدين أن الناس لو عرفوا بذلك سيحترموني؟

قال ماجدة: ما ذنبك أنتِ إن كان أهلك مدمناً؟

صرخت ورد وقد جنت: وما ذنب أيوب إن كان أبوه خاطئاً؟

ردت ماجدة بهدوء: أنتِ ابنة حلال، لا تقارني نفسك به.

صرخت ورد وقد فقدت عقلها: أنا أشبهه، وأنتِ حرمتني منه، أنتِ ظلمتني من أجل الناس قتلتي كما قتلت المخدرات أبي، أنتِ دسست السم في أذن أيوب حتى قرر أن يتخلى عني، أنتِ ظلمتني، حطمت قلبي لأنك أنانية، تريدان أن أتزوج على ذوقك، برجل يشرفك أنتِ، لم تهملكِ مشاعري، لم أهملكِ أنا، أنا أكرهك.. أكرهك!!!

قامت ماجدة خائفة واقتربت من ورد وهي تحاول أن تهدئها: اهديني حبيتي، اهديني أرجوكِ أنا..

قاطعته ورد صارخة: أنا أكرهك.. أكرهك.. أكرهك.. أكرهك..

تشنجت ورد، زاغت عينيها، بدأت أسنانها تصطك ببعضها مصدرة صوتاً مؤلماً، بدأت تتهاوى بضعف، صرخت ماجدة لتطلب النجدة من الخدم، وقعت ورد على الأرض عند قدميها منتفضة في نوبة لم تكن الأولى منذ تركها أيوب..

((حتى جسدي صار مثلك، تخلى عني عندما لم يجدهك..))

(100)

ورقة طلاق

كانت فضة تتربص وصول ورقة طلاقها في أي لحظة، عرفت أن معركتها خاسرة مع ياسمين ولم تعد ترغب بالحصول على غنيمة تلك المعركة معها ولا حتى المشاركة فيها، لقد انسحبت باقتناع لا بإجبار، انسحبت بقرار وليس لاضطرار، انسحبت وافقة لا منكسرة وقررت أن تكرر حياتها بعد الطلاق لتربية ابنها يوسف.

حاولت أم زوجها إقناعها بالعودة إلى البيت كما في المرة الأولى، حتى أخته جنان حاولت أن تصلح بينها وبين وليد بعد أن أتت لزيارتها وحاولت أن تقنعها أن ما يمر به نزوة مؤقتة وأن عليها أن لا تسمح للأخرى بالانتصار عليها، كانت ممتنة لموقف جنان على أية حال، لكنها لم تعد مقتنعة بطريقتها في النظر إلى الأمور بعد الآن فالرجل الذي يبيعها لا يستحق أن تشتريه والرجل الذي يفضل أخرى عليها لا يلزمها.

حزنت جوهرة لأن ابنتها على وشك الطلاق، وحزن أحمد أكثر، فكر كثيراً بالاتصال بوليد ونصحته عله يعود إلى رشده، لكن فضة استحلفته ألا يفعل، لا تريد لأبيها أن يرخصها أمامه، ولا تريد هي العودة إليه، تريد أن يمنحها حريتها بهدوء، لقد قررت أن تتركه لياسمين، وكل ما يهمها الآن هو حصولها على الطلاق بشكل عاجل ورسمي.

كان أيوب متعاطفاً معها أكثر من شهاب الذي كان يقول لها على مسمع من عذاري: لو كل امرأة اكتشفت أن زوجها على علاقة بأخرى لما ظل أحد متزوج في هذا العالم!

إنه يرى الناس مثله، هكذا فكرت عذراي وهي تسمع ما يقوله، لكن الأسوأ

أنه يراها هي مثله أيضاً لذلك يشك بها!
 لم يكن من السهل على فضة أن تربي ولدها وحدها وهو في هذا العمر الصغير، لكنها لم تجد حلاً سوى أن تتحلى بالقوة والصبر لتكون لهذا الطفل البريء الأم والأب.

عندما أخبرت ورد عن فعلة ياسمين صُدمت ورد وأخبرتها أن ياسمين قاطعتها منذ مدة، وقد عرفت الآن سبب تلك القطيعة، لم تكن تريد أن تُشعر ورد بالذنب كونها من أخذت ياسمين بنفسها إلى وليد من أجل قضيتها، لكنها أرادت أن تحذرها منها ومن شرها وأن توصيها بالابتعاد عنها كونها امرأة خبيثة لا تتردد في هدم بيت قائم ولا في تشريد طفل رضيع من أجل مصلحتها وغايتها. كانت جوهرة شديدة التأثر...

لم تعد تستطيع النوم، كانت تقضي ليلاتها حزينة تفكر في ابنتها ومصيرها بعد الطلاق...

لا شيء يُحزن الأم أكثر من أن تجد ابنتها التي تعبت في تربيتها تعاني بسبب رجل لم يعرف قيمتها، صعب أن تجد الأم ابنتها مهزومة ضعيفة تعود إلى منزل أهلها كسيرة القلب مهیضة الجناح..

صعب عليها أن ترى حفيداً لها يدفع ثمن انفصال والديه ويُحرم من وجود أحدهما في حياته.

اتصلت أم وليد بجوهرة أكثر من مرة ورجتها بأن تحاول إقناع فضة بالعودة إلى البيت ثانية، كانت تبكي بحرقة وهي تدعو على تلك المرأة التي زعزعت استقرار هذه العائلة بأكملها، أخبرتها جوهرة ببعض القسوة بأن لوليد أيضاً ضلع في كل ما حدث، فلو أنه اهتم بالمحافظة على بيته وولده لما انساق وراء تلك الأخرى وفرط بزوجه بهذه السهولة من أجلها..

تعرف جوهرة أن أمه طيبة ولا يد لها في كل ما حصل لكنها لم تكن لتحاول إقناع فضة بالعودة إلى وليد، لم ترد أن تتدخل في قرار ابنتها، فهي امرأة ناضجة وتعرف مصلحتها ولن تستطيع أن تجبرها على تحمل ما لا تطيق.

لم يتصل وليد بفضة منذ تلك المواجهة بينهما في المكتب، لم يجرؤ على الاتصال بها، لقد ضبطته متلبساً بجرمه، ما الذي يمكنه أن يقوله لها؟ كيف يمكنه أن يعتذر إليها؟

وكيف يستطيع أن يرد لها اعتبارها؟

لقد جرحها بشدة، وعليه أن يحترم رغبتها بالانفصال عنه لأنه لا يزال مرتبطاً بغيرها.

مُحزن أن تشعر المرأة أنها لا تكفي رجلها، إنه جرح عظيم في صرح أنوثتها، ومحزن أكثر إن كانت تعتبر هذا الرجل كل حياتها..

كانت فضة تتألم كلما تذكرت ذلك الحب الذي غمرت به زوجها وتلك الأيام التي كرسَتْ فيها نفسها لخدمته بكل تفانٍ وإخلاص..

عرفت الآن أن على الإنسان أن يحب نفسه ويعتني بها أكثر من أي شخص آخر، فلا أحد يستحق منك أن تضحي براحتك من أجله!

((لا تُشبعهم حباً حتى لا يرحلون ، فالبعض إن ضمنوك استخفوا بك وأذوك!))

(101)

امرأة لا تستحق

جلس وليد أمام أمه ليسمعها وهي تقول بنبرة جدية لم يعتد عليها: عليك أن تتخذ قرارك الآن وفوراً.

زفر بضيق: أنتِ تضييقين علي الخناق لأنك تحبين فضة وتقفين في صفها.. نظرت إليه بغضب: وفي صف من تقف أنت؟ في صف تلك الدخيلة الأفعى التي تريدك بغض النظر عن بيتك الذي سيهدم وابنك الذي لا ذنب له؟

قال بحدة: فضة هي التي تريد الطلاق، كان بإمكانها الحفاظ على بيتها. قالت الأم: تريد الطلاق لأنها تحبك ولا تحتمل أن تشاركها امرأة ثانية فيك، تريد الطلاق لأنك لا تملك سيباً مقنعاً واحداً لتتزوج عليها، ستخسر يا وليد، وأريدك أن تعرف شيئاً مهماً، لن أرضى عنك إن طلقت زوجتك أم ابنك، ولن أقبل بأن تدخل الثانية بيتي أبداً، إن كنت مُصرّاً على رأيك تزوجها وجد لها سكناً بعيداً عني واعلم أنني لا أريدها في حياتي، ممنوع عليها أن تدخل بيتي طوال عمري فأنا لا أتشرف حتى بمعرفتها!

تضايق وليد من كلامها، كان عليه أن يتخذ قراره، وأن يختار إما أمه وفضة وابنه، وإما ياسمين، كان يحس في قرارة نفسه بحجم التضحية التي سيقدمها إن أصر على زواجه منها وفي نفس الوقت كان ضميره يناقشه: أتستحق ياسمين أن يتحمل خسارة الجميع من أجلها؟

لقد تركت زوجها الأول ووقفت في وجه كل عائلتها، لكنها لم تفعل ذلك من أجله فلم يكن على علاقة بها وقتها، لقد فعلت ذلك من أجل نفسها، هي

التي اختارت فلم عليه أن يحس بالذنب من أجلها؟ لأنه وعدها بالزواج؟ كثير من الرجال يعدون بالزواج ثم يعدلون لسبب أو لآخر، يمكنه أن يتحجج أمامها بابنه! عجباً! لم يفكر الآن بإيجاد حجة للتخلص من وعده لها؟ ألم يعد يريد لها؟

كانت تحاصره باتصالاتها، تقتحم مكتبه بلا موعد أو استئذان، تعب منها ومن ملاحظتها له وفي نفس الوقت كان يشعر بالمسئولية نحوها، فهو الذي أوصلها لهذه الحال، وهو الذي أكد لها أنه يحبها ويريد الزواج منها. كان رجلاً يحترم كلمته، رغم أنه نسي كل تلك الكلمات التي وعد بها فضة، أهو رجل لا أمان له؟ صحيح، لا أمان للرجال، فهم سرعان ما ينسون وعودهم!

كره نفسه في تلك اللحظة وهو يلمح عذاب أمه، كل هذا العذاب بسبب ياسمين! أتستحق هذه الياسمين أن يتعذب الجميع بسبب وجودها في حياته؟ كان يظن أن فضة سترضخ للأمر الواقع عندما يخبرها عن نيته بالزواج، هل أخطأ عندما أخبرها؟ ما كان ليخدها، لن يحترم نفسه إن فعل والنتيجة ستكون واحدة في النهاية.

ظن أنها تحبه لدرجة أنها ستحتمل زواجه عليها، ظنها مضمونة من أجله، وأسوأ ما يفعله المرء هو أن يجرح من يعتقد وجودهم مضمون في حياته! لقد أخطأ التقدير، وحسابات عقله لم تكن صائبة، لم يتوقع أن فضة تستطيع تركه، توقعها ستظل دائماً قابعة في بيته لمجرد أنه عرف كم تحبه، لقد استهان بها واستخف بحبها له، ترى ألا تزال تحبه؟ خفق قلبه، لا يحتمل فكرة أنها لم تعد تحبه! عجباً! ماذا عنه هو! ألم يحب غيرها؟ ياه كم جرحها! كانت أمه تراقبه بصمت وهو يغرق بأفكاره، تعرفه جيداً، تعرف أنه سيعود في وقت ما لرشده لكنها كانت تدعو أن يصحو من هذه النزوة سريعاً قبل أن يخسر زوجته.

قالت له بعد أن رأت تغضن جبينه وكأن أفكاره باتت تضغط على رأسه:
وليد، اتصل بتلك الفتاة وأخبرها أنك آسف، وأنتك لن تترك بيتك ولن
تضحى برضا أمك من أجلها، اطردها من حياتك ودعها تعود من حيث أتت،
دعها تبحث عن رجل ضعيف، عن بيت آخر لتهدمه وحافظ أنت على بيتك
وأسرتك، اتخذ قرارك وعد إلى فضة ويوسف، ودعنا نُنهي هذه المعضلة
بسلام وتعقل.

نظر إليها، كانت على حق، لكن لم يشعر بالخسارة الآن عندما يفكر أنه لن
يتزوج من ياسمين!

(102)

سفر

كانت ماجدة تجهز أغراضها للسفر، ستسافر مع ورد، ستعرضها على طيب نفسي في الخارج، طيب يمكنه معالجتها من هذه النوبات المخيفة التي صارت تصيبها بانتظام، ستعالج ابنتها ثم تعود بها لتزوجها من رجل يناسبها وستكون هذه الأيام الصعبة مجرد ذكريات لا يُحب تذكرها أحد!

أكدت ماجدة لنفسها: لقد تصرفت بشكل صحيح، كل ما فعلته كان من أجل مصلحتها.. لم أخطيء، ولن يلومني أحد على أي شيء!

زفرت بحزن، لقد تدمرت علاقتها بجوهرة، فذلك الحاجز الذي نشأ بينهما منذ افتراق ورد عن أيوب صار شديد الصلابة، تعرف أنها خطبت لابنها لتريحها وتجبر ورد على نسيانه، لكنها تعرف أنها حزينة لأن ماجدة لم تغير رأيها أبداً تجاه أيوب ولم تمنحه ابنتها الوحيدة.

لا بد أن الوقت كفيل بجعلهما تتخطيان هذا الحاجز في يوم من الأيام، عليها أن تنتظر، سيتزوج أيوب ويُنجب وينسى، وستفعل ورد مثله، بعدها سيكون التواصل سهلاً عندما يحل النسيان، فالنسيان نعمة، بل أعظم نعمة في هذه الدنيا على الإطلاق!

تعرف ورد أنها ستسافر مع أمها من أجل أن يراها طيب نفسي، تعرف ما يجري لها، تدركه لكنها مستسلمة له، تلك الرعشات التي تسري في جسدها فتفقدتها تحكمها به فتتفض بشدة وكل ما فيها يصطك ببعضه، تنتهي النوبة بزبد يتجمع حول شفيتها، تبقى متخشبة بعدها لوقت طويل، وعندما تعود لحالتها الطبيعية تصبح منهكة وكأنها قد تعرضت لضرب مبرح.

لقد قضى عليها حبا.. قضى عليها الرجل الوحيد الذي خفق له قلبها...

لا شيء ألمها في حياتها أكثر من أيوب، لم تتألم ليطمها ولا لمعرفة لطريقة موت أبيها، لم تتألم بهذا القدر عندما مات جدها ولا عندما مات جدتها، لم تتألم هكذا عندما خانتها ياسمين وأرادت أن تخطف زوج ابنة خالتها فقطعت صلتها بها فجأة، لم تؤلمها صفقة أمها ولا خصامها ولا شجاراتها المتكررة بشأن أيوب، أكثر ما ألمها كان هو، ألمها بقدر حبها له، بقدر ثقتها فيه، بقدر ظنها الحسن في نواياها نحوها، تشعر أن قلبها يتمزق كلما فكرت أنه خطب غيرها، تخيله في ليلة زفافه يزف إلى عروسه، تتخيل نفسها تموت حسرة وقد أصبح لغيرها، لم تكن تظن أنها تحبه لهذه الدرجة، لقد هزمها حبه، دمرها، لم يعرف هو أيضاً أنها تحبه بهذا القدر، ولا عرفت أمها ولا خالتها ولا أي أحد ممن تأمر على تفريقها عنه!

إنها تذوي، تذبل، تموت ببطء، سعيدة هي بفكرة اقتراب موتها، دعت في سرها أن تموت قبل أن تسمع بزفافه، ستكون سعيدة عندما يأخذها الله إلى سمائه، حيث لا يوجد تفرقة ولا ظلم، حيث لا يوجد أناس يسيطرون على غيرهم ويحرمونهم ممن يحبون..

ابتسمت كأنها تهذي وهي تتذكر تلك المقولة: ومن الحب ما قتل! يسعدنا أن يقتلها حب أيوب في النهاية.. لن يحزنها أن تكون شهيدة حبه.. بل ستكون سعيدة..

ستكون سعيدة عندما تصبح مجرد روح هائمة في الفضاء، روح تحوم حول أيوب الذي أحبته بكل نبضة نبض بها قلبها، أيوب الذي تركها واختار أن يعيش مع غيرها باسم التضحية من أجل مصلحتها!
إنها لا تستطيع أن تكرهه، فكل خلية فيها تهتف بحبه، ستموت، سترتاح، وستسعد بالموت أكثر من سعادتها بهذه الحياة الظالمة..

((أي تضحية قدمتها أنت؟ قتلني باسم التضحية ودست على أشلاء قلبي متعمداً وخذعت نفسك عندما أقنعتني أنك فعلت كل ما فعلت من أجل مصلحتي؟ أي ظلم هذا وأية فعلة؟)).

(103)

صديق قديم

كانت عذارى تمشي مع شهاب في أحد المجمعات التجارية، أخبرته أنها تريد أن يوصلها بعد الغداء إلى منزل أهلها لترى كلبها الذي اشتاقت له كثيراً فلم تره منذ مدة.

ارتدت يومها ثوباً أنيقاً لأنها لم تخرج مع شهاب منذ مدة طويلة، كانا يسيران في المجمع وهما صامتان، لم يعد بينهما الكثير من الكلام ليقال بعد كل تلك المشكلات التي افتعلها شهاب بينهما مؤخراً بسبب غيرته الحمقاء وشكوكه.

قصداً أحد المطاعم وما إن جلسا حتى اقترب شاب وسيم من طاولتهما وهو يقول: عذارى! ماهذه الصدفة الجميلة؟

وفقت عذارى فرحة وهي تقول: عادل؟؟ يالها من صدفة، كيف حالك؟ لم أرك منذ أيام المدرسة!

ضحك عادل وهو يقول: لكنك لم تتغيري، لا زلت كما كنتِ دائماً..

انتبعت عذارى إلى شهاب الذي كان ينظر إليها بدهشة فقالت: شهاب هذا عادل، لقد كان زميلي في المدرسة منذ الطفولة، عادل هذا شهاب.. زوجي!

بدا شهاب شديد الجفاء معه مما أخجله وأشعره بالحرج لأنه تطفل عليهما، لم يكن يتوقع أن تتزوج عذارى من رجل قد يغضب إن رآها تحدث صديقاً قديماً فهو يعرفها جيداً ويعرف أنها من بيئة متفتحة ويعرف كيف يعيش أهلها. انسحب عادل من مكانه تاركاً سحابة من الشكوك التي ارتسمت في مخيلة شهاب خلفه!

قال شهاب: من هذا؟

تعجبت وهي ترد عليه: أخبرتك من يكون! ألم تسمعي؟

قال وهو يمد يده فجأة ويضغط على أصابعها بين راحة يده الكبيرة: تظنيني أحمق صحيح؟

ذهلت وهي تشعر بأصابعها تكاد تنسحق في يده القوية، صاحت وهي تكتم صوتها كي لا يرتفع فتلقت نظر رواد المطعم إليها: اترك يدي، أنت تؤلمني، اتركها فوراً يا شهاب!

شد على أصابعها أكثر وهو يقول: لهذا أنت متأنقة اليوم هكذا، منذ رأيتك وأنا أسأل نفسي ما خطبها؟ قلت أنك تريدين أن تري كلبك اليوم، أيكون هذا كلبك الذي تقصدينه؟

سحبت يدها من بين يده بصعوبة حتى كادت تحس بأن أصابعها قد انخلعت من مكانها، نظرت إليه بدهشة وهي تقول: هل أنت جاد؟ يبدو أنك قد جننت! انتبه لكلامك لا أسمح لك بإهانة صديقي، إنه رجل محترم، من المخجل حقاً أن تشتمه هكذا لمجرد أنك مريض بالشك!

قام شهاب من مكانه فجأة وشدها معه، بدأ الناس ينظرون لهما فقامت مسرعة كي لا يتسبب لها بفضيحة أمام الجالسين.

ساقها معه وهو يشدها من ذراعها، كانت بصعوبة تستطيع ملاحقة خطواته الواسعة التي يخطوها بساقيه الطويلتين..

أركبها سيارته وأقفل الباب، خرج من مواقف المجمع مسرعاً كالمجنون، كاد يدهس رجلاً من عمال النظافة عند مدخل المجمع فصرخت: انتبه بالله عليك! كدت تقتل هذا المسكين!

ضغط بقدمه على دواسة السيارة لينطلق بأقصى سرعتها، خافت عذاري وهي تراه في هذه الحالة غير الطبيعية، حاولت أن تتكلم فأشار لها بالسكوت، توقف بها وسط ساحة ترابية قريبة من الممشى الذي كانا يرتادانه معاً أيام حبهما..

التفت إليها بكامل جسمه والشرر يتطاير من عينيه، وقبل أن تعي أحست بيده الكبيرة تنهال على خدها بصفعة شديدة كادت تفقدتها سمعها!

شهقت وهي تشعر بالعجز أمامه وكأنها حمامة وقعت في براثن ذئب

متوحش، قال وهو يشدها من شعرها ويضرب رأسها بزجاج نافذة السيارة: أتظنين أنني غبي مثل زوجك الأول؟ أتظنين أنني غافل عما تستطيع فتاة مثلك فعله؟ أتظنين أنني لم أعرف بناتاً مثلك من قبل؟ أعرف ما يمكنك أن تقومي به، اعرف ذلك جيداً.. أنا لست غيباً!

كان يطعنها بكلامه، يشكك في سلوكها وإخلاصها له، عرفت أن ماضيه وماضيها سبب عقده، لم يكن ماضيها وحده هو السبب، إنه ماضيه أيضاً، فقد كان زير نساء، كان رجل لعوب ذو علاقات كثيرة قبل أن يعرفها، لقد جنى على نفسه قبل أن يجني الآن عليها ويتهمها في شرفها، إنها تدفع الآن ثمن أخطائها وأخطائه معاً!

قالت وهي تشعر بأثار صفعته تحرق خدها وبألم شديد في رأسها: ما الذنب الذي اقترفته يا شهاب؟ ألأنني كنت صريحة معك؟ ألأنني أخبرتك كل شيء عن الماضي صرت الآن تشك بي؟ أكنت تفضل لو أنني اختلقت لك كذبه ما وأخفيت عنك سبب طلاقى؟

جرها من ياقتها نحوه وهو يهزها بين يديه بقسوة: أنتِ معتادة على الخيانة، لا بد أنك واعدت ذلك الرجل في المجمع، بدت حيلتكما واضحة ومكشوفة، هذه المخططات لا تنظلي علي.

كانت مذهولة بما يقوله، إنه يضربها! حتى عبدالله لم يمد يده عليها رغم أنها أساءت إليه وجرحته، عبدالله كان أكثر رقياً منه وأكثر رحمة، إن شهاب قاسٍ، مسيء، والأسوأ مريض بالشك بسبب ماضيه قبل ماضيها.

تملصت من بين يديه فجأة وفتحت باب السيارة وجرت هاربة، فوجيء بهروبها منه على هذا النحو، نزل من السيارة وجرى وراءها صارخاً وهو يتوعدها، خافت منه فجرت أكثر، خافت أن تتوقف فيعاود ضربها، أحست به يقترب منها، فهو أسرع منها وأكبر حجماً، وقبل أن يصل إليها، انزلت قدمها ووقعت على الأرض وارتطم رأسها بحافة الرصيف وتفجر الدم من رأسها الصغير..

(104)

مصارحة

عندما دعتة جميلة إلى العشاء في بيتها بوجود أمها وأخيها أحس بالحرج، لم يرها أيوب منذ جاء لخطبتها مع أمه، كان يتحدث معها على الهاتف وكان مكتفٍ بذلك..

لكن جميلة أحببت أن تلتقي به مرة ثانية لسببين، الأول أن زواجهما اقترب ومن غير المعقول أن تتزوج من رجل لم تره سوى لمرة واحدة، أما السبب الثاني والذي كانت تخجل من مصارحة نفسها به، أنها اشتاقت إليه!

أحست أنها تكاد تنسى ملامحه، تريد أن تراه أمامها لتحفظ هذه الملامح، ففي المرة الأولى تحادثا بشكل رسمي، لكنهما الآن مخطوبان متآلفان وتحب أن تراه وجهاً لوجه لتتحدث معه وتراه عن قرب.

أخبرت أمها بطلبها ووافقتها بشدة على أهمية دعوته ثانية ورتبت أمر هذه الدعوة في تلك الليلة.

أحست جميلة أن أيوب لم يكن متحمساً للمجيء لرؤيتها، وعزت ذلك إلى شخصيته الخجولة، لكنها فرحت كثيراً عندما أكد لها أنه سيأتي واهتمت بزيتها في ذلك اليوم على نحو خاص.

ارتدت ثوباً بلون الرمال وتركت شعرها مربوط خلف رأسها كذيل حصان، تحب أن تربطه هكذا، فهذه التسريحة البسيطة تلائمها وتظهر جمال شعرها وعنقها الطويل.

كحلت عينيها بالسواد وصبغت شفيتها بلون باهت جميل، بدت رائعة وهي ترتدي حذاء عالي الكعب، كانت أمها كريمة معها على الدوام، لم تبخل عليها أبداً بأي ثياب أو كماليات لذا اعتادت جميلة أن تكون أنيقة الشكل مميزة

المظهر.

كانت متوترة وهي في انتظار قدومه، وبمجرد أن سمعت صوت سيارته تقف خارج البيت خفق قلبها بقوة، خرج أخيها لاستقباله وبدأت أمها ودودة معه عندما دخل، رحبت به قائلة: أهلاً بولدي الغالي، كيف حالك حبيبي؟ ومدت يدها تصافحه بحرارة...

تذكر ماجدة في تلك اللحظة، ماجدة التي كانت تستنكف حتى النظر إليه ولم تكلمه بلطف أبداً ولو لمرة واحدة في حياتها! طرد ذكرى ماجدة بسرعة عن خياله، والتفت ليسلم على جميلة التي كانت تقف أمامه مبتسمة أكبر ابتساماتها وأجملها..

خجل من أن يصفحها فاكتمى بأن أوماً لها برأسه محيياً، جلست بقربه لكن على مسافة منه سأله أخيها عن عمله، وحدثه عن عمله هو الآخر، قام الجميع للعشاء وكانت جميلة تراقبه وهو يأكل، فكرت كم هو أنيق وراقي، همست لنفسها، كم هو رائع! وكم أنا أحبه!

كان قلبها يهفو إليه كلما نظرت نحوه، ولاحظت أمها نظراتها له فأحست بالراحة لأنها انجذبت إليه إلى هذا الحد في هذا الوقت القصير.

بعد العشاء استأذنت الأم لقضاء بعض شؤون المنزل وجلس الأخ مقابلهما يتحدث بهاتفه، أراد أن يترك لهما بعض المجال للحديث، فانتهزت جميلة الفرصة وسألته: كيف حالك؟

نظر إليها، فكر بداخله: لا تشبه ورد، كم هي مختلفة عنها! حاول طرد خيال وردته من تفكيره، من غير المنصف أن يقارن جميلة بورد، عليه أن يركز على جميلة وحدها، فهي خطيبته الآن وعليه أن يكون مخلصاً لها ولو بداخله.

سألته ثانية: أيوب، لم أنت صامت؟ بم تفكر؟ أخبرني!
قال بسرعة: لا شيء، أنا بخير يا ورد، لا تقلقي..
أفلت اسم ورد من لسانه دون أن يحس، رمشت جميلة بعينيها، تنهدت وهي

تسأله وقلها يخفق بخوفها: ورد؟ ياله من اسم جميل، تُرى من تكون؟ استوعب أنه نطق باسم ورد دون أن يحس، تعرق، أحس أنه يكاد يغوص في مقعده خجلاً ولاحظت هي ارتبائه وتلعثمه فقلقت، أتكون هذه الورد مهمة عنده لدرجة أن خلط بين اسمه واسمها!!

نظرت إليه متسائلة، كان أخيها قد ابتعد وهو لا يزال يتحدث بهاتفه، أحس أيوب بأن عليه أن يوضح لها، عليه أن يحكي لها القليل على الأقل عن وردته.. قال: ورد هي ابنة خالتي، كنا مقربين جداً من بعضنا منذ الطفولة، هي صديقتي ورفيقة دربي..

سكت وصدرة يتهدج، سألته بقلق واضح لم تستطع إخفاءه أكثر: صديقتك فقط؟ يبدو أنها تعني لك الكثير من طريقة كلامك عنها؟

نظر إلى جميلة، وفكر ما الذي سيجنيه من إخبارها عن ورد؟ أيقول لها أنه أحبها أكثر من أي شخص عرفه في هذا العالم؟ أيقول لها أنه يعيش جسداً بلا روح؟ أيقول لها أنه في كل ليلة يحلم بنفسه وهو يبكي على عتبة بابها مستجدياً نظرة واحدة من عينيها اللتين لا زالتا تأسرانه؟

لم ينسها ولو للحظة واحدة، لا يستطيع أن يفعل، صعب عليه أن ينسى امرأة عاشت بين ضلوعه طوال عمره، امرأة تربعت في قلبه وحدها دون نساء الأرض جميعاً، امرأة عصية على النسيان، امرأة من المستحيل عليه أن يقتلع ذكراها من خياله..

كان سكوته أسوأ وقعاً على جميلة من رده الذي لم ينطق به، بدا جلياً أنه يفكر بفتاة تعني له الكثير، سألته وكأنها تجلد نفسها: تحبها؟

نظر إليها ذاهلاً، لقد أصابته في مقتل، هز رأسه وصمت..

قالت: لا بد أن أهلها رفضوا زواجك منها، صحيح؟

هز رأسه مرة أخرى وهو لا يستطيع النظر إلى عينيها..

أردفت وكأنها تحادث نفسها: لن أسألك لم رفضوك، فأنا أعرف السبب، يمكنني أن أخمنه فأنا مثلك، يرفضني المجتمع دون ذنب جنيته، كلنا هكذا،

للأسف!

قال لها هذه المرة وكأنه يحدث نفسه: أمها رفضتني، أخبرتني أن أضحى بحبي لها إن كنت أريد لها السعادة، وقد فعلت ما طلبته مني، أمها محقة، حرام أن أظلم ورد معي، هي أطيب من أن تستوعب حقيقتي، أرق من أن تعي صعوبة وضعي، أكثر طهراً من أن تتعاطى مع عاري.

أحست بقلبها يختنق، سألته وهي تتجاهل النظر إلى وجهه الوسيم: أهي جميلة؟

قال بحرارة: لم أرَ في حياتي امرأة بمثل جمالها..

أحست بالطعنة تخترق رثتها، لقد نسي أنها خطيبته، نسي أن يترفق بها، نسي أن يراعي مشاعرها، لقد أنسته ذكرى ورد وجودها!

صمتت، ولم يستوعب هو أنه أدمى فؤادها، وقبل أن يتكلم أكثر عاد أخيها إلى الصلاة وهو يبتسم: لقد تأخرت عليكما، اعذراني، كانت مشكلة وانتهت الحمد لله..

قام أيوب مستأذناً وشكر الأخ كثيراً على العشاء الطيب والأمسية اللطيفة، التفت إلى جميلة ولاحظ تغير ملامحها، عرف أنه جرحها، وندم لأنه فعل، فلم تكن تستحق منه ذلك، لم يتجرأ على مصافحتها أيضاً، ولم تكن تنظر إليه فقال بصوت خفيض: مع السلامة!

وخرج..

وبمجرد خروجه جرت إلى غرفتها وأقفلت الباب على نفسها وانهارت تبكي بكل دموعها..

(105)

تحقيق

كان شهاب يقف أمام حجرة الطبيب وهو يذرع الممر جيئةً وذهاباً بقلق شديد، كانت عذارى في الداخل، أحضرها إلى المستشفى بنفسه بعد أن تفجر الدم من رأسها، كان يبكي وهو يحملها بين ذراعيه كطفلة، أحس وقتها كم أذاها، وكم يحبها ويتمنى أن تكون بخير.

خرج الطبيب إليه وعلى وجهه مسحة من الغضب والاشمئزاز، قال له: أنت زوجها؟

رد شهاب بقلب مرتجف: نعم، طمئني يا دكتور هل هي بخير؟
قال الطبيب ببرود: تمت خياطة الجرح في رأسها بست غرز، لقد أنقذها الله من إصابة خطيرة، الحمد لله أن ارتطامها بالرصيف لم يعرضها لمضاعفات أكثر، ويبدو أن أحداً ما قد تهجم عليها قبل أن تقع وأشبعها ضرباً!
كان في صوته نبرة وعيد وهو ينظر إلى شهاب باحتقار، خجل شهاب من نظراته، فلم يكن خافياً على طبيب مثله بأنه ضرب زوجته بهذه الوحشية، كانت الكدمات تملأ وجهها وجسدها عندما حملها.

خرجت الممرضة وحدثت شهاب بنظرة احتقار ثانية، أحس أنه في مأزق، قالت الممرضة وكأنها تحاول إخافته: سيأتي المحقق لسماع أقوالها، لقد تعرضت لاعتداء واضح، أرجو أن ينال الفاعل عقابه على ما فعله بهذه الفتاة الرقيقة!

أحس شهاب أن الجميع ينظر إليه كما لو كان وحشاً، اجتاحه شعور عميق بالندم، وشعور عميق بذلك الظلم الذي أوقعه على عذارى التي يحبها!
عندما أتى المحقق سأله عن ما حصل، أخبره أن زوجته قد انزلت قدمها في

الممشى وتعرضت لكل هذه الكدمات، تركه المحقق ودخل إليها، وبعد فترة خرج وهو يقول: زوجتك أكدت أقوالك! كان ينظر إليه باحتقار وهو يردف: المسكينة لا تريد أذيتك على ما يبدو، حسبي الله ونعم الوكيل!

ذهب المحقق وهو يأسف أنه لم يتمكن من إدانة شهاب بسبب تمسك زوجته بأقوالها لحمايته، أحس شهاب بالخجل أكثر وأكثر وهو يرى بنفسه ما فعلته يده بزوجته، فعندما دخل إليها هاله وجهها المنتفخ وتلك الكدمات الزرقاء المطبوعة عليه في أماكن متفرقة.

نظرت عذاري نحوه فأشاحت بوجهها عنه، اقترب منها، لاحظ أنها كانت تبكي، مد أصابعه ليمسح دموعها فدفعت يده بعنف بعيداً عنها، لم يكن ليلومها، لقد أذاها بشدة وتناول عليها، قال بصدق: أنا آسف..

لم ترد عليه، كانت لا تزال تبكي، كرر أسفه: أنا فعلاً آسف، أنا أحبك، وأغار عليك، أخاف أن تتركيني من أجل رجل آخر، عندما رأيت ذلك الرجل يسلم عليك كدت أجن غيرة عليك، كل ما فعلته لأنني أحبك كثيراً، أكثر من ما يمكنك أن تتخيلي...

استمعت إليه مرغمة، لكنها تمسكت بصمتها، ربت على شعرها بحنان وقال: أنا آسف حبيبتى، اطلبي مني أي شيء، مستعد لأن أفعل أي شيء من أجل أن تسامحيني..

نظرت إليه وقالت: أريد منك شيئاً واحداً للأسامحك..

قال سعيداً بتجاوبها معه: ماهو؟

قالت بإصرار: طلقني!

(106)

رأي طبي

قال الطبيب وهو ينظر إلى ماجدة بأسف: ابتتك محطمة نفسياً وعليها أن تدخل مصحاً لعلاج الأمراض النفسية، من الخطر أن تتركها وحدها دون مراقبة طبية، أنا أحذرك من العواقب!
ضربت ماجدة على صدرها وهي تسأله: خطر؟ لا أفهم قصدك يا دكتور، ماذا تعني بالخطر؟

قال بجديّة: ابتتك تعاني من اكتئاب حاد، لقد فقدت رغبتها في الحياة، قد تؤذي نفسها في لحظة ضعف، وهذه النوبات التي تتابها لا تبشر بالخير، عليها أن تخضع لعلاج دوائي وسلوكي في الوقت نفسه، المصح الذي أنصحك به مشهور جداً، يقع وسط مكان جميل تحيط به الطبيعة وستجد ابتتك هناك رعاية تميزية ممتازة وستكون تحت إشراف أفضل الأطباء في هذا المجال.

قالت ماجدة: دكتور، هل ستشفى ابنتي؟

قال لها: ابتتك رقيقة هشّة، لقد تعرضت للكثير من الضغوط النفسية التي أرهاقتها، ابتتك فتاة حساسة، ويبدو أن الصدمة العاطفية التي تعرضت لها بسبب خسارتها للرجل الذي تحبه كانت أكبر من قدرتها على التحمل، علينا أن ننقذها من انهيار محتم، وضعها صعب، لم التّق بشخص فقدت رغبته في الحياة إلى هذه الدرجة من قبل، إنها تنتظر الموت بشوق، هكذا أخبرني بنفسها.

بدت ماجدة مذهولة بما تسمعه، أكد لها الطبيب: افعلي ما أقوله لك من أجل مصلحة ابنتك وعلى فكرة لو كنت مكانك لما كنت عذبتها لهذه الدرجة ولتركتها تقترن بمن تريد!

نظرت إليه بدهشة وهي تحاول استيعاب ما يقول فأردف: من غير المعقول أن

نفضل أن يمرض أولادنا بدلاً من أن يتزوجوا ممن يريدون! هذه أنانية كبيرة! لو كنت مكانك لتركته تخوض التجربة بنفسها وتقرر إن كانت تريد الاستمرار بها أم لا، فالإنسان لا يتعلم إلا من تجاربه الخاصة، لقد دمرتها، إنها تعشق ذلك الشاب! أحست ماجدة بأنها ترتجف، لقد أخبرته ورد عن أيوب، إنه داؤها ودواؤها، لكنه سيتزوج قريباً، لقد حرمتها منه! أتراها أخطأت حقاً بكل ما فعلته؟

أصحيح أن مرض ابنتها أهون عليها من زواجها به؟

ورد الجميلة التي ذبلت قبل أوانها، ورد التي كرهت الحياة وصارت تناجي الموت بشوق، ورد التي لم تبسم أبداً منذ هجرها أيوب، ورد التي تنتفض بين ذراعيها كلما هاجمتها تلك النوبات التي تقربها من الموت بلا رحمة.

أتراها أخطأت عندما حرمتها من أيوب؟

نظرت إلى الطيب والدموع في عينيها، أو ما لها وقال: خذيها إلى ذلك المصح، لا تتأخري أكثر!

وعد لن يتحقق

كان وليد في انتظار ياسمين في المكتب، تعمد يومها أن يصرف السكرتير باكراً، وتأكد من إلغاء جميع مواعيده لذلك المساء..
يعرف أن عليه أن يخوض حديثاً طويلاً معها، أراد أن يتأهب لهذا اللقاء ومن الأسلم أن يكون معه وحدهما كي لا يسمع ما يقولانه أحد.
وصلت في تمام الساعة، ترتدي ثوباً قصيراً بلون اللؤلؤ، كانت جميلة ملفتة وعادتها وكان هو بانتظارها..
دخلت إليه، ابتسمت له وقالت: أخيراً طلبت رؤيتي، أرجو أن تكون قد اتخذت قرارك.

قال بهدوء: اجلسي أولاً ودعينا نتحدث..
جلست أمامه، كانت واثقة بنفسها يومها، أحست أنها تملك العالم، لا بد أنه قرر تطبيق فضة، لن يصمد أمام جمالها وشبابها، لن يصمد أبداً، لا أحد يمكنه أن يصمد أمامها!

قال وليد: ياسمين أنا حقاً آسف، وأريدك أن تقدرني موقفي، لا أستطيع الزواج بك، يجب أن أعيد فضة إلى البيت من أجل ولدي ومن أجل أمي أيضاً! صُغت بكلامه، صرخت بوجهه: ما هذا الذي تقوله؟ تتركني من أجل فضة؟ قال وهو يحاول أن يهدئها: ولدي صغير جداً، وأمي ستغضب علي، لا تنسي أنني ولدها الوحيد، وهي متعلقة بفضة وبيوسف، لا أستطيع أن أحطم أسرتي، علي أن أجمع شملنا.

قالت باستهزاء: تجمع شملكم وتطردني من حياتكم كحشرة؟ صحيح؟
عجباً، لقد أتقنت وصف نفسها، أحس في تلك اللحظة أنها فعلاً حشرة،

مجرد حشرة مزعجة وسخيفة التصقت صدفة على واجهة حياته!

نظر إليها، إنها ليست أكثر من وجه جميل، ودون هذا الوجه هي لا شيء!
لا تملك أية مبادئ، ولا حتى أي شيء ذو قيمة، عقلها فارغ، تحب نفسها
بغرور، إنها امرأة لن تقدم له سوى جمالها، والجمال يذهب مع الأيام، ويبقى
الخلق الطيب.

أحس في تلك اللحظة أن قد صحى من غفوته، حمد الله في سره أنه توصل
للقرار السليم ولم يكسر قلب زوجته، بدت ياسمين لحظتها في عينيه في أبشع
صورة رغم أنها في أجمل حالاتها.

قال لها: ما بيننا انتهى، لا أستطيع أن أطلق زوجتي ولا أن أضحي بولدي من
أجلك.

فقدت أعصابها وأخذت تصرخ به، شتمته بجميع الشتائم التي تعرفها،
أطلقت من شفيتها الكثير من الاتهامات، ضربت بيديها على صدره بجنون،
دفعها عنه فأخذت تشد شعرها، خرج من المكتب هارباً منها، تركها وراءه كي
تهداً وترحل وحدها.

في اليوم التالي اتصل به السكرتير جزعاً، أخبره أنه وجد المكتب مدمراً
بالكامل، لقد حطمت أثاثه، ومزقت ورقه، حتى ستائره لم تسلم من يديها،
لقد نفست عن غضبها بهذه الطريقة المخزية، ابتسم وهو يفكر، الحمد لله أنها
دمرت أثاثه ولم تدمر حياته والحمد لله أن كل ورقه المهم موجود في خزنته
السرية خلف الحائط.

أنهى الاتصال وقد طلب من السكرتير عدم إبلاغ الشرطة عما حدث، قام
إلى سجادة صلاته وصلى لله شاكراً، أخذ يحمد الله عشرات المرات بعدها..
إنه سعيد لأنه عاد إلى رشده وسيعود إلى فضة صاحبة ذلك القلب المصنوع
من الذهب.

(108)

عتب ولوم

عادت جوهرة من عند أهل عذارى فوجدت شهاب بانتظارها، كان أيوب يجلس في مقعد آخر وهو يعبث بهاتفه، وأحمد يجلس بجواره وهو يقرأ الصحف..

هتف شهاب بمجرد دخولها: ماذا قالت لك؟ ستعود لي؟ نظرت إليه عاتبة وقالت: شهاب، لا أصدق أنك فعلت كل ذلك بتلك المسكينة؟ لم أستطع أن أمسك دموعي عندما رأيت وجهها، ما الذي حصل لك هل أنت مجنون لتضربها هكذا؟

أحس شهاب بالخجل، نظر نحو أيوب كأنه يتأكد من أنه ليس شامتاً به فوجده صامتاً تماماً، قال أحمد: الآن تريدها أن تعود لك؟ لم ضربتها إذن وأهنتها؟ لقد كدت تقتلها! صحيح أننا لم نكن نريد تزويجك منها، لكن الفتاة كانت طيبة معنا ولم نجد منها إلا كل خير.

قالت جوهرة: كلام أبيك صحيح، الفتاة طيبة، لقد أحببتها عندما عرفتها، ما فعلته مخجل ومؤسف، إنها مصرة على الطلاق، مصرة على أنها لا تريدك، وأهلها مصرون أيضاً على طلاقها..

صرخ شهاب: لن أطلقها أبداً، أنا أحبها، ولازلت أريدها.

قالت جوهرة: من يحب شخصاً لا يؤذيه ويحطمه كبرياءه، أنت أذيتها بشدة، أي حب هذا الذي يسمح لك بأن تضربها بهذه الوحشية؟ هناك أمر آخر، أصبح أنك تتصنت عليها وتتجسس على مكالماتها؟ ألا تخجل من نفسك؟ كيف تعيش مع امرأة لا تثق بها؟

نظر شهاب إلى أيوب ثانية فوجده ينظر إليه ذاهلاً، انزعج لأن أمه قالت هذا

الكلام في حضوره، قال أحمد: كم أنا خجل منك!

أحس شهاب أنه لا يجد ما يقوله، كان محرراً مخطئاً في كل أفعاله، والأسوأ أن عذارى كانت مصرة على عدم مسامحته وعلى فضحه أمام أهلها وأهله لتبرر إصرارها على طلب الطلاق منه وبصراحة لم يكن يستطيع لومها على ذلك..

كان لا يزال يحبها، لكنه لم يكن يعرف لم أذاها، لم يكن يعرف أن الشك مرض تصاعدي، وأن المريض بالشك لن يتخلص منه إن أهمل معالجة نفسه، فالشك مرض نفسي خطير وحقيقي وقد يؤدي إلى ارتكاب الجرائم.

لم أصيب بالشك؟ لأنه عرف الكثيرات، عرف نساء من كل صنف ونوع، لقد عاد ماضيه عليه بالسلب، ولأنه يعرف ماضي زوجته صارت للشكوك تربة خصبة في عقله المريض.

عندما انسحب شهاب إلى غرفته أو ما أحمد لجوهرة نحو أيوب، اقترب منها هامساً وقال لها: إنه يعاني من أمر ما، لم ينطق بأي كلمة منذ عاد من العمل، تكلمي معه، واعرفي ما خطبه هو الآخر!

تنهدت جوهرة، لقد تكالبت عليها المشكلات، فمن ناحية فضة الغاضبة من زوجها والتي تركت بيته منذ مدة، ومن ناحية أخرى شهاب الذي أشبع زوجته ضرباً لأنه يشك بها! والآن أيوب الحزين الذي لا تعرف ما الذي حل به هو الآخر!

اقتربت منه، كان شارداً الذهن، سألته: أيوب، ما بك؟ أخبرني..

نظر إليها، ومن له غيرها ليشكو همه، ابتسم لها بحزن: جميلة!

سألته: ما بها؟

قال: متردد بالزواج بها!

زفرت وهي تجلس، سألته: من أجل ورد؟

قال بصراحة: ورد لا تزال في قلبي، أخاف أن أظلم جميلة إن تزوجتها.

قالت له: ورد لن تكون لك، تعرف موقف أمها، ثم أنك أنت الذي طلبت

مني أن أخطب لك.

قال: صحيح، معك حق..

سكت لبرهة وكانت تتأمله، تذكرته طفلاً رضيعاً يغفو بين ذراعيها، نظر إليها، يعرف أنها ملاذه الوحيد، قال وكأنه يبحث عن حل في عينيها: أمي.. أتظنين أن زواجي من جميلة أمر صائب؟

قالت له: جميلة فتاة طيبة، أعتقد أنها ستسعدك، لكن لا تستعجل يا ولدي، يمكنك أن تتحدث معها لتأجيل الزواج أكثر، بنات الناس لسن لعبة يا أيوب، لا تتزوج منها إلا بعد أن تتأكد من صحة قرارك، حرام أن تظلمها يا ولدي، فالظلم ظلمات.

ابتسم لها: معك حق، سأطلب منها تأجيل موعد زواجنا، علي أن أكون واثقاً من قراري، لدي كل الوقت لأقرر، أليس كذلك؟

ربت على رأسه وأومات له موافقة، التقط يدها وقبلها بامتنان، فكل شيء يهون ويصغر عندما تحكيه لأمك.



بِأَمْرِ

شَهْرَيْنِ

أَخْرَيْنِ ..

(109)

خبر جميل

نزلت فضة من غرفتها في منزل زوجها بوجه مستبشر..

كانت أم وليد تطعم يوسف بعض الفاكهة، لقد بدأ يتذوق الطعام وكان يحب الفاكهة كثيراً ويصرخ في طلب المزيد منها كلما تذوقها.

ابتسمت الأم لرؤية فضة، كانت تشعر بالفرح يغمرها كلما رأتها أمامها بعد كل ذلك الغياب وبعد تلك الأزمة التي مرت بسلام بينها وبين ولدها.

كانت تحمد الله كثيراً أن وليد قد عاد إلى رشده وأعاد زوجته وولده إلى البيت، لا شيء أجمل من أسرة متماسكة، دعت الأم في سرها: يارب احفظ ولدي وأسرته من كل سوء وألف بين قلوبهم.

اقتربت منها فضة وقبلت رأسها، تعرف كم وقفت هذه المرأة معها، تعرف أنها أنصفتها ولولا موقفها العظيم الداعم لها لما عادت إلى بيتها وزوجها. إنها تعترف بفضلها، وستخدمها وتحسن إليها طوال عمرها، إن أم زوجها كنز، وامرأة مثلها عطية عظيمة من ربها.

قالت الأم: لم تبتسمين؟

ضحكت فضة..

قالت الأم ثانية: وتضحكين أيضاً!

قالت فضة وبقايا ابتسامتها لا تزال على شفيتها: لقد حدثت غلطة ما!

استفسرت الأم: غلطة؟ ماذا تقصدين؟

ابتسمت فضة بخجل وقالت: أنا حامل!

ضحكت الأم هذه المرة، فتحت لها ذراعيها لترتمي فضة بينهما، همست
وكنتها بين أحضانها وحفيدها يراقبهما وهو يلهو ويتسم: الحمد لله، شكراً
يارب..

(110)

اعتذار غير كاف

كانت عذاري تمشي مع كمبو في الممشى، لم تكن تخرج كثيراً من البيت، حتى عملها لم تعد تذهب إليه فقد قدمت إجازة مفتوحة لحين تتمكن من إستعادة نفسها.

كانت محطمة، فما مرت به لم يكن هيناً، وعدتها جوهرة بأنها ستحصل على الطلاق من شهاب في القريب العاجل، لم تفلح محاولاتها للإصلاح بينهما، سيكون شهاب مجرد ذكرى في حياتها، تماماً كما أصبح عبدالله مجرد ذكرى، لن تسمح لأي رجل بالاقتراب منها ثانية، فقلبها لم يعد صالحاً للحب، يكفيها ما نالها، ستركز على عملها، وستهتم فقط بكلبها، فهو الأوفى لها والوحيد الذي لن يخذلها!

ربت على رأس كمبو فنيح وكأنه يخبرها بأنه يفهمها، سارت معه لمسافة طويلة وهي سارحة دون أن تحس..

وفجأة أحست بخطوات تعرفها جيداً تقترب منها، التفتت فوجدته أمامها، كان شهاب واقفاً ينظر إليها برجاء، قال لها وهو يراها تهتم بالرحيل: عذاري، يجب أن نتحدث! أرجوك اسمعيني!

قالت وهي لا تنظر إليه: لقد انتهى كل حديث بيننا، أرسل لي ورقة طلاقي.. كل ما بيننا قد انتهى.

كادت تخطو بعيدة عنه فقال: لازلت أحبك، أنا حقاً آسف..

قالت بحزن: لم أعد أثق بحبك لي، لقد فقدت ثقتي بك، وفقدت ثقتي في كل شيء، شهاب إكراماً لذكرياتنا الحلوة طلقني بهدوء، إن كان لي خاطر عندك افعل ذلك من أجلي.

قال لها: ما الذي يمكنني فعله لتغيري قرارك؟

قالت بألم: لا شيء، فالإناء عندما يكسر لا يمكن إعادة أجزائه، وأنت كسرتني يا شهاب..

سارت مبتعدة عنه، عرف أنه خسرها، تألم لفقدتها، تألم لأن قصته معها انتهت على هذا النحو..

لكنه قرر أن لا يطلقها، فمن يدري، قد تحن إليه ذات يوم، قد تنسى ما فعله، وقد يُشفى من شكه، وقد يجتمعان معاً ليمشيا يداً بيد من جديد...

((تختنق الأمنيات.. تقسو علينا الحياة.. تبكي العيون على أحلام قد تكون
أو لا تكون، نغفو نعانق الحزن، نصحو نحاول النسيان.. أحلامنا قد لا تكتمل،
أشواقنا قد لا تنطفيء.. يداعبنا سراب الأمل.. يشعل في القلب شمعة تغالب
رياح الألم...
نتأمل ونتعلم..

وعلى جراحنا نمضي.. محاولين.. مكابرين.. لنحلم من جديد...))

(111)

موقف إنساني

لم يصدق أيوب نفسه وهو يسمع ماتقوله جميلة في الهاتف: الأفضل أن
 نهى ارتباطنا يا أيوب!

كانت غاضبة، لأنه أجل موعد زواجهما أكثر من مرة، صار موقفها محرراً
 أمام أهلها وهي تسوق لهم في كل مرة عذراً جديداً لهذا التأجيل غير المبرر،
 كانت تنتظر اليوم الذي يجتمعان فيه معاً وكان هو يتهرب من هذا اليوم
 ويخافه!

قال لها: جميلة، سبق واتفقنا على أن نأخذ كل الوقت اللازم لتعرف على
 بعضنا ونتأكد من أننا نصلح لبعض.

قالت وهي تكاد تصرخ غيظاً: أنت الذي تريد أن تتأكد من أنك تريدني،
 أتعرف لماذا؟ لأنك لازلت تحب ورد، ورد تقف بيننا يا أيوب، عليك مواجهة
 الأمر بشجاعة، أنت لم تنسها بعد وعلى ما يبدو لن تنساها أبداً..

كانت محقة، لم لا يعترف بهذه الحقيقة وينهي هذه المسألة المعلقة!
 كان يحادثها وهو يقود سيارته، وصل إلى البيت وركنها في مكانه المعتاد
 تحت المظلة، نزل مترجلاً منها وأقفل الباب وراءه، وبمجرد أن خطى سمع
 صوتاً يناديه: أيوب!

التفت فوجد آخر شخص يتوقع رؤيته!

إنها ماجدة!!

أنهى مكالمته مع جميلة بسرعة، وقف في مواجهة ماجدة ذاهلاً، بدت
 أنحف من السابق بكثير وبدت له متعبة على نحو واضح..



قالت له: أيوب، عليك أن تسافر معي من أجل ورد!

لم يفهم قصدها، فنظر إليها مستفسراً، فأردفت: إنها مريضة جداً، أريدها أن تراك، تحتاج أن تراك، أيوب، ورد بحاجة إليك..

(112)

صندوق

كانت جوهرة تجلس في غرفتها ذلك المساء، تعرف أن أيوب سيسافر بعد قليل مع ماجدة ليزور ورد في المصح ويطمئن عليها..

سمعت خطواته تقترب من غرفتها، تعرف خطواته جيداً منذ كان طفلاً صغيراً، إنها تستطيع تمييز خطواته من بين خطوات الجميع في المنزل، فهذه الخطوات يميزها قلبها لا سمعها.

طرق باب غرفتها ودخل، ابتسمت له، كان يحمل بين يديه صندوقه الأزرق، تعرف هي هذا الصندوق جيداً، لكنه لا يعرف أنها تعرف ما فيه أيضاً.

قال لها وهو يركع بجوارها: سأسافر الآن.. خالتي ماجدة في الطريق لتأخذني معها إلى المطار..

قالت له وهي تربت على خده: انتبه لنفسك ولورد..

قال لها: لدي أمانة أريد منك أن تعيدها لصاحبها..

قالت له: وماهي؟

أعطاهها دبلة جميلة، وقال بأسف حقيقي: أرجو أن تقدر موقفي، أخبرتها كم هي رائعة وكم أنا أسف..

قالت وهي تطمئنه: سأجعلها تتفهم، أن تتركها الآن أفضل ألف مرة من أن تتركها بعد الزواج، لا يمكنك أن تجامل بما يخص مشاعرك يا ولدي، فقلب الإنسان ليس في يده.

قال بحزن: معك حق، هناك أمر آخر..

ابتسمت له: وهو؟

مد يده لها بصندوقه لأزرع وقال: في هذا الصندوق ستجدين الكثير من

الرسائل التي كتبتها في مراحل مختلفة من حياتي.. إنها رسائل كتبتها لأناجي أمي الحقيقية، كنت أشتري لها الهدايا وأخبؤها في هذا الصندوق، كنت آمل بأن أعرفها في يوم ما..

قالت له بحنان والدموع تتجمع في عينيها: ولم لم تعطها لأريج عندما عرفت أنها أمك؟

قال بصدق: لأنني اكتشفت أن لي أمًا واحدة فقط، أم اسمها جوهرة، أنت وحدك أمي يا جوهرتي الغالية، إليك هذا الصندوق وما يحويه، يمكنك أن تمزقي هذه الرسائل، أن تحرقها، أن تتخلصي منها، افعلي بها ما تشائين، أما الهدايا فهي لك وحدك، فانتِ أمي الحقيقية، وأغلى ما لدي في هذه الدنيا... بكت وهي تستمع له، بكى معها، ضمته إلى صدرها، وأشبعها تقيلاً...

(113)

النهاية

في مكان رائع كانت ورد تجلس على مقعد في حديقة المصح بجوار بحيرة صغيرة ذات مياه صافية..

لطالما أحببت الجلوس في هذا المكان بالذات، ولطالما استمعت لصوت الطيور التي تغرد حولها، وأرهفت السمع لحفيف الأشجار التي تجلس بينها.. بدت كالطفلة بردائها الأزرق الخفيف والشال الصوفي السميك الذي تضعه على كتفيها لتتقي نسيمات الهواء الباردة التي لم تعد تستطيع احتمالها. بدت نحيلة جداً، وكان وجهها خالٍ تماماً من المساحيق..

شدت الشال حول جسدها وهي تحس بهبوب بعض الهواء على وجنتيها، وبدت أصابعها متشنجة على طرف شالها..

كانت تنظر إلى الأفق البعيد عندما لمحها أيوب، وكانت ماجدة تقف بجواره...

أشارت له إليها وقالت من بين دموعها: إنها هناك، أرجوك، اذهب إليها! لن أحتمل رحيلها.. أنقذها وأعد لها الرغبة بالحياة يا أيوب، إنها لا تستطيع الحياة من دونك.

لم يكن ليصدق لو أن أحداً أخبره أن ماجدة بجبروتها ستحضره إلى ورد بنفسها في يوم من الأيام، بل وستطلب منه أن يعود لها.

نظر نحو وورده، حبيبته الوحيدة، روحه التي تعيش في جسد آخر، نظر نحو الفتاة الوحيدة التي خفق لها قلبه، إلى الفتاة الوحيدة التي قبلت به كما هو، الفتاة التي أحبته رغم كل شيء وساندته في كل ما مر به، الفتاة التي احتوت ضياعه ومنحته الأمل في أقصى أيام حياته، الفتاة الوفية التي لم تحتمل وحشة الحياة

من دونه..

كانت تبدو مختلفة الشكل لكنه عرف يقيناً أن ما بداخلها لم يتغير..
 اقترب منها بهدوء.. لم تشعر هي باقترابه، وقف بجوارها وقال: اشتقت إليك!

مدت يدها المرتعشة وحكت أذنها، لقد ظنت أنها واهمة!
 قال ثانية: ورد، أنا أيوب، أتيت لأجلك.. لقد اشتقت إليك..
 فتحت عينيها على آخرهما، التفتت نحوه ببطء فوجدته على مقربة منها،
 خطى نحوها خطوة واحدة، قال بحنان: أنا آسف.. وهي أيضاً آسفة!
 نظرت إليه متسائلة، فأشار لها نحو أمها الباكية، وفهمت، فهمت أن أمها قد
 أحضرته من أجلها، ياه، لقد مر وقت طويل، لكن الحلم تحقق في النهاية..
 إنه هنا الآن، لقد جاء من أجلها، أحست ببعض الطين في أذنيها عندما همت
 بالقيام من مقعدها، كانت تلك الأدوية قوية جداً عليها، لكنها تعرف الآن يقيناً
 أنها بوجوده معها لن تحتاج إليها من جديد..

كاد توازنها أن يختل عندما وقفت، اقترب أيوب منها محاولاً مساعدتها لكنه
 لم يجرؤ على لمسها، بدت وكأنها قابلة للكسر من شدة هشاشتها..
 خلعت حذاءها فجأة وسارت على العشب الندي، ابتسم وهو يراقبها،
 وابتسمت أمها من بين دموعها وهي تراها حافية على العشب كما كانت تفعل
 في طفولتها..

التفتت ورد إلى أيوب ومدت له يدها وآخر دمع لها ينهمر على وجنتيها، فلن
 تحتاج لدموعها بعد أن عاد إليها..
 أسرع أيوب إليها وأمسك بيدها بقوة ووضع ذراعه حولها ليسندها..
 ومن تلك اللحظة.. لم يفارقها أبداً...

(تمت)



شكر خاص

أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لجمعية كيان للرعاية
الأسرية المهمة بقضايا مجهولي الوالدين والداعمة
للاحتضان في دولة الكويت ..
وأخص بالشكر السيدة الفاضلة أنيسة الجارالله أمين
سر هذه الجمعية الموقرة والتي قدمت لي الكثير من
المعلومات القيمة في سبيل كتابة هذه الرواية ..